

# الموسوعة الشامية في تاريخ الحزب والقطبيّة

المصادر العربية  
مؤرخو القرن السادس (٢)

ألف وتحقيق وترجمة  
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

كتاب الاعتبار

لاسامة بن منقذ الكفاني

( ٤٨٨ - ٥٨٤ / ١٠٩٥ - ١١٨٨ )

مدخل الى كتاب الاعتبار

تراجم اسامة من :

- تاريخ دمشق لابن عساكر
- خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصفهاني
- معجم الادباء لياقوت الحموي
- بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم
- وفيات الاعيان لابن خلكان
- المقفى الكبير للمقريزي .

## توطئة

### بسم الله الرحمن الرحيم

اعتدت فيما تقدم من مجلدات ان يكون موضوع التوطئة الاساسي الحديث عن حياة المؤلف أو المؤلفين ، وهذا ما سوف أبدله في هذا المجلد ، ذلك ان موضوعه الاساسي أشبه بذكرات شخصية فيها ترجمة لحياة المؤلف وتعريف بوسطه وعصره ، وهذا المؤلف هو الفارس العربي ، الشاعر الأديب والسياسي أسامة بن منقذ ، الذي غالبا اذا ما أريد التعريف به قيل « صاحب كتاب الاعتبار ».

ويعد كتاب الاعتبار على رأس ادبيات عصر الحروب الصليبية وأهمها ليس لما حواه وانفرد به من مواد اخبارية ثمينة جدا فحسب بل لتمييزه باللون العربي النقي ، فنحن لدى تعاملنا مع نصوص المصادر العربية للحروب الصليبية نلاحظ أنها ركزت على افعال الحكام والقادة الذين كان جلهم من أصل غير عربي ، تركماني أو كردي أو غير ذلك ، وهمشت دور العناصر العربية السياسية والقبلية ، حتى باتت صورة الصراع أشبه بصراع بين قوى أجنبية مسلمة من جانب ومسيحية من الجانب الآخر على بلاد الشام ومصر والجزيرة .

وصحيح ان القوى السياسية العربية من التكتلات القبلية قد تأثرت كثيرا إثر قدوم السلاحقة ، وهو ما شاهدناه في الجزء الأول من هذه الموسوعة ، لكن الآن من خلال ما كتبه أسامة مع معطيات أخرى يمكننا التأكيد على ان دور القوى العربية والتكتلات القبلية ظل فعالا واساسيا ، واذا ما أضيف لهذا حقيقة كون سكان بلاد الشام عربا في المدن والارياف . هنا يمكننا شطب مقولة الصراع بين



قوتين أجنبيتين ، واستبدالها بأخرى بأن الصراع بين غزاة أجنب  
في كل شيء قدموا من أوروبا وبين أصحاب البلاد العرب .

وحتى تزداد الفائدة من كتاب الاعتبار صنعت له مدخلا وخاتمة ،  
أودعت في المدخل عدة تراجم لأسامة ، كما أودعت في الخاتمة  
ترجمتين لاثنتين من الاعلام الذين كان لأسامة بهم علاقة مباشرة .

وعلي أن أشير إلى أن كتاب الاعتبار نشر أكثر من مرة ، اعتمادا  
على مخطوطة وحيية مبنورة الأول كانت موجودة في مكتبة دير  
الاسكوريال قرب مدريد في اسبانيا ، ومن أشهر الذين عملوا على  
تحقيق هذا الكتاب فيليب حتي ، وقد نشرها في برنستون بالولايات  
المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٠ ، وقد بذل الدكتور حتي جهودا كبيرة  
لدى تحقيقه لنص الكتاب ، لكنه اخفق في كثير من الاماكن في  
الوصول الى القراءة الصحيحة ، وتميز الدكتور حتي بأنه أودع في  
الحواشي رسم الكلمات التي لم يتوصل الى قراءتها بالشكل الصحيح  
أو شك بها ، وكان لهذا فوائده الجلية ، لأن مخطوطة الكتاب  
مفقودة الآن ، وبعد الدكتور حتي أعيد نشر الكتاب كاملا أو  
مختصرا أكثر من مرة وفي أكثر من مكان ، ومع هذا ظلت النجاحات  
هي هي .

ويخيل لي أنني في عملي الآن تمكنت من تقويم النص وإزالة  
مشاكله ، وساعدني على ذلك عدة عوامل ، بينها الانتماء الجغرافي ،  
والممارسة الطويلة والخبرة المعمقة بكتب التراث العربي ،  
ولتخصني الآن وانقطاعي شبه الكامل للعمل في أحداث الحروب  
الصليبية .

ان لغة أسامة في كتابه « الاعتبار » واصطلاحاته مازالت قائمة  
حتى الآن في بيئة مدينة حماء ، وهي مدينتي التي نشأت بها ، فضلا  
عن أنني عشت عدة سنوات في المنطقة القريبة من شيزر ، وكان لهذا  
فوائده .

- ٥٤٤٩ -

الكتاب الآن بين يدي القراء جميعا ، وأملني كبير في أن أكون قد  
وفقت في عملي ، والله المستعان وله الحمد والمنة ، ومنه جل وعلا  
أسأل دوما التوفيق والسداد .

وصلى الله على سيدنا ونبيينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

سهيل زكار

دمشق ٩ ، ٤ ، ١٩٩٥

## اسامة بن مرشد بن علي

ابن المقلد بن نصر بن مذقذ بن نصر بن هاشم  
- ابو المظفر الكفاني ، الملقب بمؤيد الدولة  
( من تاريخ دمشق لابن عساكر )

له يد بيضاء في الادب والكتابة والشعر .  
ذكر لي انه ولد سنة ثمان وثمانين واربعمئة ، وقدم دمشق سنة  
اثنين وثلاثين وخمسمئة ، وخدم بها السلطان وقرب منه ؛ وكان  
فارسا شجاعا ، ثم خرج الى مصر فاقام بها مدة ، ثم رجع الى  
الشام وسكن حماة ؛ واجتمعت به بدمشق ، واذشني قصائد من  
شعره سنة ثمان وخمسين وخمسمئة .

قال لي ابو عبد الله محمد بن الحسن بن الملحي : الامير مؤيد الدولة  
اسامة بن مرشد بن مذقذ شاعر اهل الدهر ؛ مالك عنان النظم  
والذثر ، متصرف في معانيه ، لاحق بطبقة ابيه ، ليس يستقصى  
وصفه بمعان ، ولا يعبر عن شرحها بلسان ، قصائده الطوال لا يفرق  
بينها وبين شعر ابن الوليد ( ١ ) ؛ غير محتفل في طولها ، ولا يتعثر  
لفظه العالي في شيء من فضولها ، والمقطعات فاحلى من الشهد ،  
والذ من الذوم بعد طول السهد ، في كل معنى غريب وشرح عجيب .  
كتب على حائط دار سكنها بالموصل :

دار سكنت بها كرها وما سكنت  
روحي الى شجن فيها ولا سكن

- ٥٤٥١ -

والقبر استر لي منها واجمل بي  
ان صدني الدهر عن عودي الى وطني ( ٢ )

وكتب الى اخيه :

عجمتني الخطوب حينما فلما  
عجزت ان تطيق مساغا  
لفظتني وسالمتني فقد عا  
د حذاري امنا وشغلي فراغا  
واخو الصبر في الحوادث ان لم  
يلقه الحين مدرك ما راغا ( ٣ )

وكتب على حائط جامع :

هذا كتاب فتى احلقه الذوى  
اوطانها ونبت به اوطانه  
شطت به عمن يحب بياره  
وتفرقت ايدي سبا اخوانه  
ممتابع الزفرات بين ضلوعه  
قلب يروح ببثه خفقانه  
تاوي إليه مع الظلام همومه  
وتذوده عن نومه أشجانه  
لكنه لا يستكين لحادث  
خوف الحمام ولايراع حنانه  
ألفت مقارعة الكمأة جياهه  
وسرى الهواجر لايني نملانه



- ٥٤٥٢ -

يومان أجمع دهره إما سرى  
أو يوم حرب تلتظي نيرانه (٤)

أنشدنا أبو المظفر :

نافقت دهرى فوجهي ضاحك جذل  
طلق وقلبي كئيب مكمد باكي  
وراحة القلب في الشكوى ولذتها  
لو أمكنت لا تساوي ذلة الشاكي (٥)

وانشدني ايضا:

اصبحت لا اشكو الخطوب وانما  
اشكو زمانا لم يدع لي مشتكي  
افنى اخلائي واهل مودتي  
واباد اخوان الصفاء واهلكا  
عاشوا براحتهم ومت لفقدهم  
فعلي يبكي لا عليهم من بكى  
وبقيت بعدهم كأني حائر  
بمفازة لم يلق فيها مسلكا (٦)

وانشدني ايضا :

احبابنا كيف اللقاء ودونكم  
خوض المهالك والفيافي الفيح  
ابكيتم عيني دما فكانما  
انسانها بيد الفراق جريح  
فكان قلبي حين يخطر ذكركم  
لهب الضرام تعاورته الريح (٧)



وانشدني ايضا :

يامؤيدي بتجنيه وهجرته  
هل حرم الحب تسوي في وتعليلي

يبدي لي اليأس تصريرا فتكذبه  
طماعي وأرى والامال تملي لي

وقد رضيت قليلا منك تبذله  
فما احتيالي اذا استكثرت تقيلي ( ٨ )

وانشدني ما قاله في خرس له قلعة :

وصاحب لا تمل الدهر صحبته  
يشقى لذقي ويسعى سعي مجتهد

لم يبد لي مذ تصاحبنا فحين بدا  
لناظري افترقنا فرقة الابد ( ٩ )

وانشدني :

ومما ذوق رجع النداء جوابه  
فاذا عرا خطب فابعد من دعي

مثل الصدى يخفى علي مكانه  
ابدا ويملا بالاجابة مسمعي ( ١٠ ) م

وانشدني مما عمله بقيسارية :

اراني نهار الشيب قصدي وطالما  
تجاوز بي ليل الشباب سبيلي

وقد كان عذري ان اضلني الدجى  
فهل لي عذر والنهار دليلي ( ١١ )

وانشدنا :

إذا ماعدا دهر من الخطب فاصطبر  
فان الليالي بالخطوب حوامل  
وكل الذي يأتي به الدهر زائل  
سريعا فلا تجزع لما هو زائل ( ١٢ )

وانشدني :

لا تخذعن باطماع تزخرفها  
لك المني بحديث المين والخدع  
فلو كشفت عن الهلكى باجمعهم  
وجدت هلكهم في الحرص والطمع ( ١٣ )

وانشدني :

لا در درك من رجاء كاذب  
يعترنا بورود لامع لال  
ابدا يسوفنا بنصرة خاذل  
ووفاء خوان وعطفة قال  
ويرى سبيل الرشد لكن مالنا  
عزم مع الاهواء والامال ( ١٤ )

وانشدني مما قاله بمصر :

انظر الى صرف دهري كيف عويني  
بعد المشيب سوى عاداتي الاول

- ٥٤٥٥ -

تغاير من صروف الدهر معتبر  
واي حال على الايام لم يحل

قد كنت مسعر حرب كلما خمدت  
اضرمتها باقتداح البيض في القل

همي منازل الاقران احسبهم  
فرائسي فهم مني على وجل

امضى على الهول من ليل واهجم من  
سيل واقدم في الهيجاء من اجل

فصرت كالغادة المكسال مضجعتها  
على الحشايا وراء الاسجف والكل

قد كدت اعفن من طول الثواء كما  
يصدي المهند طول اللبث في الخل

أروح بعد دروع الحرب في حال  
من الديبقي فبؤسا لي والحال

وما الرفاهة من رأيي وطري  
ولا التنعم من همي ولا شغلي

ولست ارضى بلوغ المجد في رفة  
ولالاعلا دون حطم البيض والاسل ( ١٥ )

وانشدني بعد ماقاله في خروجه من مصر ، قال :

اليك فلا تثني شؤونك شاني  
ولا تملك العين الحسان عناني

ولا تجزعي من بغة البين واصبري  
لعل التناي معقب لتداني

- ٥٤٥٦ -

قللا سد غيل حيث حلت وانما  
يهاب التناثي قلب كل هدان

ولاتحملي هم اغترابي فلم ازل  
غريب وفاء في الورى وبيان

وفيا اذا ماخان جفن لناظر  
ولم يرع كف صحبة لبنان

ارى الغدر عارا يكتب الدهر وصمة  
ويقراه ما بين الملا الملوان

ولاتسأليني عن زمانى فانتى  
انزه عن شكوى الخطوب لسانى

ولكن سلى عني الزمان فانه  
يحدث عن صبرى على الحدثان

رمتنى الليالى بالخطوب جهالة  
بصبرى على مانابنى وعرانى

فما اوهنت عزمى الرزايا ولالها  
بحسن اصطبارى في الملم يدان

وكم نكبة ظن العدى انها الردى  
سمت بى واعلت في البرية شانى

وماانا ممن يستكين لحادث  
ولايملا الهول المخوف جنانى

وان كان دهري غال وفري فلم يغل  
ثنائى ولاذكرى بكل مكان

وماكان الا للذوال وللقرى  
وغوثا للهوف وفنية عان

- ٥٤٥٧ -

حمدت على حالي يسار وعسرة  
وبرزت في يومي ندى وطعان

ولم ادخر الدهر ان راب او نبا  
والخطب الا صارمي وسناني

لان جميل الذكر يبقى لاهله  
وكل الذي فوق البسيطة فان ( ١٦ )



## الأمير مؤيد الدولة أبو المظفر اسامة بن مرشد من خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصفهاني

ابن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ بن نصر بن  
هاشم بن سرار بن زياد بن زغيب بن مكحول بن عمرو بن الحارث  
ابن عامر بن مالك بن مالك بن عوف بن كنانة بن بكر بن عذرة بن زيد  
اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن  
عمران بن الحاف بن قضاة بن مالك بن حمير بن مرة بن زيد بن  
مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن  
ارفخش بن سام بن نوح بن لك بن متوشلخ بن اخذوخ بن يرد بن  
مهلائيل بن قينان بن ادوش بن شيث بن ادم عليه السلام .

اسامة كأسمه ، في قوة نثره ونظمه ، يلوح من كلامه اماره الامارة ،  
ويؤسس بيت قريضه عمارة العبارة ، نشر له علم العلم ، ورقى سلم  
السلم ، ولزم طريق السلامة ، وتذكب سبل الملامة ، واشتغل  
بذفسه ، ومحاوره ابناء جذسه ، حلوا المجالسة ، حالي المساجلة ،  
ندي الندي بماء الفكاهة ، عالي النجم في سماء النباهة ، معتدل  
التصارييف ، مطبوع التصانيف ، اسكنه عشق الغوطة ، بدمشق  
المغبوطة ، ثم نبت به كما تنبوا الدار بالكريم ، فانتقل الى مصر فبقي  
بها مؤمرا مشارا اليه بالتعظيم ، الى ايام ابن رزيك فعاد الى  
الشام ، وسكن دمشق مخصوصا بالاكرام ، حتى اخذت شيزر من  
اهله ، ورشقهم صرف الزمان بنبله ، ورماه الحدثان الى حصن كيفا  
مقيما بها في ولده ، مؤثرا بلدها على بلده ، حتى اعاد الله دمشق الى  
سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب في سنة سبعين ،  
ولم يزل مشغوقا بذكره ، مستهترا باشاعة نظمه ونثره ، والامير  
العضد مرهف ولد الامير مؤيد الدولة جليسه ، ونليمه وانيسه ،  
فاستدعاه الى دمشق وهو شيخ قد جاوز الثمانين ، وكنت قد طالعت

- ٥٤٥٩ -

منيل السمعاني ووجدته قد وصفه وقرظه ، وانشدني العامري له  
باصفهان من شعره ما حفظه ، وكنت اتمنى ابدا لقياء ، واشيم على  
البعد حياه ، حتى لقيت في صفر سنة احدى وسبعين بدمشق وسألته  
عن مولده ، فقال : سنة ثمان وثمانين واربعمئة ، يوم الاحد السابع  
والعشرين من جمادى الآخرة . وانشدني لنفسه البيتين اللذين سارا  
له ، في قلع ضرسه :

وصاحب لا امل الدهر صحبته  
يشقى لذني ويسعى سعي مجتهد

لم اقه مذ تصاحبنا فحين بدا  
لناظري افترقنا فرقة الابد ( ١٧ )

لو انصفت فهمك ان كنت منتقدا ، فرقيت عن مرقب وهمك  
مجتهدا ، وغصت بنظر فكرك في بحار معانيه ، لغنمت من فرائد درره  
ولآليه ، ولعلمت ان الشعر اذا لم يكن هكذا فلغو ، وانه اذا لم يبلغ  
هذا الحد من الجد فهجر ولهو . ومن الذي اتى في وصف السنن  
المقلوع ، بمثل هذا الفن المطبوع ، فهل سبقه احد الى معناه ، وهل  
ساواه في هذا النمط سواه .

وانشدني ايضا لنفسه ، في معنى قلع ضرسه :

وصاحب صاحبي في الصبا  
حتى تربيت رداء المشيب

لم يبد لي ستين حولاً ولا  
بلوت من اخلاقه ما يريب

افسده الدهر ومن ذا الذي  
يحافظ العهد بظهر المغيب

ثم افترقنا لم اصب مثله  
عمري ، ومثلي ابدا لا يصيب

- ٥٤٦٠ -

فاعجب لها من فرقة باعدت  
بين الفين وكل حبيب ( ١٨ )

وانشدني لنفسه من قديم شعره :

قالوا نهته الاربعون عن الصبا  
واخو المشيب يحور ثمت يهتدي

كم حار في ليل الشباب فدلّه  
صبح المشيب على الطريق الاقصد

واذا عدت سني ثم نقصتها  
زمن الهموم ، فتلك ساعة مولدي (١٩)

تعجب من مقاصد هذه الكلم ، وتعرض لما ورد هذه الحكم ،  
واقض العجب كل العجب ، من غزارة هذا الادب ، ولولا ان المداد  
افضل ماترقم به صحائف الكتب ، لحررت هذه الابيات بماء  
الذهب ، فهذا ابلغ من قول ابي فراس بن حمدان:

ما العمر ما طالت به الدهور  
العمر ماتم به السرور

ايام عزي ونفاذ امري  
هي التي احسبها من عمري ( ٢٠ )

فالفضل للمتقدم في ابتكار المعنى والمتأخر في المبالغة ، حيث ذكره  
في بيت واحد ولم يجعل له نصيبا من العمر الا ساعة مولده . فجميع  
الحياة على الحقيقة نصب ، والم وتعب .  
وانشدني ايضا لنفسه من قديم نظمه :

تجرم حتى مللت عتابة  
واعرضت عنه لا اريد اقترا به

- ٥٤٦١ -

اذا سقطت من مفرق المرء شعرة  
تأفف منها ان تمس ثيابه ( ٢١ )

وانشدني من قديم قوله في السلوان ايضا :

لم يبق لي في هواكم ارب  
سلوتكم ، والقلوب تنقلب

اوضحتم لي سبل السلو وقد  
كانت لي الطرق عنه تذبذب

الام دمعي من هجركم سرب  
فان ، وقلبي ومن غدركم يجب

ان كان هذا تعبدي ال  
حب فقد اعتقتني الريب

احببتكم فوق ماتوهمه ال  
ناس وخنتم اضعاف ما حسبوا ( ٢٢ )

تأمل هذه المعاني والابيات ، بعين التاني والثبات ، تعرف ان  
قائلها من ذوي الحمية ، والذفوس الالية ، والهمم العلية ، وكل من  
يملكه الهوى ويسترقه ، قلما يطلقه السلو ويعتقه ، الا ان يكون  
كبيرا غلب عقله هواه ، واستهجن في الشهوات المذمومة نيل مناه .  
وقوله : « فقد اعتقتني الريب » في غاية الجودة ونهاية الكمال ، اعذب  
من الزلال ، واطيب من السحر الحلال ، واللعب بقلوب المتيمين من  
نسيم الشمال .

وقوله ايضا من قديم شعره :

اذا اخذت في الهوى عني اساءته  
ابدي تجنيه نذبي قبل اجنيه

- ٥٤٦٢ -

كذلك انسان عيني لا يزال يرى  
عيبي ، ولست ارى العيب الذي فيه ( ٢٣ )

وقوله ايضا :

يادهر مالك لا يصد  
ك عن اساءتي العتاب  
امرضت من اهوى ويا  
بي ان امرضه الحجاب  
لو كنت تنصف كانت الا  
مراض لي وله الثواب ( ٢٤ )

قد قيل في مرض الحبيب كل معنى بكر ، مخترع لديه ومبتدع  
فكر ، الا ان هذه الابيات لطيفة المغزى ، طريفة المعنى ، مقصدها  
سهيل ، وموردها سهل ، لو سمعتها في البابية عقيل لم يثبت لها  
عقل ، ولا شك ان حبيبه عند استنشاق هوائها ، فاز ببرء مهجته  
وشفاؤها .

هذه الابيات كنت نقلتها من تاريخ السمعاني فلما لقيت مؤيد  
الدولة قرأتها عليه ، وكنت اثبتها على هذا الوجه ، ابصر مني  
العينان ، وان لم يحط السمعان ، من انباء تاريخ السمعاني ،  
الحاوي للمعاني ، ابياتا رواها ، وناظمها بماء الحكمة رواها ، وقد  
بددتها في كتابي هذا غيرة من الملتقط ، وحفظا لها من العيب المشتط  
المشترط . واما اشعاره التي اذشنيها بدمشق سنة احدى وسبعين  
من نظمه على الكبر قوله حين قلت له : هل لك معنى مبتكر في الشيب

لو كان صد معاتبا ومغاضبا  
ارضيته وتركت خدي شائبا



- ٥٤٦٣ -

لكن رأى تلك النضارة قد ذوت  
لما غدا ماء الشبيبة ناضبا

ورأى النهى بعد الغواية صاحبي  
فثنى العنان يريغ غيري صاحبا

وابيه ، ماظلم المشيب وانه  
املي ، فقلت عساه عني راغبا

انا كالدجى لما تنهى عمره  
نشرت له ايدي الصباح ذوائبا ( ٢٥ )

وهذا معنى مبتكر في الشيب لم يسبق اليه :  
وقوله

اذستني الايام ايام الصبا  
وذهلت عن طيب الزمان الذاهب

وتذكرت حالي فكل مأربي  
فيما مضى ما هن لي بمأرب

وقوله :

نهار الشيب يكشف كل ريب  
تكفل ستره ليل الشباب

ينم على المعايب والمساوي  
كما نم النصول على الخضاب

فهل لي بعد أن ضحى بفودي  
نهار الشيب ، عذر في التصابي

. وقوله :

افدي بدورا تماالوا  
على الملل ولجوا  
قد كنت احسب اني  
من هجركم لست انجو  
هذا الذي كنت اخشى  
فأين ماكنت ارجو

وقوله :

قل للذي خضب المشيب جهالة  
دع عنك ذا فلكل صبيغ ماح  
او ماترى صبيغ الليالي كلما  
جددنه يمدوه ضوء صباح

وقوله في محبوس :

حبسوك والطير الذواطق انما  
حبست لميزتها على الانداد  
وتهيبوك وانت مودع سجنهم  
وكذا السيوف تهاب في الاغمار  
ماالجبس دار مهانة لذوي العلى  
لكنه كالغيل للاساد

واذشني قوله في الشمعة :

انظر الى حسن الشمع يظهر لل  
رائين نورا وفيه النار تستعر

- ٥٤٦٥ -

كذا الكريم تراه ضاحكا جذلا  
وقلبه بدخيل الهم منقطر ( ٣٦ )

وقوله :

لارمين بذقسي كل مهلكة  
مخوفة يتحاماها ذوو الباس

حتى اصادف حذفي فهو اجمل بي  
من الخمول واستغني عن الناس

وقوله :

العجز لا ينقص رزقا ولا  
يزيده حول ولا فحص

كل له رزق سيأتيه لا  
زيادة فيه ولا نقص

قدضمن الله لنا رزقنا  
جاءت به الاثار والنص

فما لنا نطلب من غيره  
لولا قنوط النفس والحرص

وقوله في نفاق الدهر :

نافقت دهري فوجهي ضاحك جذل  
طلق ، وقلبي كئيب مكمد باك

وراحة القلب في الشكوى ، ولذتها  
لو امكنت ، لاتساوي ذلة الشاكي

- ٥٤٦٦ -

قد تمكنت كلمة « لو امكنت » فما احسنها موقعا ، واجملها موضعا ،  
ثم قارن اللة بالذلة وهما متجانسان .  
وقوله :

اذا حال حالك صبيغ الشباب  
سقى عهده الغيث من حائل

فماذا الغرور بزور الخضضا  
ب لولا التعال بالباطل

وقوله من قديم شعره :

أأن غض دهرى من جماحي اوثنى  
عناني او زلت باخمصي النعل

تظاهر قوم بالشمات جهالة  
وكم احنة في الصدر ابرزها الجهل

وهل انا الا السيف قلل حده  
قراع الاعادي ثم ارففه الصقل ( ٢٧ )

وقوله :

لاتوص عند الموت إل  
لا بالوبيعة والديون

ودع التشاغل بالخطا  
م كفاك شغلك بالمنون

فوصية الاموات بالا  
حياء من شعب الجنون

- ٥٤٦٧ -

وما احسن بيت المعري :

يوصي الفتى عند الممات كأنه  
يمر فيقضي حاجة ويعود

ورأيته وقد اهدي له دهن البلسان ، فسألت عنه ، فقال : كتبت  
الى المذهب الحكيم ابن النقاش هذه الايات على لسان :

ركبتي تخدم المذهب في العـ  
م وفي كل حكمة وبيان

وهي تشكو اليه تأثير طول الـ  
.. عمر في ضعفها ومر الزمان

فبها فاقة الى ما يقوي  
ها على مشيها من البلسان

كل هذا علالة ، ما لمن حا  
زالثمانين بالنهوض يدان

رغبة في الحياة من بعد طول الـ  
.. عمر ، والموت غاية الانسان

وقوله:

لاتحسنن على البقاء معمرا  
فاللوت اسر مايؤول اله

واذا دعوت بطول عمر لامريء  
فاعلم بانك قد دعوت عليه



وقوله

يارب عفوا عن مس  
يء خائف ما كان منه  
متيقن ان سوف يصل  
ي النار ان لم تعف عنه

لما انشدني في الشيب لذسي

ليل الشباب تولى  
والشيب صبح تالق

ما الشيب الا غبار  
من ركض عمري تعلق

وقلت:

ما اظن اني سبقت الى هذا المعنى فانشد لبعضهم بيتين هما

قالوا غبار قد علا  
ك فقلت: ذا غير الغبار

هذا الذي نقل الملو  
ك الى القبور من الديار

قلت : ولكن حققت انه من غبار ركض العمر ، وهو معنى مبتكر .  
وحضرت عند الامير مؤيد الدولة اسامة يوما اخر بدمشق سنة احدى  
وسبعين ، فانشدني قوله في القديم في استدعاء صديق الى مجلس  
المنادمة بالموصل وقد غاب عنها :

امهذب الدين استمع من عاتب .  
لولا وداك لم يفه بعتاب

- ٥٤٦٩ -

اتطيع في الدهر وهو كما ترى  
يقضي علي بفرقة الاحباب

امللتني وجعلت سكرك حجة  
ونهضت ، ام لم تستحل شرايم

قسما لئن لم تأتني متنصلا  
متبرعا بالعدر والاعتاب

لاحرمن الخندريس واغتدي  
متنمسا بالماء والمحراب

وتبوء معتمدا باثم تنسكي  
وبعابه ، اعظم به من عاب

وقوله في الشوق والمكاتبه :

لو ان كتبي بقدر الشوق واصلة  
تتابعت كدموعي او كأنفاسي

وان وجدت سبيلا او قدرت على  
خلاص عقل اسير في يد الكاس

اجريت اسود عيني فوق ابيضها  
بمائها لامدادا فوق قرطاس

وقلت لاشوق ياسحبان امل على  
يدي ، اعيزك من عي وابلاس

حتى ابوح بما اشكو اليك كما  
باح المريض بشكواه الى الاسي

وقوله في العذار :

انظر شماتة عاذلي وسروره  
بكسوف بدري واشتهار محاقه

غطى ظلام الشعر من وجناته  
صبحا تضيء الارض من اشراقه

وهو الجهول يقول هذا عارض  
هو عارض لكن على عشاقه ( ٢٨ )

واتشدني ايضا لنفسه :

ما انت اول من تناءت داره  
فعلام قلبك ليس تخبو ناره

اما السلوا والحمام ، وما سوى  
هذين قسم ثالث تختاره

هذا وقوفك للوداع وهذه  
اطلعان من تهوى وتلك بياره

فاستبق دمعك فهو اول خاذل  
بعد الفراق وان طما تياره

قدر الدموع تقل عن امد النوى  
ان لم يكن من لجة تمتاره

ليت المطايا ما خلقن فكم دم  
سفكته ، يثقل غيرها اوزاره

ما حثف انفسنا سواها انها  
لهي الحمام اتيح او انذاره

- ٥٤٧١ -

لو ان كل العيس ناقة صالح  
ماساءني اني الغداة قذاره ( ٢١ )

وتناشدنا بيتا للوزير المغربي ( ٣٠ ) في وصف خفقان القلب  
وتشبيهه بظل اللواء الذي تخترقه الريح وهو :

كأن قلبي اذا عن اذ كاركم  
ظل اللواء عليه الريح تخترق

فقال الامير مؤيد الدولة اسامة : لقد شبهت القلب الخافق وبالغت  
في تشبيهه واربيب عليه في قولي من ابيات هي :

احبابنا ، كيف اللقاء ودونكم  
عرض المهامه والفيافي الفيح

ابكيتم عيني دما لفراقكم  
فكأنما انسانها مجروح

والبيت المشار اليه :

وكان قلبي حين يخطر ذكركم  
لهب الضرام تعاورته الريح

فقلت له: صدقت ، فان الوزير المغربي قصد تشبيه خفقان القلب  
وانت شبهت القلب الواجد بالهيب ، وخفقانه باضطرابه عند  
اضطرامه لتعاور الريح ، فقد اربيت بالفصاحة على ذلك الفصيح .  
وانشدني ايضا من قوله ايام شبابه وهو معتقل وقد جرى ذكر  
الخيال :

ذكر الوفاء خيالك المنتاب  
فألم وهو بوبنا مرتاب

- ٥٤٧٢ -

نفسى فداؤك من حبيب زائر  
متعجب عندي له الاعتاب

مستشرف كالبدر خلف حجابيه  
او في الكرى ايضا عليك حجاب

ودي كعهدك والليار قريبة  
من قبل ان تتقطع الاسباب

ثبت فلا طول الزيارة ناقص  
منه ، وليس يزيده الاغباب

حظر الوفاء علي هجرك طائعا  
واذا اقتسرت فما علي عتاب ( ٣١ )

قلت له احسنت . وتذاكرنا قول ابي العلاء المعري في الخيال :

لو حط رحلي فوق النجم رافعه  
القيت ثم خيالا منك منتظري

وابلغ من هذا في بعد المسافة :

وذكرت كم بين العقيق الى الحمى  
فجزعت من امد النوى المتناول

وعذرت طيفك في الجفاء فإنه  
يسري فيصبح دوننا بمراحل

ثم اذشدني الامير اسامة قصيدة ذونية ، لنفسه ، منها :

محيا ماأرى ام بدر دجن  
وبارق مبسم ام برق مزن

- ٥٤٧٣ -

وثغر ام لآل ام اقاح  
وريق ام رحيق بنت بن  
ولحظ ام سنان ركبوه  
باسمر من نبات الخط لدن

ومنها :

فيامن منه قلبي في سعي  
وعيني منه في جنات عدن  
اذا فكرت في انفاق عمري  
ضياعا في هواك قرعت سني  
واسف كيف اخلق عهد ودي  
واسى كيف اخاف فيك ظني  
واعجب ما اقيت من الليالي  
واي فعالها بي لم يسؤني  
تقلب قلب من مثواه قلبي  
وجفوة من ضمنت عليه جفني ( ٢٢ )  
وانشدني لذسه من قصيدة :  
حتام ارغب في مودة زاهد  
واروم قرب الدار من متباعد  
والام التزم الوفاء لغادر  
جان واسهر مقلتي لراقد  
واقول هجرته مخافة كاشح  
يغري بنا ، وحذار واش حاسد

- ٥٤٧٤ -

واظنه يبدي الجفاء ضرورة  
واذا قطيعته قطيعة عامد

ياهاجرا افنى اصطباري هجره  
وابتز ثوب تماسكي وتجالدي

كيف السبيل الى وصالك بعدما  
عفيت بالهجران سبل مقاصدي

ويلومني في حمل ظلمك جاهل  
يلقى جوى قلبي بقلب بارد

يزري على صبري بصبر مسعد  
ويصد عن دمعي بطرف جامد

اتراك يعطفك العتاب وقلما  
يثنى العتاب غنان قلب شارد

هيهات وصدك عند عنقا مغرب  
ورضاك ابعد من سهى وفراق

ومن العناء طلاب ود صادق  
من ماذق وصلاح قلب فاسد ( ٣٣ )

وانشدني لنفسه في الحباب من ابيات :

وقد علاها حباب  
كاللؤلؤ المنظوم

رايت شمس نهار  
قد رصعت بالنجوم

واجتمعنا عند الملك الناصر صلاح الدين بدمشق ليلة ، وكان يلعب  
بالشطرنج ، فقال لي الامير اسامة : اما انشدك البيتين اللذين  
قلت هما في الشطرنج ؟ فقلت : هات . فانشدني لنفسه :



- ٥٤٧٥ -

انظر الى لاعب الشطرنج يجمعها  
مغالبا ، ثم بعد الجمع يرميها

كالمرء يكدح للدنيا ويجمعها  
حتى اذا مات خلاها وما فيها

وانشدني لذفسه ، وقد نظمته في غرض له في نور الدين رحمه الله :

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا  
له فكل على الخيرات منكمش

ايامه مثل شهر الصوم طاهرة  
من المعاصي ، وفيها الجوع والعطش ( ٢٤ )

وانشدني لذفسه :

أحبابنا هلا سبقتم بوصلنا  
صروف الليالي قبل ان نتفرقا

تشاغلتم بالهجر ، والوصل ممكن  
وليس الينا للحوادث مرتقى

كأنا اخننا من صروف زماننا  
امانا ومن جور الحوادث موثقا ( ٢٥ )

وقال :

قمر اذا عاينته شغفا به  
غرس الحياء بوجنتيه شقيقا

وتلهبت خجلا ، فلولا ماؤها  
مترقرا فيها لصار حريقا

وازور عني مطرقا فأضلني  
أن أهتدي نحو السلو طريقا ( ٣٦ )

وقال :

صد عني وأعرضا  
وتناسى الذي مضى

واستمر الصدود وان  
قطع الوصل وانقضى

واختفت في الهوى ندو  
ب بدت حين أبغضا

صرح الان هجره  
لي بما كان عرضا

كل عيب يبين في السر  
خط يخفى مع الرضا

واذا استعطف الملو  
ل تجنى وأعرضا

ليت من ملني وأز  
حل جسمي وأمرضا

عاد بالوصل أو قضى

في العدل إذ قضى (٣٧)

وقال :

وأقول للعين في يوم الوداع وقد  
فاضت بدمع على الخدين مستبق

تزودي اليوم من توبيعهم نظرا  
ثم افرغي في غد للدمع والارق ( ٣٨ )

وقال في المعنى :

يا عين في ساعة التوديع يشغلك ال  
بكاء عن آخر التسليم والنظر

خذي بحظك منهم قبل بينهم  
ثم اجهدي بعدهم للدمع والاسهر (٣٩)

وقال :

يامدعي الصبر عن أحبابه ، وله  
دمع إذا حن ذكراهم يكذبه  
خلفت قلبك في أرض الشام وقد  
أصبحت في مصر يامغرور تطلبه

هلا غداة الذوى استصحبته وإذا آخر  
تار المقام فهلا كنت تصحبه

أفردته بالاسى في دار غربته  
وعدت ، لاعدت ، تبكيه وتندبه

ميهات قد حالت الايام بينكما  
فعرز نفسك عما عز مطلبه

وقال :

صبري على فقد إخواني وفرقتهم  
غدر ، وأجمل بي من صبري الجزع

تقاسمتهم ذوى شطت بهم وردى  
فالحى كالميت ما في قربه طمع

وأصبحت وحشة الغبراء دونهم  
من بعد أنسى بهم والشملى مجتمع

- ٥٤٧٨ -

وعشت منفردا منهم وأقسم ما  
يكاد منفرد بالعيش ينتفع (٤٠)

وقال :

ما حيلتي في الملول يظلمني  
وليس إن جار منه لي جار  
وداده كالسحاب منتقل  
وعهده كالسراب غرار  
أمن ما كنت منه فاجأني  
بغدره ، واللول غدار  
عوني عليه مدامع سفح  
وزفرة دون حرها النار (٤١)

وقال :

أصبحت لا أشكو الخطوب وإنما  
أشكو زمانا لم يدع لي مشتكى  
أفنى أخلائي وأهل مودتي  
وأباد إخوان الصفاء وأهلها  
عاشوا براحتهم ومت لفقدهم  
فعلي يبكي ، لا عليهم ، من بكا  
وبقيت بعدهم كاني حائر  
بمفازة لم يلق فيها مسلكا (٤٢)

وقال :

ونازح في فؤادي من هواه صدى  
لم يرو غلته علي ولا نهلي

- ٥٤٧٩ -

في فيه ما في جنان الخلد من درر  
ومن رضاب ومن خمر ومن عسل  
لو كنت أعلم أن البين يفجؤني  
وريت ، قبل الذوى ، قلبي من القبل (٤٣)

وقال :

إن يحسدوا في السلم منـ .  
زلتي من العز المنيف  
فبما أهين النفس في  
يوم الوغى بين الصدفوف  
لطالما أقدمت إقـ  
دام الحتوف على الحتوف  
بعزيمة أمضى على  
حد السيوف من السيوف (٤٤)

وقال :

إلق الخطوب إذا طرقـ  
من بقلب محتسب صبور  
فسينقضي زمن الهمو  
م كما انقضى زمن السرور  
فمن المحال دوام حا  
ل في مدى العمر القصير (٤٥)

و قال :

بكاء مثلي من وشك الذوى سفه  
وأمر صبري بعد البين مشتبه

- ٥٤٨٠ -

فما يسوفني في قربهم أمل  
وليس في اليأس لي روح ولارفه

أكاتم الناس أشجاني وأحسبها  
تخفى ، فيعلنها الاسقام والوله

كانني من زهول الهم في سنة  
وناظري قرح الاجفان منتبه

أذنبت ثم أحلت الذنب من سقه  
على الذوى ولبئس العادة السقه

أقمت طوعا وساروا ثم أندبهم  
هلا صحبت نواهم حيث ما اتجهوا

أضر بي ناظر تدمى محاجره  
وخاطر مذ نأوا حيران مذشده

فما يلائم ذا بعد الذوى فرح  
ولا يروق لهذا منظر نزه

سقيا لدهر نعمنا في غضارته  
إذ في الحوادث عما ساءنا بله

وعيشنا لم يخالط صفوه كدر  
وودنا لم تشب اخلاصه الشبه

مضى وجاء زمان لانسر به  
كل البرية منه في الذي كرهوا (٤٦)

وقال في الزهد :

مذوبة الفاقد عن فقدته

بصبره ، أنفع من وجده

- ٥٤٨١ -

يبكيه في حزن عليه فهل  
يطمئع في التخليد من بعده:

ما حيلة الناس وهل من يد  
لهم بدفع الموت أو صده

وروده لا بد منه ، فما  
يذكر ما لا بد من ورده

سهامه لم يستطع ردها  
داود بالحكم من سرده

ولا سليمان ابنه ردها  
بملكه والحشد من جنده

عدل تساوى الخلق فيه فما  
يميز المالك من عبده

كل له حد إذا ما انتهى  
إليه واقاه على حده

تجمعنا الارض ، وكل أمرى  
في لحد كالطفل في مهده

أما ترى أسلافنا عرسوا  
بمنزل دان على بعده

تبؤوا الارض ولم يخبروا  
عن حر مثواهم ولا برده

لحادث أسكتهم أمسكوا  
عن ابتداء القول أو رده

لونطقوا قالوا التقى خير ما  
تزود العبد إلى لحده



- ٥٤٨٢ -

فارجع إلى الله وثق بالذي  
أتاك في الصادق من وعده  
للسابرين الاجر ، والامن من  
عذابه ، والفوز في خلدته (٤٧)

وقال :

أيها المغرور مهلا  
بلغ العمر مداه  
كم عسى من جاوز السـ  
جعين يبقی کم عساه  
أذسیت الموت أم ، أمـ  
سك الله لظاه  
تظلم الناس لمن تر  
جوه أو تخشى سطاہ  
انت كالتدور یصلی السـ  
سار فی نفع واه

وقال يرثي ولدا له :

أزور قبرك والاشجان تمنعني  
من أن أرى نهج قصدي حين أنصرف  
فما أرى غير أحجار منضدة  
قد احتوتك ، ومأوى الدرة الصدف  
فانتثي لست أدري أين منقلبي  
كأنني خائف في الليل يعتسف  
إن قصر العمر بي عن أن أرى خلفا  
له ففي الاجر عند الله لي خلف

- ٥٤٨٣ -

أقول للنفس إذ جد النزاع بها  
يا نفس ويحك أين الأهل والسلف

أليس هذا سبيل الخلق أجمعهم  
وكلهم بورود الموت معترف

كم ذا التأسف أم كم ذا الحنين وهل  
يرد من قد حواه قبره الأسف (٤٨)

وقال:

تقلب أحوال الزمان أفانني  
جميل الاسبى فيما يذوب من الخطب  
إذا حل ما لا يستطيع دفاعه  
فما أجمل الصبر الجميل بذى اللب

وقال :

صبرا لأيام تنـ  
هت ، في معاندتي وعضي  
فالدهر كالميزان ما  
يذك من رفع وخفض  
هذا مع الافلاك مر  
تفع وذا بحضيض أرض  
والى الفناء جميع من  
خفضته أو رفعتة يفضي

وقال :

أرجأت كتبتي إلى حين اللقاء فقد  
أكدى رجائي ، وزاد الشوق إرجائي

والجأتني إلى صبري موانع أيهـ  
سامي فلم يسلمي سعيي والجاتي

حتى أحاطت بي الأشواق واشتملت  
علي واستحوذت من كل أرجائي

فهل سبيل إلى قرب يميظ شجا  
صدري فقد طال تبريحي وإشجاني

وقال :

حسن التواضع في الكريم يزيده  
فضلا على الاضراب والامثال

يكسوه من حسن الثناء ملابسا  
تنبؤ عن المترفع المختال

إن السيول إلى القرار سريعة  
والسيل حرب للمكان العالي ( ٤٩ )

وقال وكتب بها الى ولده الامير مرهف من حصن كيفا جوابا عن  
كتاب أنفذه إليه مع مستميح لم يتمكن من بلوغ مآثره من بره :

أبا الفوارس ، ما لاقيت من زمني  
أشد من قبضة كفي عن الجود

رأى سماحي بمنزور تجانف لي  
عنه وجودي به فاجتاح موجودي

- ٥٤٨٥ -

صرت إن هزني جان تعود أن  
يجني نداي. رأني يابس العود

وقال في المعنى :

أبا الفوارس إن أنكرت قبض يدي  
من بعد بسطتها بالجود والكرم

الذنب للموت أرجاني. إلى زمن  
غلت. أكف الندى بؤسائه بالعدم

وقال :

حذرتني تجاربي صحبة العا  
لم حتى كرهت صحبة ظلي

ليس فيهم خل إذا ناب خطب  
قلت ما لي لدفعه غير خلي

كلهم يبذل الوداد لدى اليسر  
— ولكنهم عدى للمقل

فاعتزلهم ففي انفرادك منهم  
راحة اليأس من حذار وذل.

وقال :

سقوف الدور في خريرت ( ٥٠ ) سود  
كسبتها النار أثواب الحداد.

فلا تعجب إذا ارتفعت علينا  
فلحظ اعتناء بالسواد

بياض العين يكسوها. جمالا  
وليس النور إلا في الاسواد

- ٥٤٨٦ -

وذور الشيب مكروه ، وتهوى  
سواد الشعر أصناف العباد  
وطرس الخط ليس يفيد علما  
وكل العلم في وشي المداد

وقال يرثي ولده غتيقا :

غالبتي عليك أيدي المنايا  
ولها في الذفوس أمر مطاع  
فتخلت عنك عجزا ولوا غـ  
خني ذفاعي لطل عنك الدفاع  
وأزادت جميل صبري فزامت  
مطلبها في الخطوب لا استطاع

وقال نفيه :

كلما امتد ناظري رده الدم  
بع حسيرا عن أن يرى لك شيها  
لم يزقني من بعد فقدك مرأى  
نفيه العين مستزاد وملهى  
كنت عندي ألد من رعد العيـ  
ش وأحلى من الحياة وأشهى

وقال في مدح الملك الناصر صلاح الدين سلطان مصر والشا  
واليمن :

سمعت صروف الدهر قول الغائب  
وتجنبت حرب المليك الحارب

- ٥٤٨٧ -

وتجافت الايام عن مطلوبه  
ومراده ، أكرم به من طالب

هو من عرفن فلو عصاه نهاره  
لرماه نقع جيوشه بغياهب

وإذا سطا أضحت قلوب عداته  
تلاوى كمخراق (٥١) بكفي لاعب

من ذا يناوي الناصر الملك الذي  
في كفه بحرا ردى ومواهب

وإذا سرى خلت البسيطة لجة  
أماجها بيض وبيض قواضب

ملك القلوب محبة ومهابة  
فاقتادها طوعا بهيبة غاصب

وله في الشيب والانحناء والعصا :

حناني الدهر وأبـ

سلتني الليالي والغير

فصرت كالقوس ومن

عصاي للقوس وتر (٥٢)

اهدج في مشيبي وفي

خطوي فتور وقصر

كأنني مقيد

وانما القيدالكبر

والعمر مثل الماء في

آخره يأتي الكدر (٥٣)

وله في الخيال:

ياهاجرا راضيا وغضبانا  
ومعرضا هاجدا ويقظانا

هجرت اما لهفوة فرطت  
مني اعلم الطيف بالذي كانا (٥٤)

وله:

يهون الخطب ان الدهر ذوغير  
وأن أيامه بين الورى دول  
وأن ما ساء أو ماسرمنتقل  
عنا ، والا فانا عنه ننتقل

وله:

تناسبني الآجال كأنني  
رنية سفر بالفلاة حسير  
ولما تدع مني الثمانون منة  
كأنني إذا رمت القيام كسير  
أؤدي صلاتي قاعدا ، وسجودها  
علي إذا رمت السجود ، عسير  
وقد أنذرتني هذه الحال أنني  
كنت رحلة مني وحان مسير

وله من قصيدة يصف ضعفه في كبره من قطعة :



- ٥٤٨٩ -

فاعجب لضعف يدي من حملها قلما  
من بعد حطم القنا في لبة الاسد

وانشدني أيضا لنفسه :

لي مولى صحبته مذهب العم  
سر فلم يرع حرمتي وزمامي

ظنني ظله أصحابه الده  
سر على غير نائل واحترام

فافترقنا كأنه كان طيفا  
وكأنني رأيته في المنام(٥٥)

وللامير مجد الدين مؤيد الدولة ابن مذقذ في مدح الملك الناصر :

لهفي لشرح شبيبتي وزماني  
وتروحي لفتوة وطعان

أيام لا أعطي الصباة مقودي  
أنفا ، ولا يثني الغرام عناني

وإذا اللواحي ، في تقحمي الوغى  
لا في المدام ولا الهوى ، تلحاني

وإذا الكماة على يقين أنهم  
يلقى الردى في الحرب من يلقاني

أعتدهم ، وهم الاسود ، فرائسي  
فهم دريئة صارمي وسناني

- ٥٤٩٠ -

والأسد تلقى مثلها مني إذا  
لاقيتها بقوة يد وجنان

كم قد حطمت الرمح في لباتها  
فتركها صرعى على الأذقان

حتى إذا السبعون قصر عرشها  
خطوي ، وعاث الضعف في أركانها

أبليتني الأيام حتى كل عن  
ضرب المهند ساعدي وبناني

هذا وكم للدهر عندي نكبة  
في المال والأهلين والأوطان

نوب يروض بها إباي وقد عسا  
عودي ، فما تثنيه كف الحاني

لا أستكين ولا ألين وقد بلا  
فيما مضى صبري على الحدثان

فالآن يطمع في اهتضامي إنه  
قد رام أمرا ليس في الامكان

والناصر الملك المتوج ناصري  
وعلاه قد خطت كتاب أمانني

قد كنت أهرب صرف دهري قبله  
فأعاد صرف الدهر من أعواني

- ٥٤٩١ -

أنا جاره ويد الخطوب قصيرة  
عن أن قتال مجاور السلطان

ملك يمن على أسارى سيبه  
فيعيدهم في الاسر بالاحسان

خضعت له صيد الملوكة فمن برى  
أقلامه غرر على التيجان

ملأ القلوب محبة ومهابة  
فخلت من البغضاء والشنآن

لي منه إكرام علوت به على  
زهر النجوم ، ونائل أغناني

قرن الكرامة بالذوال مواليا  
فعجزت عن إحصاء ما أولاني

فنداه أخلف ما مضى من ثروتي  
وبقاؤه عن أسرتي أسلاني

فلاهدين إلى علاه مدائحا  
تبقى على الأحقاب والأزمان

مدحا أفوق بها زهيرا مثلما  
فاق المليك الناصر ابن سنان(٥٦)

ياناصر الاسلام حين تخاذلت  
عنه الملوكة ومظهر الايمان

- ٥٤٩٢ -

بك قد أعز الله حزب جنوده  
وأذل حزب الكفر والطغيان

لما رأيت الناس قد أغواهم الشـ  
ـيطان بالاحاد والعصيان

جردت سيفك في العدى ، لارغبة  
في الملك بل في طاعة الرحمان

فضربتهم ضرب الغرائب واضعا  
بالسيف ما رفعوا من الصلبان

وغضبت لله الذي أعطاك فصـ  
ـل الحكم غصبة تائر حران

فقتلت من صدق الوغى ، ووسمت من  
نجى الفرار بذلة وهوان

وبذلت أموال الخزائن بعدما  
ضربت وراء خواتم الخزان

في جمع كل مجاهد ومجالد  
ومبارز ومنازل الاقران

من كل من يرد الحروب بأبيض  
عضب ، ويصدر وهو أحمر قان

ويخوض نيران الوغى ، وكأنه  
ظمان خاض موارد الغدران

- ٥٤٩٣ -

قوم إذا شهدوا الوغى قال الورى :  
ماذا أتى بالاسد من خفان  
لو أنهم صدموا الجبال لزعزعوا  
أركانها بالبيض والخرصان

فهم الذخيرة للوقائع بالعدى  
ولفتح ما استعصى من البلدان

أنت الذي علمتهم .....  
.....فارس الفرسان

فابسلم مدى الايام يامن ما له  
.....ثان( ٥٧ )

واسعد بشهر الله فهو مبشر  
لعلاك بالتأييد والغفران

في دولة عمت بنائلها الورى  
فدعا لها بالخلد كل لسان

وله في الهزل:

خلع الخليع عذاره في فسقه

حتى تهتك في بغى ولواط

يأتي ويؤتى ، ليس يذكر ذا ولا  
هذا ، كذلك إبرة الخياط

وله :

يا عاتبين غتاب المستريب لنا  
لا تسمعوا في الهوى ما تدعي التهم

من لي بأن بسيط الارض دونكم  
طرس وأنبي في أرجائه قلم

أسعى إليكم على رأسي ويمنعني  
إجلالي الحب أن يسعي بي القدم

وله قصيدة مشهورة كتبها إلى دمشق بعد خروجه منها إلى مصر  
في زمان بني الصوفي (٥٨) كتبها إلى الأمير أنر ، ويشير إلى بني  
الصوفي ، أنشدنيها لنفسه وهي ذات تضمين (٥٩) :

ولوا ، ولما رجونا عدلهم ظلموا  
فليتهم حكموا فينا بما علموا

ما مر يوما بفكري ما يريبهم  
ولا سعت بي إلى ما ساءهم قدم

ولا أضعت لهم عهدا ولا اطلعت  
على ودائعهم في صدري التهم

قلبت شعري بم استوجبته هجرهم  
ملوا فصددهم عن وصلي السأم

حفظت ما ضيعوا ، أغضيت حين جذوا  
وفيت إذ غدروا ، واصلت إذ صرموا



- ٥٤٩٥ -

حرمت ما كنت أرجو من وداهم  
ما الرزق الا الذي تجري به القسم

محاسني ، منذ ملوني بأعينهم ،  
قذى ، وذكرى في أذانهم صمم

وبعد لو قيل لي ماذا تحب وما  
هواك من زينة الدنيا لقلت هم

هم مجال الكرى من مقلتي ، ومن  
قلبي محل المنى ، جاروا أو اجترموا

تبدلوا بي ولا أبغي بهم بدلا  
حسبي هم انصفوا في الحكم أو ظلموا

اراكبا تقطع البيداء همته  
والعيس تعجز عما تدرك الهمم

بلغ أميري معين الدين مألكة  
من نازح الدار لكن وده أمم

وقل له أنت خير الترك فضلك الـ  
ـحياء واللين والاقدام والكرم

أنت أعدل من يشكى إليه ولي  
شكية أنت فيها الخصم والحكم

هل في القضية يامن فضل دولته  
وعدل سيرته بين الورى علم

- ٥٤٩٦ -

يضيع واجب حقي بعدما شهدت  
به النصيحة والاخلاص والخدم

ما ظننتك تنسى حق معرفتي  
إن المعارف في أهل النهى نهم

ولا اعتقدت الذي بيني وبينك من  
ود ، وإن أجلب الأعداء ، ينصرم

لكن ثقاتك ما زالوا بعتبهم  
حتى استوت عندك الأنوار والظلم

باعوك بالبخرس يبغيون الغنى ، ولهم  
لو أنهم عدموك ، الويل والعدم

والله ما نصحو لما استشرتهم  
وكلهم ذو هوى في الرأي متهم

كم حرفوا من معان في سفارتهم  
وكم سعوا بفساد ، ضل سعيهم

أين الحمية والنفس الأبية إذ  
ساموك خطة خسف عارها يصم

هلا أنفت حياء أو محافظة  
من فعل ما أنكرته العرب والعجم

أسلمتنا ، وسيوف الهند مغمدة  
ولم يرو سنان السمهري دم

- ٥٤٩٧ -

وكننت أحسب من والاك في حرم  
لايعتريه به شيب ولاهرم

وأن جارك جار للأسموأل لا  
يخشى الأعادي ولا تغتاله الذقم

وما طمان (٦٠) بأولى من أسامة بالـ  
سوفاء لكن جرى بالكائن القلم

هبنا جنينا نذوبا لا يكفرها  
عذر ، فماذا جنى الأبطال والحرم

أقبيتهم في يد الافرنج متبعا  
رضى عدى يسخط الرحمن فعلهم

هم الأعادي ، وقاك الله شرهم  
وهم بزعمهم الأعوان والخدم

إذا نهضت إلى المجد تؤثله  
تقاعدوا ، فإذا شيدته هدموا

وإن عرتك من الايام نائبة  
فكلهم للذي يبكيك مبتسم

حتى إذا ما انجلت عنهم غيابتها  
بحد عزمك وهو الصارم الخدم

رشفت آخر عيش كله كدر  
ووردهم من نذاك السلسل الشبم

وإن اتاهم بقول عنك مختلق  
واش ، فذاك الذي يحبى ويحترم

وكل من ملت عنه قربه ومن  
والاك فهو الذي يقصى ويهتضم

بغيا وكفرا لما أوليت من منن  
ومرتع البغي لولا جهلهم وخم

جربهم مثل تجريبي لتخبرهم  
فللرجال إذا ما جربوا قيم

هل فيهم رجل يغني غناي إذا  
جلى الحول ث حد السيف والقلم

أم فيهم من له في الخطب ، ضاق به  
زرع الرجال ، يد يسطو بها وفم

لكن رأيك أدناهم وأبعدني  
فليت أنا بقدر الحب نقتسم

وما سخطت بعادي إذ رضيت به  
وما لجرح إذا أرضاكم ألم

ولست آسي على الترحال من بلد  
شهب البزاة سواء فيه والرخم

تعلقت بحبال الشمس فيه يدي .  
ثم انتشت وهي صفر ماؤها ندم

فاسلم فما عشت لي فالدهر طوع يدي  
وكل ما نالني من بؤسه نعم (٦١)

وأردت أن أورد من نثره ما يزهو فجره ، ويبهر سحره ، فوجدت  
له جواب كتاب كتبه القاضي الفاضل ابن البيساني (٦٢) إليه من مصر  
عند عوده إليها ، ونحن بدمشق سنة إحدى وسبعين ، وأثبت أولا  
الرسالة الفاضلية وهي أديبة غريبة ، صنيعة بديعة ، جامعة للدرر ،  
لامعة بالغرر ، وهي :

وصل كتاب الحضرة الشامية الاجلية ، المؤيدة الموفقة المكرمة ،  
مجد الدين ، قدوة المجاهدين ، شيخ الامراء ، أمين العلماء ، مؤيد  
الدولة ، عز الملة ، ذات الفضيلتين ، خالصة أمير المؤمنين ، لازالت  
رياض ثنائها متناوحة ، وخطرات الردى دونها متنازحة ، والبركات  
إلى جنابها متوالية ، والليالي بأنوار سعادتها متلالية ، والايام  
الجافية ، عن بقية الفضل بها متجافية ، وأحكامها الهافية ، تاركة  
للمجد فيها فئة تتحيز ، إليها المكرمات إذا لم يكن لها فية . فأنشده  
ضالة هوى كان لذدائنها مرصدا ، ورفع له نارا موسوية سمع  
عندها الخطاب وأدس الخير ووجد الهدى ، وكانت نار الغليل ، في  
فؤاده بخلاف نار الخليل ، فإنها لا تقبل ندى الاجفان بأن يكون بردا  
وسلاما ، ولا ترى بمائها إلا أضرى ما كانت ضراما ، وشهد الله  
حوالة على علمه بما هو فيه ، لا إحالة بما يخالفه الضمير وينافيه ،  
لقد كان العبد ناكس الرأس خجلا ، غضيض الطرف حياء ، مقيد  
النظر إطرأقا ، حصر القول تشورا (٦٣) منه ، فارقها على تلك  
الصفة فلا هو قضى من حقها فرائض لزمته ، والله وتعينته ، ولا  
الضرورة في مقامها بحيث تبلغه أنسها أننت ، ولا مدت هذه الطيفية  
والسحابة الصيفية بالذوى المستأنفة ما اقتربت ، ولا الايام بالبعد  
مأساءت فإنها بالقرب ما أحسنت .

- ٥٥٠٠ -

وإن امرءا يبقى على ذا فؤاده  
ويخبر عنه ، إنه لصبور

ويعود إلى ذكر الكتاب الكريم ، وسجد لحرا به وسلم ، وحسب  
سطوره ميا سم تبسم ، ووقف عليه وقوف الحب على الطلل يكلمه  
ولا يتكلم ، وهطل جفنه وقد كان جمادى ودمعه وقد كان على صدفحة  
المحرم ، وجد له صبا به لا يصحبها أمل ، وخاف أن لا يدرك الهيجاء

حمل(٦٤) ، وقال الكتاب :  
إنا محيوك فاسلم أيها الطلل(٦٥)

وعز ، والله ، عليه أن يدخل كاتبه القلوب ويخرج من القل ،  
وأشد نيابة عنها :

وإن بلادا ما احتلت بي لعاطل  
وإن زمانا ما وفى لي لخوان

وما يحسب العبد أن الملك يعجز عن واحد وهو بالورى مستقل ،  
وأن السحاب يعرض عن ذكي الروض وهو على افلا مستهل .

ولقد كتب في هذا المعنى بما يرجو أن لا يرجى ، وأنهى منه ما  
اقتضى الصواب أن ينهى ، والله المسؤول لها في عاقبة حميدة ، وبقية  
من العمر مديدة ، فإنها الآن ذوح الأدب وطوفانها العلم الذي في  
صدرها ، ولاغرو أن يبلغ عمره بعمرها ، على أن يتحقق خلودها في  
الجنة بعملها ، وفي الدنيا بذكرها ، فإن الدارين يتغايران على عقائل  
فخرها ، ولا يتغايران عن إجرائها على رفع قدرها ، وعلى أنها طالما  
أقامت الحد على الدنيا السكرى حتى بلغت في حدها من العمر  
الثمانين ، وأننت الايام بسلاح الحرب من سيفها وسلاح السلم من  
قلمها تأيب الجانين ، وما حملت العصا بعد السيف حتى ألقت



إليها السلم فوضعت الحرب أوزارها ، ولا استقلت بآية موسى إلا  
لتفجر بها أنوار الخواطر وتضرب بحارها ، وما هي إلا رمح وكفى  
بيدها لها سنانا ، وما هي إلا جواد يجنب السنين خلفها فتكون  
أناملها لها عنانا .

وعلى ذكر العصا فإن الكتاب المجموع فيها حسب أنه ثمانية  
العصا ، واضيف إلى محاسنها التي لا تحصى أو يحصى الحصى .

وكان من مدة قد شاهد بحلب كتباً بخط المولى الولد دلت على  
مضض ومرض ، ولعله الآن قد عوفي من الأمرين ، وقرت بوجهه  
العين ، وجددت عهداً بنظرة ، وقرت عليها لسانه إسناد خبره ،  
وبلت غلة الحائم ، ورأت منه هلال الصائم ، وطالعتها وجه الزمان  
المغضب منه بصفحة المباسم ، وفي مواعيد الانس منه الضامن  
الغارم ، وهو يسلم عليه تسليم الندى على ورق الورد ، ويستثمر  
الوفاء من غرس ذلك العهد ، ولكتاب الحضرة العالية من الخادم  
موقع الطوق من الحمام يتقلد فلا يخلع ، ويعجبها فلا تزال تسجع ،  
يجليه طوقاً على الأسى إلا أنه بدر الدمع مرصع ، ولا يمنعه منه شعار  
السرور أن يحزن لفرقتها ويجزع ، فإذا أنعم به فمع ثقة ويخشى أن  
يكون هذا الشرط له قاطعاً ، بل مع من اتفق فإنه كالمدك لا يدعه  
العرف الضائع أن يكون ضائعاً :

أكتبه تكتب لي أماناً ماضياً  
وابعثه تبعث لي زماناً راجعاً

إن اشتريه بمهجتي فقليلة  
فاسمح به ، فمتى عرفتكم مانعاً

وجواب مؤيد الدولة ، وقراته عليه فسمعه :



- ٥٥٠٢ -

وصل الكتاب أنا الفداء لفكرة  
نظمت ذفيس الدر فيه أسطرا  
وفضضته عن جونة فتأرصت  
ذفحاته مسكا وفاحت عنبرا  
وأعدت فيه تأملي متحيرا  
كيف استحال اللفظ فيه جوهر

الخادم يخدم المجلس العالي الأجلي الاوحد الصدر الفاضل ،  
فضله الله برفع درجاته في الجنان ، كما فضله بمعجز البلاغة  
والبيان ، وبلغه من الخيرات أمله ، وختم بالحسنى عمله ، وجمل  
ببقائه الدنيا ، وأجزل حظه من رحمته في الاخرى ، بسلام يغاويه  
نشره ويرأوحه ، ودعاء لا يحجب عن الاجابة صالحه ، وثناء يضيق  
عن حصر فضائله منادحه ، وما عسى أن يقول مطريه ومادحه ،  
والفضل نغمة من بحره الزاخر ، وقطرة من سحابه الماطر ، تفرد به  
فما له فيه من نظير وسبق من تقدمه في زمانه الأخير ، فتوق عن  
البلاغة أكماما تزينت الدنيا منها بالأعاجيب ، وأتى بآيات فصاحة  
كادت أن تتلى في المحاريب ، إذا استنطقت ازدهمت عليها العقول  
والاسماع ، ووقع على الاقرار بإعجازها الاتفاق والاجماع ،  
فسبحان من فضله بالبلاغة على الأنام ، وذلل له بديع كلام ما كأنه  
من الكلام ، تعجز عن سلوك سبيله الأفهام ، وتحار في إدراك لطف  
معانيه الأوهام ، هو سحر لكنه حلال ، ودر إلا أن بحره حلو  
سلسال .

ولا يظن ، أدام الله ببقائه جمال الزمان وأهله ، ويسر له إظهار  
مكتوم فضله ، أن الخادم يسلك سبيل النفاق في مقاله ، ولا إغارة  
شهادة في وصف كماله ، لا والله  
ماذاك مذهبه ، ولا هو مراد المجلس العالي ولا أربه ، ولكنها  
شهادة ولا يحل كتبها ، وقضية جرى بقول الحق فيها حكمها ، ولولا  
أن الخادم قد بقي فيه أثر من اقدام الشباب ، لأحجم عن إصدار

- ٥٥٠٣ -

كتاب أو رد جواب ، لكنه على ثقة من كريم مساهلة المجلس العالي وحسن تجاوزه ، ويقين أن فضله جدير بستر نقص الخادم وسد معاوزه ، وهو يضرب عن ذكر ما عنده من الشوق الى كريم رؤيته ، والوحشة بمحبوب خدمته ، ويقتصر على ما قاله زهير :

ان تمس دارهم مني ( ٦٦ ) مباحة  
فما الأحبة الا هم وأن بعدوا

فأما ما أنعم به من ذكر الخادم في مطالعته فهو كذكر موسى أخاه هرون عليه السلام في مناجياته ، ولا سواء ، موسى ذكر شقيقه ، والمجلس العالي ذكر رفيقه ، وهذه اليد البيضاء مضافة الى سالف اياديه ، مقابلة بالاعتراف بالمنة السامية ، فلقد شرفه بذكره في ذلك المقام العالي ، وان كان لا يزال على ذكر الانعام المتوالي ، تقريب مالك رقه واکرامه قد شرفاه ، وانعامه قد أغناه عن الخلق وكفاه ، ان سأل أجب سؤاله ، بما يحقق رجاءه وآماله وان أمسك عن غني فضله بفضله ، فاجأه بتبرع مواهبه وبذله ، فالخادم من تشریف مالك رقه ذو تاج وسرير ، ومن غزير انعامه في روضة وغدير ، وذلك ببركات المجلس العالي ويمين نقيبته ، وجميل رأيه في الخادم وحسن نيته ، لكن يشوب ما هو فيه من إنعام لم تبلغه أمانيه أسف قد أقض لين مهاده ، وسلك من القلب حبة سواده ، على زاهب عمره ، وقوة اسره ، واذا لم يكن أبلاهما في خدمة مالك رقه ، وبذل رأسه بين يديه ابانة عن صحة ولائه وصدقه ، والخادم يتسلى من الخدم في المهم ، بخدمته بصالح دعائه في الليل المدلهم ، والله سبحانه يتقبل من الخادم فيه صالح دعائه ، وينصره على جاحدي نعائمه ، بمحمد وآله

فأما ما أنعم به من ذكر اصغر خدمه مرهف فهو يخدم بتقبيل قدمه ، والخادم يقول ما قاله أبو الفتیان ابن حيوس عن خدمة أبوس الحسن رحمه الله لمحمود بن صالح .

- ٥٥٠٤ -

على أنه ، لافل غرب لسانه  
مدى الدهر يحتاج مني مترجما (٦٧)

وهو يقوم بالجواب عن شريف الاهتمام ، وجزيل الأنعام .  
وأما ما تطول به من ذكر كتاب « العصا » وشرفه ، حتى توهم  
أنه أحسن فيما صنّفه ، وعند وصوله من بيار بكر ، لا يلقى عصا  
تسياره الا بمصر ، يقتفي اثر عصا الكليم ، الى جنابه الكريم ، الا  
أنه آية اقراره بالربوبية لفضله وفضاله ، ساجد سجود السحرة  
لتعظيمه واجلاله ، يتألف من انعامه حسن التجاوز عن  
نقصه ، ويعوذ بكرمه من منافاة علمه وفحصه ، وتشریف الخادم  
ولو بسطر واحد عند خلو البال . والفزع من مهم  
الاشتغال ، يرفع من قدره ، ويوجده أنه بالمكان المكين من حسن  
ذكره ورأيه ، وأدام الله ايامه في ذلك أعلى ان شاء الله تعالى .

وكتب الي وقد رحلنا من دمشق في خدمة الملك الناصر الى حلب في  
شوال سنة احدى وسبعين :

عماد الدين أنت لكل داع  
دعاك لعونه خير العمد  
تقوم لنصره كرما اذا ما  
تقاعد ذو القرابة والوداد  
قضى لك بالعلی كرم السجایا  
وما أوتيت من كرم الولاد  
أبدك وحثتي لك واشتياقي  
اليك ومالقيت من البعاد  
واني في دمشق ، ومن حوته  
لبعدك ذو اغتراب وانفراد  
ومذلك ان تطلبه خبير  
بهذا الخلق ليس بمستفاد

- ٥٥٠٥ -

أنار بك الزمان فلا علت  
لقد علك أثواب الحداد

وكتب الي ايضا في ابتداء مكاتبه :

يا عمادي حين لامعتمد  
وصدى صوتي في الخطب الملم  
والذي بواني من رايه  
في أعالي ذروة الطود الأشم  
منذ فارقتك أنسي نافر  
وسنا صبحي كليل مدلهم  
فالي من اشتكى شيئاً اذا  
غاب عني مشتكي طارق غمي  
واذا كنت معافي سالما  
في اعتلاء وسعود هان همي

خادم المجلس العالي يخدم بالثناء والدعاء :

ويوميء بالتحية من بعيد  
كما يومي بأصبعه الغريق

وعنده من الشوق مع قرب العهد الى شهى رؤيته ، والوحشة  
لخدمته ، ما يعجز الأقلام شرحه ، ويحرق الطرس لفحه ، وهو  
ينحرف من مقام الاشتكاء ، الى مقام الدعاء ، ويرغب الى الله أن  
يكلاه بحفظه في سفره ومقامه ، ويجزل حظه من فضله وانعامه .

ووصلت منه مكاتبة الى الملك الناصر صلاح الدين في صفر سنة  
اثنيتين وسبعين فقال لي القاضي الفاضل : خذها وأوردها في  
الخريفة والجريفة وهي :

لازلت ياملك الاسلام في نعم  
قرينها المسعدان : النصر والظفر  
تردي الأعادي وتستصفي ممالكهم  
وعونك الماضيان : السيف والقدر  
فأنت اسكندر الدنيا ، بذورك قد  
تضاعل المظلمان : الظلم والضرر  
أعدت للدهر أيام الشباب وقد  
أظله المهرمان : الشيب والكبر  
وجاد غيث نداك المسلمين فمن  
سحابه المغنيان : الدر والبدر  
وسرت سيرة عدل في الأنام كما  
قضى به الصادقان : الشرع والصور  
ففق بنصر على الكفار انهم  
يربيهم المهلكان : الغدر والأشر  
ثناهم اذ رأوا اقبال ملكهم  
اليهم المزعجان : الخوف والحذر  
وما الفرار بمنجيهم ، وخلفهم  
من بأسه المدركان : السمر والبتر  
وسوف يعفو غدا منهم بصارمه  
وجيشه المخبران : العين والأثر  
ولو رقوا في ذرى ثهلان اسلمهم  
لسيفه العاصمان : الحصن والوزر  
قضى بتفضيله عمن تقدمه  
ما استودع المخبران : الكتب والسير  
عدل به أمن الشاء المهمل أن  
يروعه الضاريان : الذنب والذمر  
وجود كف اذا انهلت تفرق في  
تيارها الزاخران : البحر والمطر  
مكارم جمعت فيه ، توافق في  
تفضيلها الأكرمان : الخير والخير



- ٥٥٠٧ -

فأسلم وعش وابق للاسم ماجرت ال  
أفلاك والنيران : الشمس والقمر  
بنجوة من صروف الدهر يقصر عن  
منالها المفسدان : الخطب والغير

المملوك لبعده عن خدمة مولاه قد أنكر الزمان ، فما هو الذي  
كان ، وأوهب الأيام ما أبقت من يسير قوته ، واسترجعت ما أعارته  
من ضعيف نهضته ، وأذاقته طعم الاغتراب ، وأدخلت عليه الهم من  
كل باب ، فهو في زاوية المنزل ، عن كلمات الناس فيه بمعزل ، فهو  
كما قال :

أنا في أهل دمشق ، وهم  
عدد الرمل ، وحيد ذو انفراد  
ليس لي منهم أليف وشجت  
بيننا الألفة أسباب الوداد  
يحسبونني ان رأوني وافدا  
قد اتاهم من بقايا قوم عاد  
وانفرادي رشد لي ، والهوى  
أبدا يصرف عن سبل الرشاد

وقد سألتني أن أنتجزله مطلوبا عند الملك الناصر فكتب الي  
يستحثني :

عماد الدين ، مولانا جواد  
مواهبه كمنهل السحاب  
يحكم في مكارمه الأمانى  
ولو كلفنه رد الشباب  
وعذرك في قضا شغلي قضاء  
يصرفه ، فما عذر الجواب ( ٦٨ )

أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد  
( من معجم الأدباء لياقوت )





ابن نصر بن مذقذ بن محمد بن مذقذ بن نصر بن هاشم بن سرار  
ابن زياد بن زغيب ، بن مكحول بن عمر بن الحارث بن عامر بن  
مالك بن أبي مالك بن عوف بن كنانة بن بكر بن عذرة بن زيد اللات  
ابن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن  
قضاة بن مالك بن حمير بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ  
ابن يشجب بن يعرب بن قحطان ، هكذا ذكره وندسه ، وفيه  
اختلاف يسير عند ابن الكلبي ويكنى أسامة أبا المظفر ، ويلقب مؤيد  
الدولة مجد الدين ، وفي بني مذقذ جماعة أمراء شعراء ، لكن أسامة  
اشعرهم واشهرهم ، وأنا اذكر لكل واحد من أهله في ترجمته ما يليق  
ولا أفرقهم ، ذكره عماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد  
الأصفهاني في كتاب خريدة القصر ، وجريدة العصر وأثنى عليه  
كثيرا ، فقال : مازال بذو مذقذ هؤلاء مالكي شيزر ، وهي حصن  
قريب من حماة معتصمين بحصانتها ممتنعين بمناعتها حتى جاءت  
الزلزلة في سنة نيف وخمسين ، فخربت حصنها ، وأذهب  
حسنها ، وتملكها نور الدين محمود بن زنكي عليهم ، وأعاد بناءها  
فدشعروا شعبا ، وتفرقوا أيدي سبأ .

قال ابن عساكر : ذكر لي أسامة أنه ولد سنة ثمان وثمانين  
وأربعمئة وقدم دمشق سنة اثنتين وثلاثين وخمسمئة ، ومات  
أسامة في ثالث عشرين رمضان سنة أربع وثمانين وخمسمئة ودفن  
بجبل قاسيون .

قال العماد وأسامة كاسمه في قوة نثره ونظمه يلوح من كلامه  
أمارة الامارة ، ويؤسس بيت قريضة عمارة العبارة ، حلوا المجالسة  
حالي المساجلة ، ندي الندي بماء الفكاهة ، عالي النجم في سماء  
النباهة ، معتدل التصارييف مطبوع التصانيف ، أسكنه عشق  
الغوطة ، دمشق المغبوطة ، ثم نبت به كما تنبوا والدار  
بالكريم ، فانتقل الى مصر ، فبقي بها مؤمرا مشارا اليه  
بالتعظيم ، الى أيام ابن رزيق ، فعاد الى الشام ، وسكن دمشق  
مخصوصا بالاكرام حتى أخذت شيزر من أهله ، ورشقهم صرف

الزمان بنبله ، ورماد الحدثان الى حصن كيفا ، مقيما بها في ولده ، مؤثرا لها على بلده ، حتى أعاد الله دمشق الى سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة سبعين وخمسماية ولم يزل مشغوفا بذكره ، مشتهرا باشاعة نظمه ونثره ، والأمير العضد مرهف ولد الأمير مؤيد الدولة جليسه ، ونديمه وأنيسه .

قال مؤلف هذا الكتاب : وقد رأيت أنا العضد هذا بمصر عند كوني بها في سنتي احدى عشرة وستماية ، واثنتي عشرة وستماية واذشني شيئا من شعره وشعر والده .

قال : فاستدعاه الى دمشق - يعني مؤيد الدولة - وهو شيخ قد جاوز الثمانين .

قال : واذشني العامري من شعره بأصبهان وكنت أتمنى لقياه ، وأشيم على البعد حياه ، حتى لقيته في صفر سنة احدى وسبعين بدمشق ، وسألته عن مولده ، فقال ولدت في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة واذشني لنفسه البيتين اللذين سارا له في قلع ضرسه .

وصاحب لأمل الدهر صحبته

يشقى لذفعي سعي مجتهد

لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا

لناظري افترقنا فرقة الأبد

وأنشني لنفسه من قديم شعره :

قالوا نهته الأربعون عن الصبي

وأخو المشيب يحور ثمة يهتدي

كم حار في ليل الشباب فدلّه

صبح المشيب على الطريق الأقصد

واذا عدت سني ثم نقصنا

زمن الهموم فتلك ساعة مولدي

- ٥٥١٢ -

قلت أنا هذا كلام ذفيس ، ومعنى لطيف ، ولكنه أخذ معنى البيت  
الثاني من قول ابن الرومي :

كفي بسراج الشيب في الرأس هانيا  
الى من اضلته المنايا لياليا  
فكان كرامي الليل يرمي فلا يرى  
فلما اضاء الشيب شخصي رمانيا

وأخذ معنى البيت الأخير من قول ابي فراس بن حمدان في  
مزدوجته

ما العمر ما طالت به الدهور  
العمر ماتم به السرور  
أيام عزي ونفاذ أمري  
هي التي احسبها من عمري  
لو شئت مما قد قللن جدا  
عددت ايام السرور عدا

ولكن قول اسامة أبلغ في المعنى وهذا ظاهر ، قال وأنشدني من  
قديم شعره

لم يبق لي في هواكم أرب  
سلاوتكم والقلوب تنقلب  
أوضحتم لي سبل السلو وقد  
كانت لي الطرق عنه تدشعب  
الام دعمي من هجركم سرب  
قان وقلبي من غدركم يجب  
ان كان هذا لأن تعبينني ال  
حب فقد اعتقتني الريب

- ٥٥١٣ -

احببتكم فوق ماتوهمه ال  
ناس وخنتم اضعاف ما حسبوا

وقوله ايضا :

يادهر مالك لا يصد  
ك عن مساءتي العتاب  
امرضت من أهوى وياً  
بي ان امرضه الحجاب  
لو كنت تنصف كانت الا  
مراض لي وله الثواب  
أخذ هذا المعنى من قول الشاعر  
ياليت علته لي غير أن له  
أجر المريض وأني غير مأجور

قال العماد : وهذا الذي أوردته من شعره نقلته من تاريخ  
السمعاني ، فلما وردت الى دمشق واجتمعت به قلت له هل لك معنى  
مبتكر في الشيب فأندشني :

لو كان صد معاتباً ومغاضباً  
أرضيته وتركت خدي شائباً  
لكن رأى تلك النضارة قد ذوت  
لما غدا ماء الشبيبة ناضباً  
ورأى النهى بعد الغواية صاحبي  
فثنى العنان يريغ غيري صاحبا  
وأبيه ما ظلم المشيب فإنه  
أملى فقلت عساه عني راغبا  
أنا كالدجى لما تنهى عمره  
نشرت له ايدي الصباح ذوائبا

- ٥٥١٤ -

ومن شعره ايضا في محبوس :

حبسوك والطير الذواطق انما  
حبست لميزتها على الأنداد  
وتهيبوك وأنت مودع سجنهم  
وكذا السيوف تهاب في الأغمار  
مالحبس دار مهانة لذوي العلى  
لكنه كالغيل للآساد

ومنه قوله في الشمعة :

انظر الى حسن صبر الشمع يظهر للـ  
رائين نورا وفيه النار تستعر  
كذا الكريم تراه ضاحكا جذلا  
وقلبه بدخيل الغم مذفطر

وقوله ايضا :

نافقت دهري فوجهي ضاحك جذل  
طلق وقلبي كئيب مكمد باك  
وراحة القلب في الشكوى ولذتها  
لو أمكنت لاتساوي ذلة الشاكي

وقوله ايضا :

لئن غض دهر من جماحي أو ثنى  
عناني أو زلت باخمصي النعل  
تظاهر قوم بالشمات جهالة  
وكم احنه في الصدر ابرزها الجهل

- ٥٥١٥ -

وهل أنا الا السيف فلل حده  
قراع الأعادي ثم أرهفه الصقل

وقوله ايضا :

لاتحسنن على البقاء معمرا  
فالوت ايسر مايؤول اليه  
واذا دعوت بطول عمر لا مريء  
فاعلم بأنك قد دعوت عليه

قال العمار : وتناشدنا بيتا للوزير المغربي في وصف خفقان  
القلب وتشبيهه بظل اللواء الذي تخترقه الرياح وهو :

كأن قلبي اذا عن انكاركم  
ظل اللواء عليه الريح تخترق

فقال لي الأمير مؤيد الدولة أسامة : فقد شـبـهت القلب  
الخافق ، وبـالـغـت في تشبيهه ، وأرييت عليه في قولي من أبيات  
وهي :

احبابنا كيف اللقاء ودونكم  
عن المهامه والفيافي الفيح  
ابكيتم عيني دما لفراقكم  
فكأنما انسانها مجروح  
وكأن قلبي حين يخطر ذكركم  
لهب الضرام تعاورته الريح

فقلت له : صدقت فان المغربي قصد تشبيهه خفقان القلب وانت  
شبـهت القلب الواجب باللهيب ، وخفقانه باضطرابه عند اضطرامه



- ٥٥١٦ -

لتعاور الريح فقد أربيت عليه ، وأنشئتني أيضا من قوله أيام  
شبابه ، وهو معتقل ، في الخيال :

ذكر الوفاء خيالك المنتاب  
فألم وهو بوينا مرتاب  
نفسى فداؤك من حبيب زائر  
متعجب عندي له الاعتاب  
ودي كعهذك والديار قريبة  
من قبل ان تتقطع الأسباب  
ثبت فلا طول الزيارة ناقص  
منه وليس يزيده الاغباب  
حظر الوفاء علي هجرك طائعا  
واذا اقتسرت فما علي عتاب

قال : وتذاكرنا قول ابي العلاء المعري :

لو حط رحلي فوق النجم رافعه  
الفيت ثم خيالا مذك منتظري

وأبلغ من هذا قول المعري في بعد المسافة :

وذكرت كم بين العقيق الى الحمى  
فجزعت من أمد المدى المتطاوول  
وعذرت طيفك في الجفاء فانه  
يسري فيصبح دوننا بمراحل

وأندشني :

وأعجب ما لقيت من الليالي  
واي فعالها بي لم يسؤني  
تقلب قلب من مثواه قلبي  
وجفوة من ضمنت عليه جفني

قال : واجتمعنا عند الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب  
بدمشق ، وكان يلعب بالشطرنج ، فقال الأمير أسامة الا أندشك  
البيتين اللذين قلتهما في الشطرنج ؟ فقلت : هات ، فأندشني  
لنفسه :

انظر الى لاعب الشطرنج يجمعها  
مغالبا ثم بعد الجمع يرميها  
كالمرء يكبح الدنيا ويجمعها  
حتى اذا مات خلاها وما فيها

وأندشني لنفسه في غرض له في نور الدين محمود رحمه الله :

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا  
له فكل على الخيرات منكمش  
ايامه مثل شهر الصوم خالية  
من المعاصي وفيها الجوع والعطش

قال وأندشني لنفسه :

أحبابنا هلا سبقتم بوصلنا  
صروف الليالي قبل ان نتفرقا

- ٥٥١٨ -

تشاغلتم بالهجر والوصل ممكن  
وليس الينا للحوادث مرتقا  
كأنا أخذنا من صروف زماننا  
أمانا ومن جور الحوادث موثقا

وقال ايضا :

قمر اذا عاينته شغفا به  
غرس الحياء بوجنتيه شقيقا  
وتلهبت خجلا فلولاً ماؤها  
مترقرقا فيه لصار حريقا  
وأزور عني مطرقا فاضلني  
ان اهتدي نحو السلو طريقا  
فليلحني من شاء فيه فصبوتي  
بهواه سكر لست منه مفيقا

وكتب اليه ابنه ابو الفوارس مرهف الى حصن كيفا فكتب اسامة  
جوابه :

أبا الفوارس مالاقيت من زمني  
أشد من قبضة كفي عن الجود  
رأى سماحي بمنزور تجاذف لي  
عنه وجودي به فاجتاح موجودي  
فصرت ان هزني جان تعود ان  
يجني نداي رأني يابس العود

وقال ايضا :

سقوف الدور في خربت سود  
كستها النار اثواب الحداد

- ٥٥١٩ -

فلا تعجب اذا ارتفعت علينا  
فللحظ اعتناء بالسواد  
بياض العين يكسوها جمالا  
وليس النور الا في السواد  
وذور الشيب مكروه وتهوى  
سواد الشعر اصناف العباد  
وطرس الخط ليس يفيد علما  
وكل العلم في وشي المداد

وله في مدح صلاح الدين :

هو من عرفت فلو عصاه نهاره  
لرماه نقع جيوشه بالغياهب

وله في الهزل :

خلع الخليع عذاره في فسقه  
حتى تهتك في بغا ولواط  
يأتي ويؤتى ليس يذكر ذا ولا  
هذا كذاك ابرة الخياط

قال العماد : وكان قد سألتني أن انتجـز له مـطلوبـا عند المـالك  
الناصر صلاح الدين ، فكتب الي يستحدثني :

عماد الدين مولانا جواد  
مواهبه كمنهل السحاب  
يحكم في مكارمه الاماني  
ولو كلفته رد الشباب

- ٥٥٢٠ -

وعذرك في قضا شغلي قضاء  
يصرفه فما عذر الجواب

ولؤيد الدولة بن مذقذ تصانيف حسان منها كتاب العصا ، كتاب  
الشيب والشباب ألفه لأبيه ، كتاب نيل يتيمة الدهر للثعالبي ، كتاب  
تاريخ أيامه ، كتاب في أخبار أهله رأيته .

ومن شعر الأمير الأجل مؤيد الدولة مجد الدين اسامة بن مذقذ :

صديق لنا كالبحر قد أهلك الورى  
ولم ينههم أخطاره عن ركوبه  
موداته تحكيه صدفوا وخبرها  
كمشربه من حوبه ونذوبه

ومنه ايضا :

كنت بين الرجاء واليأس منه  
اقطع الدهر بين سلم وحرب  
التقي عتبه بأكرم اعتا  
ب ويلتقى ذلي بتيه وعجب  
فبدا للملوك أنني لورم  
ت سلوا لما سلا عنه قلبي  
فتجني لي الذنوب ولا والـ  
له مالي ننب سوى فرط حبي

ومنه ايضا :

انظر بعينك هل ترى  
أحدا يدوم على الموده

- ٥٥٢١ -

لترى اخلاء الصفا  
ء عدى اذا تأتيك شدة

ومنه ايضا :

تذكرني الاخوان حتى ثقلتهم  
وحذرنى منهم نذير التجارب  
كأنى اذا اودعت سري عندهم  
رفعت بنار فوق أعلى المراقب

قال العماد : وكتبها الى دمشق بعد خروجه الى مصر في ايام  
بني الصوفي يشير اليهم :

ولوا فلما رجونا عدلهم ظلموا  
فليتهم حكموا فينا بما علموا  
مامر يوما بفكري مايري بهم  
ولاسعت بي الى ماساءهم قدم  
ولااضعت لهم عهدا ولاأطلعت  
على ودائعهم في صدري التهم  
محاسني منذ ملوني باعينهم  
قذى وذكرى في آذانهم صمم  
وبعد لو قيل لي ماذا تحب وما  
تختار من زينة الدنيا لقلت هم  
هم مجال الكرى من مقلتي ومن  
قلبي محل المنى جاروا أو اجترموا  
تبدلوا بي ولاأبغى بهم بدلا  
حسبي بهم انصفوا في الحكم أم ظلموا  
ياراكبا تقطع البيداء همته  
والعيس تعجز عما تدرك الهمم

- ٥٥٢٢ -

بلغ اميري معين الدين مألكة  
من نازح الدار لكن وده أمم  
هل في القضية يامن فضل دولته  
وعدل سيرته بين الورى علم  
يضيع واجب حقي بعد ماشهدت  
به النصيحة واذا شيدته هدموا  
وأن عرتك من الأيام نائبة  
فكلهم للذي يبكيك يبتسم  
وكل ماملت عنه قربه ومن  
والاك فهو الذي يقصى ويهتضم  
اين الحمية والذفس الأبية اذ  
ساموك خطة خسف عارها يصم  
هلا اذفت حياء أو محافظة  
من فعل ماذكرته العرب والعجم  
اسلمتنا وسيوف الهند مغمدة  
ولم يرو سنان السميري دم  
وكننت احسب من والاك في حرم  
لايعترية به شيب ولاهرم  
وأن جارك جار للسموعل لا  
يخشى الأعادي ولا تغتاله الذقم  
هبننا جنينا نذوبا لا يكفرها  
عذر فماذا جنى الاطفال والحرم

ومنها :

لكن رأيك أناهم وأبعثني  
فليت أنا بقدر الحب نقتسم  
ولا سخطت بعادي اذ رضيت به  
ولالجرح اذا ارضاكم ألم



- ٥٥٢٣ -

تعلقت بحبال الشمس منك يدي  
ثم انثنت وهي صفر ملؤها ندم  
فراقك أساني وأسفني  
ففي الجوانح نار منه تضطرم  
فاسلم فما عشت لي فالدهر طوع يدي  
وكلما نالني من يؤسه ندم

ومن شعره أيضا :

الخطوب اذا طرق  
من بقلب محتسب صبور  
فسينقضي زمن الهمو  
م كما انقضى زمن السرور  
فمن المحال دوام حا  
ل في مدى العمر القصير

وتوفي بعد الثمانين وخمسمائة .  
ومنهم أخوه أبو الحسن علي بن مرشد بن علي بن مقلد بن مذقذ  
سيد بني مذقذ ، ورد بغداد حاجا بعد العشرين وخمسمائة ، وقد  
ذكره السمعاني في تاريخه وأنشده له :

ودعت صبري ودمعي يوم فرقكم  
وما علمت بأن الدمع يدخر  
وضل قلبي من صدري فعدت بلا  
قلب فياويح ماأتي وماذر  
ولو علمت نخرت الصبر مبتغيا  
اطفاء نار بقلبي منك تستعر

قال الأمير علي بن مرشد سمعت دربابا يصيح بدرب حبيب  
( ٦٩ ) فقلت فيه :

- ٥٥٢٤ -

يا طائرا لعبت أيدي الفراق به  
مثلي فاصبح ذا هم وذا حزن  
داني الأسي نازح الأوطان مغتربا  
عن الأحبة مصفودا عن الوطن  
بلا نديم ولا جار يسر به  
ولا حميم ولا دار ولا سكن  
لكن نطقت فزال الهم عنك ولي  
هم يقلقل أحشائي ويخرسني  
وكل من باح بالشكوى استراح ومن  
أخفى الجوى بث عنه شاهد البدن  
ارقت عيني بذوح است أفهمه  
مع ما بقلبي من وجد يؤرقني  
وما بكيت ولي دمع غواربه  
إذا ارتمت منه لم تذوق بالسفن

قال : وكتب الى صديق له :

ما فهمت مع متحدث متشاغلا  
الا رأيته خاطرا في خاطري  
ولو استطعت لزرت ارضك ماشيا  
بسواد قلبي او باسود ناظري

وكتب الى أخيه مؤيد الدولة أسامة وهو بالموصل :

الا هل لمحزون تذكر الله  
فحن وأبدى وجهه من يعينه  
وعيشا مضى بالرغم اذ نحن جيرة  
ترف على روض الوصال غصونه  
لدى منزل كان السرور قرينكم  
به فتولى إذ تولى قرينه

فلو أعشبت من فيض دمعي محوله  
لما رضيت عن دمع عيني جفونه

قال وأنشدني له ابن أخيه الأمير مرهف بن أسامة

لا شكرن الذوى والعيس اذ قصدت  
بي معنن الجود والاحسان والكرم  
فسرت في وطني اذ سرت من وطني  
فمن رأى صحة جاءت من السقم  
وقد ندمت على عمر مضى اسفا  
اذ لم أكن لك جاراً فيه في القدم  
فاسلم ولازلت محروس العلا ابدا  
ملاحت الشهب في داج من الظلم

وقال أخوه أسامة بن مرشد : ونقلت من خط أخي عز الدولة أبي  
الحسن علي بن مرشد من شعره ، وكان استشهد رحمه الله على  
غزة في شهر رمضان سنة خمس وأربعين وخمسمائة في حرب الفرنج  
لعنهم الله ، قبل ان يكمل من شعره وكان تقنطر به فرسه على باب  
غزة ، واستعلى الفرنج على أصحابه فاندكشوا عنه ، فقتل وبقي في  
المعركة وأنشد له أشعاراً منها قوله في مرض طال به :

ظننت وظن الألمي مصدق  
بأن سقام المرء سجن حمامه  
فان لم يكن موت صريح فانه  
عذاب تمل النفس طول مقامه  
وكم يلبث المسجون في قبضة الأذى  
يجرب فيه الموت غرب حسامه

وأنشد له قوله عند رحيله عن بغداد الى الحجاز :

- ٥٥٢٦ -

ترحلت عن بغداد لاكارها لها  
وفي القلب منها لوعة وحريق  
فسقيا لأيام تقضيت بربعها  
إذا العيش غض والزمان انيق  
باخوان صدق ليس فيهم مشاقق  
وكلهم حان علي شفيق

وأنشد له أيضا

ولما أعارتني الذوى منك نظرة  
أحب إلى قلبي من البارد العذب  
تعقبها البين الماشت فليتنا  
بقينا على تأميلنا لذة القرب

وأنشد له :

ليت شعري علام صدك عنا  
بعد ماكنت تدعي الاشواقا  
لاتجار الزمان سبقا إلى الهج  
ر فما زال صرفه سباقا  
أنت غر بغدره فلهذا  
قد تعجلت بالصدود الافراقا

وأنشد له :

بني أبي أن عدا دهر ففرقنا  
فهم نفسي بكم ماعشت مجتمعا  
هل تعلمون الذي في النفس من أسف  
عليكم وحنين ليس ينقطع

- ٥٥٢٧ -

نزحتم أدمعي حتى لقد محلت  
جفون عيني ومات اليأس والطمع  
وان دهر رمي عن جيده دررا  
امثالكم لزمان عاطل ضرع

ومنهم جده سيد الملك أبو الحسن علي بن مقلد بن منذر ، وكان  
من شرطه أن يقدم على بنيه ، قال : هو جد الجماعة ، موفور  
الطاعة ، أحكم أساس مجده وشاها ، وفضل أمراء نيار بكر  
والشام وسادها ، وقال أبو يعلى حمزة بن أسد : في سنة أربع  
وسبعين وأربعمائة في رجب ملك الأمير أبو الحسن علي بن المقلد بن  
منذر حصن شيزر ، من الأسقف الذي كان فيه بمال بـذله  
له ، وأرغبه فيه إلى أن حصل في يده ، وشرع في عمارته وتحصينه  
والمصافعة عنه إلى أن تمكنت حاله فيه ، وقويت نفسه في حمايته  
والمداقة ( ٧٠ ) عنه .

والأمير سيد الملك ، هو ممدوح فحول الشعراء ، والذي امتدحه  
ابن حيوس بقصيدته التي أولها - وكتبها إليه من طرابلس وهو  
بحلب :

أما الفراق فقد عاصيته فأبى  
وطالت الحرب إلا أنه غلبا  
أراني البين لما حم عن قدر  
وداعنا كل جد بعده لعبا ( ٧١ )

قال : وسألت ابن ابنه الأمير أسامة بن مرشد بن علي عن وفاة  
جده فقال : مات سنة خمس وسبعين وأربعمائة .

قال : وأشدني مجد العرب العامري بأصبهان قال : أزدني  
الأمير أبو سلامة مرشد لأبيه الأمير أبي الحسن علي بن مقلد في  
غلام له ضربه ، وقد أبدع في هذا المعنى وأغرب :

- ٥٥٢٨ -

اسطو عليه وقلبي لو تمكن من  
كفي غلها غيظا الى عنقي  
واستعبر اذا عاينته حزقا  
وأين ذل الهوى من عزة الحق

قال وانشدني له ايضا :

ماذا النجيع بوجنتيك وليس من  
شرط الأنوف على الخدود رعاف  
الحاظنا جرحتك حين تعرضت  
لك أم أديمك جوهر شفاف

وقرات له في مجموع :

اذا ذكرت أياديك التي سلفت  
مع سوء فعلى وزلاتي ومجترمي  
أكاد أقتل نفسي ثم يمنعني  
علمي بأنك مجبول على الكرم

وله ايضا :

ومن كان يرضى بذل في ولايته  
من خوف عزل فاني است بالراضي  
قالوا فتوكب أحيانا فقلت لهم  
تحت الصليب (٧٢) ولا في موضع القاضي

وله ايضا :

ولاتعجلوا بالهجر ان الذوى  
تحمل عنك منة الهجر

- ٥٥٢٩ -

وظاهرونا بوفاة فقد  
اغناكم البين عن الهجر

وله ايضا :

القي المنية في درعين قد نسجا  
من المنية لامن نسج داوود

ان الذي صور الاشياء صورني  
نارا من البأس في بحر من الجود

وهذان البيتان يرويان لعبد المؤمن ملك المغرب ، واسيد الملك من  
مجموع اسامة :

كيف اسلو وحب من هو قاتلي  
أبنى الي من الوريد الاقرب  
اني لأعمل فكرتي في سلاوة  
عنه فيظهر في ذل المننب

وله ايضا :

بكرت تنظر شيبني  
وثيابي يوم عيد  
ثم قالت لي بهزء  
ياخليعا في جيد  
لاتغالظني فمات  
صلح الا للصدود

قال العماد انشدت هذه الأبيات والقطع جميعها الأمير مؤيد  
الدولة اسامة في سنة اثنتين وسبعين : فأذكر أن يكون لجدّه سوى  
البيتين اللذين أولهما :



- ٥٥٣٠ -

لا تعجلوا بالهجر ان الذوى  
وانشدني لجدّه وكان كتب بها الى القاضي جلال الملك أبي الحسن  
علي بن عمار صاحب طرابلس :

أحبابنا لو لقيتم في مقامكم  
من الصبابة مالاقيت في ظعني  
لاصبح البحر من أنفاسكم يبسا  
كالبر من أدمعي يندشق بالسفن

ومنهم الأمير أبو سلامة مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن مذقد  
والد أسامة ، وولد المقدم ذكره ، له البيت القديم والفضل العميم من  
فروع الأملاك الفارعي الافلاك .

قال السمعاني في تاريخه : رأيت مصدفا بخطه كتبه بماء الذهب  
على الطاق الصدوري ، مارأيت ولاأظن ان الرائيين رأوا مثله ، فقد  
جمع الى فضائله حسن خطه ، وتقديره بحسن تدبيره على  
رهبته ، واسن وعمر ، وله أولاد نجباء أمجاد كرماء أجواد. وكان  
مولده سنة ستين وأربعمائة ، ومات بشيزر سنة إحدى وثلاثين  
وخمسمائة فيما حكاه ولده أسامة للسمعاني ، وذكره مجد العرب  
أبو فراس العامري ، وقال : كنت مقيما مدة بشيزر في  
كذفهم ، حاضيا برفدهم ، ساميا بشرفهم ، وأثنى على خلفهم  
وترحم على سلفهم ، فقال : وكان الأمير حينئذ بقلعة شيزر أخوه  
أبو العساكر سلطان ، وهو ممدوح الذي حباني الأكرام  
والاحسان ، والأمير مرشد يقربني ويكرمني ، وقال في أبيات  
منها :

لئن نسي امرؤ عهدا فاني  
لعهد أبي الفوارس غير ناس  
وما عاش الأمير أبو فراس  
فما مات الأمير أبو فراس

- ٥٥٣١ -

كنية العامري أبو فراس ، وأبو فراس الآخر هو أبو فراس بن حمدان ، وكان العامري يتبجح بالبيتين .

ونذكر السمعاني في تاريخه : أنشدني ولده أبو عبد الله محمد بن مرشد بن علي بن مقلد بن منذر من حفظه ، عند القبة قال : وأنا قائم أكتب ، وهو وغلماؤه على الخيل ، قال : أنشدني والذي مرشد ابن علي لنفسه بشيزر :

ظلوم أبت في الظلم الا التمايا  
وفي الصد والهجران الا تناهيا  
شكت هجرنا والذنب في ذاك ننبها  
فيا عجباً من ظالم جاء شاكيا  
وطاوعت الواشين في وطالما  
عصيت عذولا في هواها وواشيا  
ومال بها تيه الجمال الى العلا  
وهيهات أن أمسي لها الدهر قاليا  
ولاناسي ما استودعت من عهدها  
وان هي ابدت جفوة وتناسيا

ومنها في العتاب :

وقلت أخي يرعى بني وأسرتي  
ويحفظ فيهم عهدتي وزماميا  
ويجزئهم مالم اكلفه فعله  
لنفسى فقد أعدته من تراثيا  
فأصبحت صفر الكف مما رجوته  
أرى اليأس قد غطى سبيل رجائيا  
فما لك لما إن حنى الدهر سعدتي  
وثلّم مني صارما كان ماضيا

- ٥٥٣٢ -

تذكرت حتى صار برك قسوة  
وقربك منهم جفوة وتناسيا  
على أنني ما حلت عما عهدته  
ولا غيرت هذي الشؤون ودائيا  
فلا زعزعتك الحادثات فأنني  
أراك يميني والآنم شماليا

قال وقرأت في بعض الكتب كلمة نظمها الخطيب أبو الفضل يحيى  
ابن سلامة الحصكفي ، في جواب رسالة وصلته من الأمير علي بن  
مرشد من شيزر وهي :

حوى مرشد وابنائه غر المناقب  
وحلوا من العلياء أعلى المراتب  
ذوائب مجد ما علمت بأنهم  
من العلم أيضا في الذرى والذوائب  
اتت من علي روضة جاد روضها  
سحائب فضل لا كجود السحائب  
بأبيات شعر أفحمت كل شاعر  
وآيات نثر أعجبت كل خاطب  
وغر معان أعجزت كل عالم  
واسطر خط أرعشت كل كاتب  
ربيع بورد وافد لمطالع  
وربع لوفد وارد بمطالب  
وخود رمت بالسحر عن قوس حاجب  
لها في العلى فخر على قوس حاجب (٧٣)  
فلو قطبت لما قطبت لها  
وجوه لا غطت على حكم شارب .

ومنهم حميد بن مالك بن مغيث بن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ  
ابن نصر بن هاشم ، أبو الغنائم ، الملقب بمكيين الدولة ، ولد

- ٥٥٣٣ -

بشيزر في تاسع جمادى الآخرة سنة احدى وتسعين  
وأربعمئة ، ونشأ بها ، وانتقل الى دمشق ، فسكنها مدة  
طويلة ، واكتب في العسكر ، وكان يحفظ القرآن ، وله شعر  
جيد ، وفيه شجاعة وعفاف ، ومات في نصف شعبان سنة أربع  
ستين وخمسمئة بحلب. ومن شعره:

ما بعد جلق المرتاد منزلة  
ولا كسكانها في الأرض سكان  
فكلها لمجال الطرف منتزه  
وكلهم لصروف الدهر أقران  
وهم وأن بعدوا عني بنسبتهم  
إذا بلوتهم بالود أخوان

وقال في أخيه يحيى :

بالشام لي حدث وجدت بفقده  
وجدا يكاد القلب منه يذوب  
فيه من البأس المهيب صواعق  
تخشى ومن ماء السماء قلب  
فارقت حتى حسن صبري بعده  
وهجرت حتى الذوم وهو حبيب

قال الحافظ علي بن الحسن بن هبة الله ، وأنشدنا لنفسه :

يذكرني بحبي الرماح شوارعا  
وبيض المواضي جربت للوقائع  
وأقسم مارؤياه في العين بهجة  
بأحسن من أوصافه في المسامع

قال وأنشد لنفسه :

- ٥٥٣٤ -

وسلافة ازرى احمرار شعاعها  
بالورد والوجنات والياقوت  
جاءت مع الساقى تنير بكأسها  
فكأنها اللاهوت فى الناسوت ( ٧٤ )  
قال وأنشدنا لنفسه فى صديق له يعاقبه

أذنو بؤدى وحظى منك يبعدنى  
هذا لعمرى عين الغبن والغبن  
وان توخيتنى يوما بلائمة  
ورجعت باللوم ابقاء على الزمن  
وحسن ظنى موقوف عليك فهل  
غيرت بالظن بى عن رأيك الحسن

ومنهم الأمير شرف الدين أبو الفضل اسماعيل بن أبي العساكر  
سلطان بن علي بن منقذ ، كان أبوه عم مؤيد الدولة أسامة بن مرشد  
أمير شيزر ، وكان شابا فاضلا ، سكن لما أخذت منهم شيزر  
بدمشق، ومات بها سنة احدى وستين وخمسمائة .

قال العماد وسمعت من شعره :

ومهفوف كتب الجمال بخده  
سطرا يحير ناظر المتأمل  
بالغت فى استخراجه فوجدته  
لأراي الا رأي أهل الموصل

وذكره ابن عمه الأمير مرهف بن أسامة ، وأثنى عليه وأنشدني  
له اشعارا منها بيتان فى النحل والزنبور وهما :

- ٥٥٣٥ -

ومغربين ترنما في مجالس  
فنفاهما لاذاهما الاقوام  
هذا يجود بما يجود بعكسه  
هذا فيحمد ذا فذاك يذام

يعني العسل من النحل وعكسه اللسع من الزنبور ، وأنشديني  
ايضا له :

سقيت وكأس الهوى علا على نهل  
فلا تزني كأس اللوم والعذل  
نأى الحبيب فبي من نأيه حرق  
لو لامست جبلا هدت قوى الجبل

وارو تطلبت سلوانا لزدت هوى  
وقد يزيد رسوبا نهضة الوحل  
عفت رسومي فجع نحوي لتندبي  
فالصب غب زيال الحب كالطلال  
صحوت من قهوة تنفي الهموم بها  
لكنني ثمل من طرفه الثمل  
أصبر النفس عنه وهي قاذلة  
مالي بعافية الاشواق من قبل  
كم ميتة وحياة ذقت طعمهما  
مذ ذقت طعم النوى لليأس والامل  
والنفس إن خاطرت في غمر وألت  
منها وأن خاطرت في الوجد لم تتل  
لها دروع تقيها من سهام يد  
فهل دروع تقيها اسهم المقل  
فانظر اليه تر الاقمار في قمر  
وانظر الي تر العشاق في رجل



- ٥٥٣٦ -

بأي امر سانجو من هوى رشأ  
في جفنه سحر هاروت وسيف علي  
إذا رمى طرفه بالحظ قال له  
قلبي أعد لارماك الله بالشلال  
أمن بني الروم ذا الرامي الذي فتكت  
سهامه بالورى أم من بني ثعل  
إن خفت روعة هجران الحبيب فقد  
أمنت في حبه من روعة العذل

ومنهم الأمير أبو الفتح يحيى بن سلطان بن منذر لقبه فخر الدولة  
ذكره الأمير مرهف بن أسامة وذكر أنه قتل على بعلبك في سنة  
أربعين وخمسمائة • وأنشدني من شعره ما كتبه إلى أبيه عز الدين  
يطلب منه رمحا :

يا خير قوم لم يزل مجدهم  
في صفحات الدهر مسطورا  
عبدك يبغى اسمرا ذكره  
ما زال بين الناس مذكورا  
مسدد والجور من شأنه  
أن نال وترا صار موتورا  
فان تفضلت به عاد عن  
صدور أعدائك مكسورا

ومنهم الأمير عز الدولة أبو المرهف نصر بن علي بن مقلد بن نصر  
ابن منذر عم مؤيد الدولة أسامة

قال العماد ، كنا حضرنا عند الملك الناصر ليلة بدمشق سنة  
أحدى وسبعين والأمير مؤيد الدولة حاضر ، وتناشدنا ملح  
القصائد ، وأنشدنا ضالة الفوائد ، وجرى حديث اقتضى انشاد  
الأمير أسامة بيتين لبعضهم في المشط الأسود ، والمشط



- ٥٥٣٧ -

الابيض ، وهما لأبي الحسن احمد بن محمد بن الدويذة  
المغربي ، كان في زمن بني صالح .

كنت استعمل السواد ، من الامـ  
شاط والشعر في سواد الدياجي  
أتلقى مثلاً بمثل فلما  
صار عاجا سرحته بالعاج

ثم قال الأمير ، وقد أخذ هذا المعنى عمي نصر وعكسه وقال :

كنت استعمل البياض من الامـ  
شاط عجباً بلمتي وشبابي  
فاتخذت السواد في حالة الشيب  
ب سلوا عن الصبي بالتصابي

وقال لي الأمير اسامة: كان عمي نصر قد أخرج حجة عن  
والدته ، فراها في النوم كأنها تزدسه فأتيته والأبيات على حفظه  
وهي :

جزيت من ولد بر بصالحة  
فقد كسبت ثواباً آخر الزمن  
وقد حججت الى البيت الحرام وقد  
أتيته زائراً يا خير محتضن  
فلا تذك يد الأيام ما طلعت  
شمس وما صدحت ورقاء في فنن

وكان نصر هذا صاحب قلعة شيزر بعد والده سييد الملك ، وكان  
كريماً ذا أريحية ، حدثني الأمير مرهف بن اسامة بحضرة  
والده ، قال كتب القاضي أبو مسلم وادع المعري الى الأمير نصر في  
ذكبة نالته :

- ٥٥٣٨ -

يا نصر يا بن الاكرمين ومن  
شفع التلاد بطارف الفخر  
هذا كتاب من اخي ثقة  
يشكو اليك نوائب الدهر  
فامنن بما عودت من حسن  
هذا أوان الذفع والضر

فكتب اليه نصر انه لم يحضرني سوى ما عندك مودع ، وهو ستة  
آلاف دينار ، فاصرفها في بعض مصالحك واعذر ، وذكر ان نصرا  
كان برا بوالده سيد الماك ، فقال فيه سيد الماك :

جزى الله نصرا خيرا ما جزيت به  
رجال قضوا قرض العلاء ونفلوا  
هو الولد البر العطوف وان رمى  
به حادث فهو الحمام المعجل  
يفديك با نصر رجال محلهم  
من المجد والاحسان إن يقولوا  
سأثنى بما اوليت بالموقف الذي  
تقر به الأقدام او تتزلزل  
والقاك يوم الحشر ابيض ناصعا  
وأشكر عند الله ما كنت تفعل

وتوفي نصر بن علي في جمادى الآخرة سنة احدى وتسعين  
واربعمائة بشيزر .

ومنهم الأمير عضد الدين أبو الفوارس مرهف بن اسامة بن  
مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن مذقذ .

وقال مؤلف الكتاب: فارقت في جمادى الأولى سنة اثنتي عشرة  
وستمئة بالقاهرة يحيى ، ولقيته بها ، وهو شيخ ظريف واسع

- ٥٥٣٩ -

الخلق شائع الكرم ، جماعة للكتب ، وحضرت داره ، واشترى مني كتباً ، وحدثني أن عنده من الكتب ما لا يعلم مقداره ، إلا أنه ذكر لي أنه باع منها أربعة آلاف مجلد في نكبة لحقته فلم يؤثر فيها ، وسأله عن مولده فقال ولدت سنة عشرين وخمسمائة ، فيكون عمره الى وقتنا هذا اثنتين وتسعين سنة ، وكان قد اقعد لا يقدر على الحركة ، إلا أنه صحيح العقل والذهن والفتنة والبصر ، يقرأ الخط الدقيق كقراءة الشبان ، إلا ان سمعه فيه ثقل ، وكان ذلك يمنعني من مكائثرته ومذاكرته ، وكان السلطان صلاح الدين رحمه الله قد اقطعه ضياعاً بمصر ، فهو يصرفها في مصالحه ، وأجراه الملك العادل أخو صلاح الدين على ذلك ، وكان الملك الكامل بن العادل يحترمه ويعرف له حقه ، وأنشدني شيئاً من شعره وشعر اهله لم يحضرني منه في هذا الوقت ما أورده ، وذكر له العماد في كتاب الخريدة ما ذكر انه سمعه منه وهو :

سمحت بروحي في رضاك ولم يكن  
ليعجزني لولا رضاك المذاهب  
وهانت لجراك العظام كلها  
علي وقد جلت لدي الذوائب  
فكان ثوابي عن ولائي لحبتكم  
رمتني به منك الظنون الكواذب  
فمهلاً فلي في الأرض عن منزل العلى  
مسار اذا اخرجتني ومسارب  
وان كنت ترجو طاعتي باهانتني  
وقسري فان الرأي عنك لعازب

وأنشدني أيضاً لنفسه قال : وهو حاضر عند والده ، وذكر انه مما كتبه الى والده :

رحلتكم وقلبي بالولاء مشرق  
لديكم وجسمي للعناء مغرب

- ٥٥٤٠ -

فهذا سعيد بالذنو منعم  
وهذا شقي بالبعاد معذب  
وما ادعي شوقا فسحب مدامعي  
يترجم عن شوقي اليكم ويعرب  
ووالله ما اخترت التأخر عنكم  
ولكن قضاء الله ما منه مهرب

ومات الأمير عضد الدين بن مرهف في ثاني صفر سنة ثلاث  
عشرة وستمائة .

أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن  
منقذ

( من بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم )



ابن محمد بن منقذ بن نصر بن هاشم بن سرار بن زياد بن زغيب  
ابن مكحول بن عمرة بن الحارث بن عمرو بن مالك بن ابي مالك بن  
عوف بن كنانة بن بكر بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن  
كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمرة بن الحاف بن قضاة بن  
مالك بن حمير بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب  
ابن يعرب بن قحطان بن عابر بن ارفخشذ بن سام بن نوح ، ابو  
المظفر بن ابي سلامة بن ابي الحسن بن ابي المتوحيح الكناني  
الشيزري ، الملقب مؤيد الدولة .

ولد بشيزر ونشأ بها واخرجه عمه ابو العساكر سلطان بن علي  
خوفا منه على نفسه ، لما رأى من شجاعته واقدامه ، وقدم حلب  
مرارا متعددة ، وكان من الأمراء الفضلاء الأدباء الشعراء  
الشجعان الفرسان ، له مصنفات عديدة ومجاميع مفيدة ، ومواقف  
مشهورة ، ووقائع مذكورة ، وفضائل مسطورة .

روى عن ابي الحسن علي بن سالم بن الأغبر بن علي السندبي  
وابنه كامل بن علي ، ومؤدبه ابي عبد الله محمد بن يوسف بن  
المنيرة الكفرطابي ، ووالده ابي سلامة مرشد بن علي بن  
منقذ ، وأبي عبد الله محمد بن شافع بن الحسين بن  
العرار ، سمعهم بشيزر ، وأبي بكر محمد بن مخلد بن عبد الله بن  
مخلد التميمي الاشبيلي ، سمعه بمصر ، والخطيب يحيى بن سلامة  
الصفدي ( ٧٥ ) سمعه بميافارقين ، وأبي هاشم محمد بن ابي  
محمد بن محمد بن ظفر ، سمعه بحماه ، وأبي القاسم عبد الملك بن  
زيد بن ياسين الدولعي خطيب دمشق ، سمعه بدمشق ، وآخرين  
غيرهم ، وروى بالاجازة عن ابي الحسن علي بن أحمد بن قيس  
الغساني .

روى عنه الحافظان ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله  
الدمشقي ، وابو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور  
السمعاني ، وعماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصبهاني



- ٥٥٤٤ -

الكاتب ، وعبد السلام بن يوسف الدمشقي ، وأبو البركات محمد ابن محمد بن علي قاضي اسيوط ، والشريف أبو القاسم عبد الله بن علي بن زهرة الحلبي ، وولده العضد مرهف بن أسامة بن منقذ ، وجماعة غيرهم .

روى لنا عنه أبو اسحق إبراهيم بن شاكر بن عبد الله بن سليمان ، وأبو الحسن محمد بن أبي جعفر بن علي القرطبي ، وأبو محمد عبد الله بن عمر بن علي الحموي ، والحكيم أبو القاسم هبة الله بن صدقة الكولي ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الكافي بن علي الربيعي ، وأبو علي الحسن بن محمد بن أسماعيل القيلاوي وأبو المعالي محمد بن الحسين بن أسعد بن العجمي .

أخبرنا القاضي بهاء الدين أبو اسحق إبراهيم بن أبي اليسر شاكر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سليمان التذوخي - قراءة عليه بداره بدمشق - ، والشيخ تاج الدين أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي القرطبي الدمشقي بها ، وشمس الدين أبو عبد الله محمد بن الكافي بن علي الربيعي ، قاضي حمص بحلب وبدمشق ، وأبو القاسم هبة الله بن صدقة بن عبد الله الكولي بالقصر الغربي بالقاهرة ، قالوا: أخبرنا مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ الكناني قال: أخبرنا الشيخ أبو الحسن علي بن سالم بن الأغرب بن علي السنبسي بثر شيزر سنة تسع وتسعين وأربعمائة قال: أخبرنا الشيخ أبو صالح محمد بن المهذب بن علي قال: حدثنا جدي أبو الحسين علي بن المهذب بن أبي حامد قال: حدثنا أبو حامد بن همام قال: حدثنا محمد بن سليم القبرسي قال: حدثنا إبراهيم بن هدية عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا من بكى على ننب في الدنيا حتي تسيل الدموع على حر وجهه حرم الله يباح وجهه على جهنم» (٧٦)

أخبرنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل بن عبد المطلب الهاشمي

قال: ( ٧٧ ) أخبرنا أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني الامام قال : أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منذ الشيزري ، أبو المظفر المعروف بمؤيد الدولة من أهل شيزر ، قلعة بالشام من الثغر ، أمير فاضل غزير الفضل ، وافر العقل ، حسن التدبير مليح التصانيف ، عارف باللغة والأدب ، مجود في صنعة الشعر ، من بيت الامارة والفروسية واللغة ، سكن دمشق ، لقيته بالفوار ( ٧٨ ) بظاهر دمشق بحوران واجتمعت معه بدمشق عدة نوب ، وكان مليح المجالسة حسن المحاورة ، كثير المحفوظ ، كان يقول لي : كنت أحفظ أكثر من عشرين ألف بيت من شعر الجاهلية ، علقت عنه من شعره شيئاً ، وقال لي : دخلت بغداد وقت محاربة ديبس بن صدقة مع المسترشد بالله ، قال : ونزلت الجانب الغربي عند باب البصرة وما عبرت الى شرقيها ، سألته - أعني أبا المظفر - عن مولده ، فقال : ولدت في سنة سبع أو ثمان وثمانين وأربعمائة - أنا الشاك .

أخبرنا زين الأمان أبو البركات الحسن بن محمد بن الحسن فيما أنن لنا في روايته عنه قال : أخبرنا عمي الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن ، قال : أسامة بن مرشد بن علي بن المقلد ، بن نصر بن منذ بن محمد بن منذ بن نصر بن هاشم أبو المظفر الكتاني الملقب بمؤيد الدولة ، له يد بيضاء في الأدب والكتابة والشعر ، ذكر لي انه ولد سنة ثمان وأربعمائة ، وقدم دمشق سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، وخدم بها السلطان ، وقرب منه وكان شجاعاً فارساً . ثم خرج الى مصر ، فأقام بها مدة ، ثم رجع الى الشام ، وسكن حماة ، واجتمعت به بدمشق ، وأدشني قصائد من شعره سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ( ٧٩ ) .

قرأت بخط مؤيد الدولة أسامة في كتابه الموسوم «بأزهار الانهار» (٨٠) وقد أجاز روايته مع غيره لجماعة أجازوا لنا ذلك عنه منهم : الشيخ أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان قال : ومما يخصني من

غرائب اللبن انني حين ولدت التمس لي من يرضعني ، فقد ر الله سبحانه الرزق من امرأة كبيرة قد نيفت عن الستين سنة ، ليس لها ولد صغير ، فدرت على وارضعيني الى حين فطمت وعاشت بعد فطامي نحو من خمس عشرة سنة وكانت رحمها الله متى عصرت ثديها طار منه اللبن كأنها مرضعة .

أنبأنا الحسن بن محمد قال : أخبرنا أبو القاسم بن أبي محمد قال : قال لي أبو عبد الله محمد بن الحسن بن الملاحي : الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ شاعر أهل الدهر ، مالك عنان النظم والنثر ، متصرف في معانيه ، لاحق بطبقة أبيه ، ليس يستقصي وصفه بمعان ، ولا يعبر عن شرحها بإسنان ، فقصائده الطوال ، لا يفرق بينها وبين شعر ابن الوليد ( ٨١ ) ولا يذكر على مذهبها نسبتهما إلى لبيد ، وهي على طرف لسانه بحسن بيانه غير محتفل في طولها ، ولا يتعثر لفظه العالي في شيء من قصاؤها والمقطعات فأحلى من الشهد ، وألذ من النوم بعد طول السهد في كل معنى غريب وشرح عجيب .

قلت: ولم يذكر الحافظ أبو القاسم في تاريخه احدا ممن تأخرت وفاته عن وفاته غير اربعة او خمسة ، أبو المظفر أسامة بن منقذ هذا أحدهم ، وذلك لجلالته عنده ، وعلو منزلته .

وأنبأنا محمد بن اسماعيل بن عبد الجبار بن أبي الحجاج المصري قال : أخبرنا عماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد حامد الكاتب الأصبهاني في كتاب « خريدة القصر وجريدة العصر » تأليفه ، قال : أسامة كإسمه في قوة نثره ونظمه ، يلوح من كلامه اماره الامارة ، ويؤسس بيت قريضة عمارة العبارة ، نشر له علم العلم ، ورقى سلم السلم ، ولزم طريق السلامة وتكذب سبل الملامة والملامة ، واشتغل بنفسه ، ومجاورة ابناء جنسه ، حلوا المجالسة حالي المساجلة ، ندي الندي بماء الفكاهة ، عالي النجم في سماء النباهة ، معتدل التصارييف ، مطبوع التصانيف ، أسكنه عشق

الغوطة دمشق المغبوبة ، ثم نبت به كما يذبوا الدار بالكريم ، فانتقل الى مصر ، ( ٨٢ ) فبقي بها مؤمرا ، مشارا اليه بالتعظيم الى ايام ابن رزيك ، فعاد الى الشام ، وسكن دمشق مخصصا بالاحترام حتى أخذت شيزر من اهله ( ٨٣ ) ورشقهم صرف الزمان بذبله ، ورماه الحدثان الى حصن كيفا مقيما بها في ولده ، مؤثرا بلدها على بلده حتى اعاد الله سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب في سنة سبعين ، ولم يزل مشغوبا بذكره ، مستهترا بأشعة نظمه ونثره ، والأمير العضد مرهف ولد الأمير مؤيد الدولة جليسه وأنيسه ، فاستدعاه الى دمشق ، وهو شيخ قد جاوز الثمانين.

وكننت قد طالعت منيل السمعاني ، فوجدته قد وصفه وقرظه ، وأندشني العامري له بأصبهان من شعره ما حفظه ، وكننت ابدا أشتي لقياه ، وأشيم على البعد حياه ، وسألته عن مولده فقال : يوم الأحد سابع عشري جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ( ٨٤ ) .

وقرأت في كتاب «أنموذج الأعيان» لعبد السلام بن يوسف الدمشقي بخطه قال : الأمير الأوحى ، العالم ، مجد الدين ، مؤيد الدولة ، أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الشيزري الكناني ، مبرز في علم الأدب ، عريق في الذسب ، من بيت التقدم والامارة والسيادة في البداوة والحضارة ، مع عقل كامل وافر ، ورأي وجه العواقب عنده سافر ، لم يزل موصوفا بالاقدام والشجاعة ، معروفا باللسن والبراعة ، لقيته بدمشق في شهر جمادى الآخرة سنة احدى وسبعين وخمسائة ، واخبرني ان مولده في ثالث عشري جمادى الآخرة ، يوم الأحد ، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وأندشني من نظمه ما يضاهي نظام اللآلي ، ويكون قلادة في جيد الأيام والليالي .

قلت: كان في الأصل بخط عبد السلام بن يوسف سابع عشري



جمادى ، ف ضرب بخطه على سابع وكتب فوقه ثالث ، والذي يظهر لي ان المضروب عليه هو الصحيح .

وقرأت في كتاب الاعتبار تأليف أسامة بن مرشد : ولدت أنا وهو - يعني ابن عمه سنان الدولة شبيب بن حامد بن حميد - في يوم واحد ، يوم الأحد سابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

أخبرني ابو المعالي محمد بن الحسين بن أسعد بن عبد الرحمن الحلبي قال : سمعت أسامة بن مرشد بن منقذ ، مؤيد الدولة ، يحكي لنا بدمشق ان سبب اخراج عمه اياه من شيزر انه قتل اسدا ضاريا بناحية شيزر فأخرجه عمه - يعني ابا العساكر سلطان بن علي - منها خوفا على نفسه منه . وقال لنا: جاء الخبر الى عمي بأن في بعض نواحي شيزر اسدا ضاريا قد أذى الناس في طريقهم ، فتقدم عمي الى عسكره كلهم ان يركبوا بكرة الغد من ذلك اليوم الذي تقدم اليهم للتأهب للقاء الأسد وقتله .

وقال: فاستدعيت غلامي وأمرته بأسراج دابتي وأخذ رمحي معه ، وركبت أنا والغلام في اليوم الذي أمر عمي بالتأهب له ، وخرجت وغلامي معي حتى اتيت الموضع الذي فيه الأسد ، فخرج الأسد وحمل على فقاتلته وصرعته ، ونزلت اليه فقطعت رأسه ، وناولته الغلام ، وأمرته بتسميطه معه على الدابة التي تحته ، ودخلت شيزر وبت بها ، فلما أصبح الصباح ركب عمي وعسكره ، وخرجوا يطلبون الأسد ، فوجدوا جثته مطروحة بلا رأس ، فعجبوا من ذلك ، وأنا ساكت لا أتكلم .

قال : وتحدث غلامي مع الغلمان بذلك فشاع بينهم حتى علم عمي به ، فرجع ودخل شيزر ، وصعدنا على العادة الى قلعتها وبتنا تلك الليلة ، فقام عمي نصف الليل ، وطلبني ، وأمر من أسرح له مركوبا ، وأمرني بالركوب وقال : أريد ان تجيء معي الى موضع

- ٥٥٤٩ -

سماه خارج شيزر في شغل ، فركبت معه حتى ابعثني عن  
شيزر ، ثم قال لي : يا بن اخي شيزر لك فهبها لي ، فوالله ما بقيت  
أقدر على مساكنتك ، ولم يأخذني في هذه الليلة نوم من شدة فكري  
فيك ، إذا كان فعلك مع الأسد هذا الفعل فايش يكون معي لو سولت  
لك نفسك ان تفتك بي ؟ ومنذ رجعت الى القلعة ليس لي فكر الا  
فيك ، ولم يأخذني نوم في ليلتي هذه ولا قرار الى أن بادرت الى  
اخراجك فما اقدر ان اساكذك وانت على هذه الصفة!

قال : فامتثلت أمره ، وودعني ، وعاد الى شيزر ، قال: فخرجت  
منها وأقمت في مكان سماه لنا شذعني اسمه .

قلت: والى هذا اشار في قوله ، وقد أسن وأرعثت يده ، وكتب خطا  
مضطرب الحروف .

فأعجب لضعف يد عن حملها قلما

من بعد حطم القنا في لبه الأسد ( ٨٦ )

أذنينا افتخار الدين أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل بن عبد  
المطلب الهاشمي قال : أذنينا تاج الاسلام أبو سعد عبد الكريم بن  
محمد بن منصور السمعاني ، ح .

ثم أذنني تاج الدين أبو الحسن محمد بن أبي جعفر أحمد بن  
علي الفذكي بدمشق قال : أذنينا أسامة بن مرشد بن مذقذ  
الشيزري لنفسه :

يا نهر مالك لا يصب

سداك عن مساعتي العتاب

أمرضت من أهوى ويا

بي أن أمرضه الحجاب

- ٥٥٥٠ -

لو كنت تنصف كانت الا  
مراض لي وله الثواب ( ٨٧ )

قال العماد أبو عبد الله محمد بن محمد بن حساند الكاتب  
الاصفهانى - وقد أورد لأسامة هذه الأبيات في خريدة القصر : قد  
قيل في مرض الحبيب كل معنى بكر مخترع بديه ، ومبتدع فكر ، الا  
أن هذه الأبيات لطيفة المعنى ، ظريفة المغزى ، مقصدها  
سهيل ، وموردها سهل ، ولو سمعتها في البادية عقيل لم يثبت لها  
عقل . ولا شك أن حبيبته عند استنشاق هوائها فاز بـرو مهجته  
وشفاؤها ( ٨٨ )

أذنسنا أبو الحسن محمد بن أبى جعفر بن علي القـرطبي  
قال : أذنسني أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن مذقذ  
الكناني لنفسه :

إذا الصب اشفى من جواه على شفا  
أتى الياس مما يرتجي بشفاؤه  
وقد زانني ياسي سقاما فكيف  
بالشفاء لصب داؤه في دوائه ( ٨٩ )

أذنسني أبو علي حسن بن محمد بن اسماعيل النيلي  
قال : أذنسنا مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن مذقذ لنفسه في كتاب  
العصا :

حناني الدهر وأب  
لـتني الليالي والغير  
فصرت كالقوس ومن  
عصاي القوس وتر  
أهدج في مشيبي وفي  
خطوي فتور وقصر ( ٢٠٩ - ظ )



كأنني مقيد  
وانما القيد الكبير  
والعمر مثل الكأس في  
لخره يبقى الكدر ( ٩٠ )

أشدنا محمد بن أحمد بن علي بدمشق قال : أشدني أبو المظفر  
أسامة بن مرشد بن مذقذ لنفسه في خرس قلعه .

وصاحب صاحبي في الصبا  
حتى تربيت رداء المشيب  
لم يبد لي ستين حولاً ولا  
بلاوت من أخلاقه ما يريب  
أفسده الدهر ومن ذا الذي  
يحافظ العهد بظهر المغيب  
ثم افترقنا لم أصب مثله  
عمري ومثلي أبداً لا يصيب  
فأعجب لها من فرقة باعدت  
بين اليقين وكل حبيب ( ٩١ )

أشدني الحكيم أبو القاسم هبة الله بن صدقة بن عبد الله  
الكولي بالقاهرة قال : أشدنا مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن مذقذ  
لأنفسه بدمشق في سنة أربع وثمانين وخمسمائة في خرس قلعه :

وصاحب صاحبه  
ستين حولاً مارأيته  
حتى إذا عاينته  
عاينت منه ما يئته  
والهجر فيه - راحة  
من كل مصدوب قلته

- ٥٥٥٢ -

أؤشؤنا الحكيم أبو القاسم المذكور قال : أؤشؤنا مؤؤيد الدولة  
اسامة بن مؤنؤذ لنفسه في مؤله .

وصاحب لآؤمل الدهر صحبته  
يشقى لذفعي ويسعى سعي مجتهد  
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدأ  
لناظري افترقنا فرقة الأبد

قال العماد الكاتب - وأوردهما في الخريدة ، لو أنصفت فهمك  
أن كنت منتقدا وترقيت عن مرؤب وهمك مجتهدا ، وغصت بنظر  
فؤك في بحار معانيه لغنمت من فرائد درره وآليه . ولعلمت اذا لم  
يؤن هؤذا فلغو ، وأنه اذا لم يبلغ هذا الحد من الجؤد فهؤر  
ولهو ، ومن الذي أؤى في وصف السن المقلوع بمؤل هؤذا الفن  
المطبوع ، فهل سبقه أؤد الى معناه ، وهل في هؤذا النمؤط  
ساواه ( ٩٢ )

أؤشؤنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل الحلبى قال : أؤشؤنا  
أبو سعد عبد الكريم بن مؤمد السمعاني ، ح .

وأؤشؤنا مؤمد بن أؤمد بن علي الفؤكي قالا : أؤشؤنا أبو المظفر  
اسامة بن علي الكؤاني لنفسه :

لم يبق لي في هواؤم أرب  
سلاؤؤكم والقلوب تؤقلب  
أوضؤتم لي سؤبل الاسلاؤ وقد  
كانت لي الطروق عنه تؤشعب  
إلام دمعى من هؤرؤم سرب  
قان وقلبي من غدرؤم يجب

- ٥٥٥٣ -

ان كان هذا لأن تعبدني السحر  
بأ قد اعتقني الريب

أحببتكم فوق مآذوهمه الـ  
خلق وخنتم أضعاف ما حسبوا ( ٩٣ )

أورد أبو عبد الله محمد بن محمد الكاتب هذه الأبيات في الخريدة  
وقال : تأمل معاني هذه الأبيات بعين التأني والذبات تعرف أن  
قائلها من ذوي الحمية ، والنفوس الأبية ، والهمم العلية وكل من  
يملكه الهوى ويسترقه قلما يطلقه السلا ويعتقه ، إلا أن يكون كبيراً  
غلب عقله هـواه ، واستهجن في الشهوات المذمومة نيل  
منه ، وقول « قد اعتقني الريب » في غاية الجودة ، ونهاية  
الكمال ، أعذب من الزلال ، وأطيب من الحلال ، وألعب بقلوب  
المتيمين من نسيم الشمال ( ٩٤ )

أنشدنا شيخ الشيوخ تاج الدين أبو محمد عبد الله بن عمر بن  
علي بن حموية قال : أنشدنا مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد  
ابن علي بن مقلد بن منقذ لنفسه :

أيا تاج فرسان الهياج ومن بهم  
ثبتت أواخي مالك كل متوج  
قوم اذا لبسوا الحديد عجت من  
بحر يدافع في لظى متوهج ( ٩٥ )

أنشدنا أبو الحسن بن أبي جعفر قال : أنشدنا أبو المظفر أسامة  
ابن مرشد لنفسه وقالها على لسان الشيخ أبي صالح بن المهذب  
رحمه الله ، وكانت فيه حدة مع فضل وعلم وتقى ، وكان نزل بشير  
فريق من العرب معهم جارية اسمها شوق مستحسنة ، وكتب  
الأبيات ورمى بها نسخاً بشير ، فوقع منها بيد الشيخ أبي صالح  
رحمه الله ، فقامت قيامته ، ولم يدر أحد من عمل الأبيات ، فقال له

- ٥٥٥٤ -

الشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بابن المنيرة  
رحمه الله ، وهو مؤدبه هذه الأبيات التي قد رميت ما يحسن يقولها  
الا أنا ، أو القاضي أبو مرشد بن سليمان ، أو أنت ، وأنا وأبو  
مرشد ما قلناها وما قالها غيرك ، وهي .

قولا لريم في حلة العرب  
اليك اشكو ، ما يصنع اسمك بي  
بم استجازت عيناك سفك دمي  
وأخذ قلبي في جملة السلب  
لولاك والدهر كله عجب  
ماخفرت في ذمة العرب  
جارك أولى برعي ذمته  
إن أنت راعيت حرمة الصقب  
هذا هوى كنت في بلهنية  
عنه فيا الرجال للعجب  
ايسترق الكريم ذا النسب ال  
واضح عبد مستعجم النسب  
ويحمل الثار من به خور  
عن احتمال الحجال والقلب  
نشدتك الله في احتمال دمي  
فمعشري ما يفوتهم طلبي  
ما فات قومي آل المذهب من  
قبلي ثار في سالف الحقب  
فلا تريقني دما لذي ادب  
يسطو بأقلامه على القضب ( ٩٦ )

قلت : هذا أبو صالح ابن المذهب ليس هو أبو صالح الكبير محمد  
ابن المذهب بن علي بن المذهب فإن اسامة لم يدرك زمنه لأنه توفي سنة  
خمس وستين وأربعمائة وهذا غيره ، ذكرنا ذلك لئلا يلتبس به .

- ٥٥٥٥ -

أَنشَدَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَمْوِيَةَ قَالَ : أَنشَدَنَا  
إِسَامَةَ بْنَ مَذْقَدٍ لِنَفْسِهِ :

إِسَاكُنْ قَلْبِي وَالْمَهَامَةَ بَيْنَنَا  
وَأَنْسَا عَيْنِي وَالْمَزَارَ بَعِيدَ  
تَمَثَّلْكَ الْإِشْوَاقُ لِي كُلَّ لَيْلَةٍ  
فَهِيَ جَلِيدٌ وَالْفِرَاقُ مَلِيدٌ ( ٩٧ )

أَنشَدَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي جَعْفَرٍ بْنُ عَلِيٍّ قَالَ : أَنشَدَنَا إِسَامَةَ  
لِنَفْسِهِ :

أَبِي لِي إِنْ أَبَالِي بِالرِّزَايَا  
فَوَادٍ لَا يَرُوعُ بِالْخَطُوبِ  
وَنَفْسٍ لَا تَسْفُ لِمُسْتَفَادٍ  
وَلَا تَأْسُ عَلَى وَفَرٍ سَلِيلٍ  
وَعَلَمِي أَنْ مَا هَوَى وَأَخْشَى  
يَزُولُ بِغَيْرِ شَكٍّ عَنْ قَرِيبٍ ( ٩٨ )

أَنشَدَنَا الْإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلَوَانَ  
الْأَسَدِيَّ قَالَ :

يَا رَبُّ إِنْ أَسَاءَتِي قَدْ سَوَدَتْ  
بِيَدِ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ صَحَائِفِي  
وَالْخَوْفُ مِنْكَ وَمِنْ عِقَابِكَ مَقْلَقِي  
فَارْحَمْ مَخَافَةَ نَيِّ الْفَوَادِ الرَّاجِفِ  
مَنْ خَافَ شَيْئًا فَرَّ مِنْهُ هَارِبًا  
وَالْيَكُ مِنْكَ مَفَرٌ عَبْدٌ خَائِفٌ ( ٩٩ )

وَأَنشَدَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ الْقُرْطُبِيُّ قَالَ : أَنشَدَنَا إِسَامَةَ  
ابْنَ مَرْشَدٍ لِنَفْسِهِ . وَكَتَبَهَا عَلَى كِتَابٍ نَسَخَهُ :



- ٥٥٥٦ -

يارب حسن رجائي فيك حسن لي  
تضيع وقتي في لغو وفي لعب  
وأنت قلت لمن اضحى على ذقة  
بحسن عفوك إني عند ظنك بي ( ١٠٠ )

قال لي أبو علي حسن بن محمد بن اسماعيل القيلوي : توفي  
اسامة بن مرشد بن منقذ بدمشق في سنة أربع وثمانين  
 وخمسمائة ، قال : وفيها دخلت دمشق .

أنبأنا الحافظ أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري  
قال - في ذكر من توفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة - في كتاب  
التكملة لوفيات النقلة : وفي ليلة الثالث والعشرين من شهر  
رمضان توفي الأمير الأجل مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن أبي  
سلامة مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلابي  
الشيرزي بدمشق ، ودفن من الغد بجبل قاسيون ، وكان مولده  
بشيزر في يوم الأحد السابع والعشرين من جمادي الآخرة سنة ثمان  
وثمانين وأربعمائة وقيل في شهر رمضان منها ، حدث عن أبي  
الحسن علي بن سالم السنبسي وغيره ، سمع منه الحافظ أبو سعد  
عبد الكريم بن محمد السمعاني ، وأبو القاسم علي بن الحسن  
الدمشقي وأبو المواهب الحسن بن هبة الله بن صصري ، وأبو  
محمد عبد الغني بن عبد الواحد ، وحدثنا عنه ولده الأمير الأجل أبو  
الفوارس مرهف وغيره ، وهو من بيت الأمانة والشجاعة ، وله اليد  
البيضاء في اللغة والكتابة والشعر ، وله مصنفات مشهورة وكان  
مشهورا بالشجاعة والاقدام ، ودخل بغداد ، والموصل ، ودمشق  
ومصر ( ١٠١ )

أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن  
نحبر بن مذقذ الكناني الكلابي الشيزري الملقب مؤيد  
الدولة مجد الدين

من وفيات الأعيان لابن خلكان





من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم ، وشجعانهم  
له تصانيف عديدة في فنون الأدب. ذكره أبو البركات بن المستوفي في  
تاريخ إربل ، وأثنى عليه وعده في جملة من ورد عليه ، وأورد له  
مقاطيع من شعره ، وذكره العماد الكاتب في الخريدة ، وقال بعد  
الثناء عليه : سكن دمشق ثم نبت به كما تنبوا الدار بالكريم ، فانتقل  
إلى مصر فبقي بها مؤمرا مشارا إليه بالتعظيم إلى أيام الصالح بن  
رزيك ، ثم عاد إلى الشام ، وسكن دمشق ثم رماه الزمان إلى  
حصن كيفا فأقام به حتى ملك السلطان صلاح الدين رحمه الله  
تعالى دمشق فاستدعاه وهو شيخ قد جاوز الثمانين .

وقال غير العماد : إن قدومه مصر كان في أيام الظاهر بن الحافظ  
والوزير يومئذ العادل بن السلار فأحسن إليه وعمل عليه حتى قتل  
حسبما هو مشروح في ترجمته .

قلت ثم وجدت جزءا كتبه بخطه للرشيد بن الزبير حتى يلحقه  
بكتاب الجنان وكتب عليه أنه كتبه بمصر سنة إحدى وأربعين  
 وخمسمائة ، فيكون قد دخل مصر في أيامه ، وأقام بها حتى قتل  
العادل بن السلار إذ لا خلاف أنه حضر هناك وقت قتله. وله ديوان  
شعر في جزئين موجود في أيدي الناس ورأيت بخطه ونقلت منه  
قوله :

لا تستعز جلدا على هجرانهم  
فقواك تضعف من صدود دائم  
وأعلم بأنك إن رجعت اليهم  
طوعا ولا عدت عوبة راغم  
ونقلت منه في ابن طليب المصري وقد احترقت داره  
انظر إلى الأيام كيف تسوقنا  
قسرا إلى الأقرار بالأقدار  
ما وقد ابن طليب قط بداره  
نارا وكان خرابها بالنار

ومما يناسب هذه الواقعة أن الوجيه بن صورة المصري دلال  
الكتب ، كانت له بمصر دار موصوفة بالحسن ، فاحتترقت فعمل  
نشاء الملك أبو الحسن علي بن مفرج المعروف بابن المنجم المعري  
الأصل المصري الدار والوفاة :

اقول وقد عاينت دار ابن صورة  
والنار فيها مارج يتضرم  
وكذا كل مال أصله من مهاوش  
فعما قليل في نهاير يعدم  
وماهو الا كافر طال عمره  
فجاءته لما استبطأته جهنم

والبيت الثاني مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم : « من أصاب  
مالا من مهاوش أذهب الله في نهاير » والمهاوش الحرام والنهاير  
المهاك ، والوجيه المذكور هو أبو الفتوح ناصر بن أبي الحسن علي  
ابن خلف الأنصاري المعروف بابن صورة ، وكان سمسارا في الكتب  
بمصر ، وله في ذلك حظ كبير ، وكان يجلس في دهليز داره  
لذلك ، ويجتمع عنده في يوم الأحد والأربعاء أعيان الرؤساء  
والفضلاء ، ويعرض عليهم الكتب التي تباع ولا يزالون عنده الى  
انقضاء وقت السوق ، فلما مات السلفي سار الى الاسكندرية لبيع  
كتبه ، ومات في السادس عشر من شهر ربيع الآخر سنة سبع  
وستمئة بمصر ، ودفن بقرافتها رحمه الله تعالى .

ولابن منقذ من قطعة يصف ضعفه :

فأعجب لضعف يدي عن حملها قلما  
من بعد حطم القناني لبة الاسد

ونقلت من ديوانه ايضا ابياتا كتبها إلى أبيه مرشد ، جوابا عن  
أبيات كتبها أبوه اليه وهي :

- ٥٥٦١ -

وما أشكو تلون أهل ودي  
ولو أجدت شكيتهم شكوت  
مالت عتابهم ويئست منهم  
فما أرجوهم فيمن رجوت  
إذا أدمت قوارضهم فؤادي  
كظمت على أذاهم وانطويت  
ورحت عليهم طلق المحيا  
كأنني ماسمعت ولا رأيت  
تجدو إلي نذوبا ماجنتها  
يداي ولا أمرت ولا نهيت  
ولا والله ماضمرت غدرا  
كما قد أظهروه ولا ذويت  
ويوم الحشر موعدنا وتبدو  
صحيفة ماجذوه وما جنيت

وله بيتان في هذا الروي والوزن كتبهما في صدر كتاب الى بعض  
أهالي بيته ، في غاية الرقة والحسن وهما :

شكا ألم الفراق الناس قلبي  
وروع الذوى حي وميت  
وأما مثل ماضمت ضلوعي  
فاني ماسمعت ولا رأيت

والشيء بالشيء يذكر ، أنشدني الأديب أبو الحسن يحيى بن عبد  
العظيم المعروف بالجزار المصري لنفسه في بعض أدباء مصر ، وكان  
شيخا كبيرا وظهر عليه جرب فالتطخ بالكبريت قال : فلما بلغني ذلك  
كتبت اليه :

أيها السيد الأديب دعاء  
من محب خال من التذكيت

- ٥٥٦٢ -

أنت شيخ وقد قربت من النا  
ر فكيف ادهنت بالكبريت

ونقلت من خط الأمير أبي المظفر اسامة بن منقذ المذكور  
لنفسه ، وقد قلع خرسه وقال : عملتهما ونحن بظاهر اخلاط وهو  
معني غريب ويصلح أن يكون لغزافي الخرس :

وصاحب لا أمل الدهر صحبته  
يشقى لنفسي ويسعى سعي مجتهد  
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا  
لناظري افترقنا فرقة الأبد

قال العماد الكاتب وكنت أتمنى أبدا لقياه ، وأشيم على البعد  
حياه ، حتى لقيته في صفر سنة إحدى وسبعين ، وسألته عن مولده  
فقال : يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان  
وثمانين وأربعمائة ، قلت: بقلعة شيزر ، وتوفي ليلة الثلاثاء الثالث  
والعشرين من شهر رمضان سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، بدمشق  
رحمه الله تعالى ، ودفن من الغد شرقي جبل قاسيون وبخلت تربته  
وهي على جانب نهر يزيد الشمالي وقرأت عنده شيئا من القرآن  
وترحمت عليه .

وتوفي والده أبو اسامة مرشد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة  
رحمه الله تعالى .

وشيزر - بفتح الشين المثلثة وسكون الياء المثناة من تحتها  
وبعدها زاء مفتوحة ثم راء - قلعة بالقرب من حماة وهي معروفة  
بهم وسيأتي ذكرها في حرف العين عند ذكر جده علي بن مقلد ان  
شاء الله تعالى .

اسامة بن مذقذ  
من المقفى الكبير للمقرىزى





اسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منذر بن محمد بن  
مندر بن نصر بن هاشم بن سرار بن زياد بن زغيب بن مكحول بن  
عمرو بن الحارث بن عامر بن مالك بن أبي مالك بن عوف بن كنانة  
ابن بكر بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن  
ثعلب بن حلوان بن عمرو بن الحاف بن قضاة ، أبو المظفر ، مؤيد  
الدولة الشيزري .

مولده :

ولد يوم الأحد سابع عشرين جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين  
وأربعمائة - وقيل : ثالث عشرينه ، وقيل : في شهر رمضان  
منها - والاول هو الصحيح وكانت ولادته بقلعة شيزر .

وتوفي بدمشق في ليلة الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة  
أربع وثمانين وخمسمائة ، ودفن من الغد بجبل قاسيون .

وهو من أكابر بني منذر أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم  
وشجعانهم ، وله تصانيف عديدة في فنون الأدب ، وله ديوان شعر في  
جزئين .

وانتقل من شيزر الى دمشق فسكنها مدة ، ثم سار منها الى  
مصر في خلافة الحافظ لدين الله هو وأخوته أبو المغيث  
مندر ، وشرف الدين مرشد وأولادهم ، والوزير نظام الدين أبو  
الكرام محسن ، لاستيحا شهم من الأتابك معين الدين أنر لجير  
الدين أبق صاحب دمشق ، وخوفهم منه ، وقدموا في جمادى الآخرة  
سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، فاستمر بها أن ولي العادل بن  
السلار الوزارة ، فاختص به .

### تحريضه على قتل الظافر :

فلما خرج العسكر من القاهرة لحفظ عسقلان من الفرنج في سنة ثمان وأربعين وخمس مائة ، وعليه عباس بن تميم ربيب الوزير العادل علي بن السلار ، ومعه من أمراء الدولة ملهم والضرغام وأسامة بن منقذ هذا ، وكان خصيصا بعباس ، ونزلوا على بلبيس ، تذاكر عباس وأسامة مصر وطيبها وما هم خارجون اليه من مقاساة السفر ولقاء العدو ، فتأوه عباس أسفا على مفارقة مصر وأخذ يثرب على العادل كونه جرده ، فقال له أسامة : لو أردت كنت أنت سلطان مصر .

فقال : كيف لي بذلك .

فقال : هذا ولدك نصر بينه وبين الخليفة - يعني الظافر - مودة عظيمة ، فخاطبه على لسانه أن تكون سلطان مصر موضع عمك فانه يحبك ويكرمه ، فإذا أجابك فاقتل عمك .

فوقع كلامه من عباس بموقع ، وجهز ابنه الى الخليفة ، وكان من قتل ابن السلار وولاية عباس الوزارة ماتقدم في موضعه .

فلما استقل عباس بوزارة الخليفة الظافر ، وكره اختلاط نصر ابن عباس بالخليفة الظافر ، ثقل أسامة على أمراء مصر ، واستودشوا منه لعلمهم أنه هو الذي دبر قتل ابن السلار وتحديثوا بقتله ، وخيلوا للظافر منه كونه من أهل الشام ، وهواه مع بني العباس ، ومتى ترك وقع منه مالا يتدارك ، وبلغه ذلك فخاف من الظافر ، وأخذ في الحيلة لنفسه ، وشرع يدبّر في فتنه أخرى ، فأغرى عباس الوزير بابنه نصر ، وببالغ حتى قال له يوما : كيف تصبر على ما يقول الناس في حق ولدك ، ومن أن الخليفة يفعل به ما يفعل بالنساء ؟

فغضب عباس من ذلك وطلب ابنه وعذفه فلم يصغ لقوله واستمر على معاشرته الخليفة الى أن انعم عليه بناحية قليوب ، فقال له أسامة بحضرة ابيه: ما هي بمهرك غالية!

فامتعض عباس وشدق عليه هذا القول ، وقال لأسامة : كيف الحيلة في الخلاص مما بلينا به ؟

فقال : هين ! هذا الخليفة يأتي في كل وقت إلى بيت ولدك خفية ، فمره إذا جاءه أن يقتله .

فما زال عباس بابنه نصر حتى قتل الخليفة كما ذكر في ترجمته . فلما أقام عباس الفائز عيسى في الخلافة بعد قتل الظاهر ، وقدم طلائع بن رزيق من الاشمونيين لأخذ ثأر الظاهر آل أمر عباس إلى أن فر من القاهرة ، هو وولده نصر ، وأسامة ، في عتة من أصحابهم ، بعدما نهب لأسامة عند خروجه من مصر أربعون غرارة (١٠٠) جمالية مخاطلة فيها من الذهب والفضة والكسوة شيء كثير ، وأخذ من اصطبله ستة وثلاثون حصانا وبغلة بسرورها ولجمها وعدتها ، وخمسة وعشرون جملا ، وأخذ من إقطاعه يكوم اشبين مائتا رأس بقر لبساتينه وأوسيته ، وأهراء غلة .

### هروبه من الافرنج وخذلانه العباس :

فخرج عليهم الافرنج ، ففر أسامة وتبعه أصحابه ، وتركوا عباسا وابنه حتى قتل عباس وأسر ابنه نصر في يوم الجمعة خامس شهر ربيع الآخر ، وسار أسامة إلى دمشق في سنة تسع وأربعين وخمسمائة فاقام بها .

ثم رماه الزمان الى حصن كيفا فاقام به حتى ملك السلطان

صلاح الدين يوسف دمشق ، فاستدعاه وهو شيخ قد جاوز  
الثمانين .

قال فيه العماد الكاتب : وأسامة كاسمه في قوة نثره ونظمه ،  
معتدل التصارييف ، مطبوع التصانيف .

شعره :

ومن شعره في قلع ضرسه :

وصاحب لآمل الدهر صحبته  
يشقى لذعي ويسعى سعي مجتهد  
لم ألقه منذ تصاحبنا فحين بدا  
لناظري افترقنا فرقة الأبد  
انظر إلى لاعب الشطرنج يجمعها  
مغالبا ثم بعد الجمع يرميها  
كالمرء يكدح الدنيا ويجمعها  
حتى إذا مات خلاها وما فيها

وقال :

لأرمين بذنبي كل مهلكة  
مهولة يتحاماها ذوو الباس  
حتى أصادف حيني فهو أجمل بي  
من الخضوع وأستغني عن الناس

وقال قصيدته المشهورة التي كتبها إلى دمشق بعد خروجه منها  
إلى مصر يعتب على الأمير معين الدين أنر ، وهي من غرر القصائد:

وأوا فلما رجونا عدلهم ظالموا  
فليتهم حكموا فينا بما علموا  
ما مر يوما بفكري ما يرييهم  
ولا سعت بي إلى ما ساءهم قدم  
ولا أضعت لهم عهدا ولا اطلعت  
على ودائعهم في صدري التهم  
فليت شعري ، بم استوجبت هجرهم  
ملوا فصدهم عن وصلي السأم  
حفظت ما ضيعوا ، أغضيت حين جذوا  
وفيت إذ غدروا ، واصلت إذ هبهموا  
حرمت ما كنت أرجو من ودائعهم  
ما الرزق إلا الذي يجري به القلم  
محاسني منذ ملوني باعينهم  
قذى ، وذكرى في أذانهم صمم  
وبعد ، لو قيل لي : ماذا تحب وما  
تختار من زينة الدنيا ؟ لقلت : هم  
هم مجال الكرى من مقلتي ، ومن  
قلبي محل المنى ، جاروا أو اجترموا  
تبدلوا بي وما أبغي بهم بدلا  
حسبي بهم أنصفو في الحكم أو ظالموا  
ياراكبا تقطع البيداء همته  
والعيس تعجز عما تدرك الهمم  
بلغ أميري معين الدين مألقة  
من نازح الدار ولكن وبه أمم  
وقل له : أنت خير التارك فضلك  
الحياء والدين والإقدام والكرم



وانت أعدل من يشكى إليه ، ولي  
شكية أنت فيها الخصم والحكم

هل في القضية يامن فضل دولته  
وعدل سيرته بين الورى علم  
يضيع واجب حقي بعدما شهدت  
به النصيحة والأخلاص والخدم

وما ظننتك تنسى حق معرفتي  
إن التعارف في أهل النهى ذمم  
ولأعتقدت الذي بيني وبينك من  
ود ، وان أجلب الأعداء ، ينصرم  
لكن ثقاتك ما زالوا بغشهم  
حتى استوت عندك الأذوار والظلم  
باعوك بالبخس يبغيون الغنى ، ولهم  
لو أنهم عديموك الويل والعدم  
والله ما نصحووا فيما استشرتهم  
وكلهم ذو هوى في الرأي متهم  
كم حرفوا من مقال في سفارتهم  
وكم سعوا بفساد ضل سعيهم

أين الحمية والنفوس الأبية إذ  
ساموك خطة خسف عارها يصم  
هلا أذنت حياء أو محافظة  
من فعل ما أنكرته العرب والعجم  
أسامتنا وسيوف الهند مغمدة  
ولم يرو سنان السميري دم  
وكننت أحسب من والاك في حرم  
لا يعتريه به شيب ولا هرم

وأن جاركم جار السموات لا  
يخشى الأعداء ولا تغتاله النقم  
وما طمان بأولى من أسامة بال  
—وفاء لكن جرى بالكائن القلم  
هبتا جنينا نذوبا لا يكفرها  
عذر ، فماذا جنى الأطفال والحرم  
ألقيتهم في يد الأفرنج مبتغيا  
رضى عدى يسخط الرحمن فعلهم  
هم الأعداء وقاك الله شرهم  
وهم بزعمهم الأعوان والخدم  
إذا نهضت إلى مجد تؤذله  
تقاعدوا ، فإذا شيدته هدموا  
وإن عرتك من الأيام نائبة  
فكلهم الذي يبكيك مبتسم  
حتى إذا ما أنجلت عنهم غيابتها  
بحد عزمك وهو الصارم الخدم  
رشفت أجن عيش كله كدر  
ووردهم من نذاك الساسل الشبم  
وإن أتاهم بقول عنك مختلق  
واش فذاك الذي يحبى ويحترم  
وكل من ملت عنه قربه ، ومن  
والأك فهو الذي يقصى ويهتضم  
بغيا وكفرا لما أوليت من منن  
وموقع البغي لولا جهلهم وخم  
جربهم مثل تجريبي لتخبرهم  
فالرجال إذا ما جربوا قيم  
هل فيهم رجل يغني غناي إذا  
جلى الحوادث حد السيف والقلم



- ٥٥٧٢ -

أم فيهم من له في الخطب ضاق به

ذرع الرجال يد يسطو بها وفم

لكن رأيك أنناهم وأبعني

فليت أنا بقدر الحب نقتسم

وما سخطت بعادي إذ رضيت به

ولا لجرح إذا أرضاكم ألم

ولست أسي على الترحال من بلد

شهب البزاة سواء فيه والرخم

تعالقت بحبال الشمس من كبدي

ثم اذنت وهي صفر ملؤها ندم

لكن فراقك أساني وأسفني

ففي الجوانح نار منه تضطرم

فاسلم فما عشت لي فالدهر طوع يدي

وكل ما نالني من يؤسه نعم

فلما وقف عليها معين الدين ألزم الأيب أبا الشتاء محمود بن

نعمة بن رسلان الشيزري ، حتى أجاب عنها بأبيات أولها :

يا ظالما ناره في القلب تضطرم

مهلا ! فلحظك تغشى نوره الظلم

كأذك القوس تردي وهي صارخة

وما ألم بها من غيرها ألم

تجني وتلزميني نذبا أتيت به

ووجه غدرك باد ليس يذبهم

وقال ( ١٠٣ ) :

الخالق في يوم القيامة موقف

تجزى البرية فيه عن أعمالها

- ٥٥٧٣ -

ومطوق الارضين غاصب حدها

فليهننا من قد حازها بكمالها

وقال :

ياليت أن نيارنا كانت كذا :

طورا تفرقنا وطورا تجمع

لكنها درست وأوحشها الردى

من أهلها فهي القفار الباقع

لايرتجى لهم إياب جامع

أشتاتهم حتى يضم المجمع

وقال :

وسائل الدار عن كان يملكها

هل آذست عنهم من بعدهم خبر

فلو أجابت لقلت وهي عالمة

بسيرة السلف الماضي ومن غبرا

أرتهم العبر الدنيا فما اعتبروا

فصيرتهم أقوم بعدهم عبرا

وقال :

وما أشكو تلون أهل ودي

ولو أجبت شكاتهم شكوت

مالت عتابهم ويذست منهم

فما أرجوهم فيمن رجوت

إذا أدمت قوارصهم فؤادي

صبرت على أذاهم وانطويت

ورحت عليهم طالق الحيا  
ولا والله ما أضمرت غدرا  
تجدوا لي نذوبا ما جنتها  
هم نقضوا موثيقي وعهدي  
ولم يوفوا ، وماأنا قد وفيت  
صحاائف ما جذوه وما جنيت

كتبه :

وله عدة مصنفات ، منها : كتاب التاريخ البصري ، ذكر فيه أهل  
بدر ، وعدتهم ، وأسماءهم ، وأنسائهم ، وأحوالهم . وذكر فيه  
مغازي النبي صلى الله عليه وسلم وجميع أحواله من أول أمره إلى  
آخره ، واستقصى ذلك في خمس مجلدات كبار على حروف المعجم .  
وكتاب الشيب والشباب ، ذكر فيه الخضاب وما جاء فيه ، ورتبه  
على سبعة أبواب في كل فصول . وكتاب ملحق به سماه « استدراك  
المرقاب » .

وكتاب الحنين إلى الاوطان . وكتاب أخبار النساء ، بدأ فيه  
بحواء ، وذكر فيه أم موسى ، ومريم ابنة عمران وأخبارهن ،  
وأمهات العرب ، والأخوات ، والزوجات ، والبنات المنجيات ،  
والنساء التي سارت بذكرهن الأشعار ، واستقصى أخبار الجميع  
وأشعارهن وما قيل فيهن . وكتاب وسائل السائل ، يتضمن الادعية  
وأوقاتها وماورد فيها . وكتاب المنازل والنيار . وكتاب نصيحة  
الدعاة . وكتاب الإشارة . وكتاب زجر عمرو بن بحر الجاحظ ، فيه  
النهى عن الزنا واللاواط والفواحش . وكتاب أزهار الأزهار ، فيه

صفة الجنة ومنافع اللبن ومضاره . وكتاب العصا ، فيه ذكر عصا موسى عليه الصلاة والسلام ، وما جاء في العصا . وكتاب الذوم والاحلام . وكتاب التآسي والتسلي . وكتاب فضائل الخلفاء الراشدين . وكتاب المحاسن . وكتاب نزهة الناظر في إملاء خاطر ، وكتاب ردع الظالم ورد المظالم ، وكتاب الاعتبار ، وكتاب تاريخ ذكر الحوادث من أول الهجرة إلى زمانه مختصرا ، وكتاب لباب الآداب ، وكتاب مكارم الاخلاق ، في عشرين مجلدة ، صنفه في مدة عشر سنين ، مدة مقامه بمصر ، وكتاب المنتخب من أشعار العرب ، وكتاب المختار من محدث الاشعار ، وكتاب المماثلة في الشعر ، وكتاب معونة المساعد على حصر الشواهد ، في الشعر أيضا ، وكتاب الأقسام ، في الشعر أيضا ، وكتاب أمان الخائفين ، في الزهد ، وكتاب البيرة والحصون ، وكتاب فيه شعر جماعة سألهم ابن الزبير عنهم ، وكتاب المكارم والكرم ، ورعاية الذمم ، وكتاب الفرق ما بين المحبة والهوى ، وكتاب زور أبي العلاء ، وكتاب ضربة الولاء ، وكتاب اختيار شعر أبي تمام ، وكتاب التجارة المربحة ، وكتاب مختار شعر أبي نواس .

كتاب الاعتبار





## الباب الاول



## حروب واسفار

### معركة قنسرين ضد الفرنجة سنة ٥٣٠هـ

ولم يكن القتل في ذلك المصاف في المسلمين كثيرا ، وكان وصل من الامام الراشد بن المسترشد ، رحمه الله ، ابن بشر (١) رسولا الى اتابك يستدعيه فحضر ذلك المصاف ، وعليه جوشن منهب ، فطعنه فارس من الافرنج ، يقال له ابن الدقيق (٢) ، في صدره اخرج الرمح من ظهره ، رحمه الله ، بل قتل من الافرنج خاق كثير . وأمر اتابك ، رحمه الله ، فجمعت رؤوسهم في حقل مقابل الحصن ، فكانت قدر ثلاث آلاف رأس .

ثم ان ملك الروم عاد خرج إلى البلاد في سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة ، واتفق هو والافرنج ، خذلهم الله ، وأجمعوا على قصد شيزر ومنازلتها ، فقال لي صلاح الدين (٣) « ما ترى ما فعله هذا الولد المذكل ؟ » يعني ابنه شهاب الدين أحمد ، قلت : « وأي شيء فعل ؟ » قال : « انفذ الي يقول ابصر من يتولى بلدك » ، قلت : « وأي شيء عملت ؟ » قال : « دفنت الى اتابك أقول » (تسلم موضعك) ، قلت : « بدس ما فعلت ! اما يقول لك اتابك : لما كانت لحما أكلها ، ولما صارت عظما رماها علي ؟ » قال : « فأي شيء أعمل ؟ » قلت : « أنا اجلس فيها ، فان سلم الله تعالى كان بسعادتك ، ويكون وجهك أبيض عند صاحبك ، وان أخذ الموضع وقتلنا كان بأجالنا ، وانت معذور » ، قال : « ما قال لي هذا القول احد غيرك » .

وتوهمت انه يفعل ذلك ، فحلت الغنم والدقيق الكثير والسمن وما يحتاجه المحاصر ، فأنا في داري المغرب ورسوله جاءني قال : « يقول لك صلاح الدين : نحن بعد غد سائرون إلى الموصل فاعمل

شغللك للمسير ، فورد على قلبي من هذا هم عظيم وقلت : « أتترك أولادي وأخوتي في الحصار وأسير إلى الموصل ؟ » ، فأصبحت ركبت إليه وهو في الخيام استأننته في الرواح الى شيزر لأحضر لي ذفقة ومالا نحتاج إليه في الطريق . فأنن وقال : « لاتبطيء » ، فركبت ومضيت إلى شيزر ، فبدأ منه ما أودش قلبي ، وعزل ابني مبارك ودفد إلى داري ، فرفع كل ما فيها من الخيام والأسلاح والرحل وقبض على ابن اختي ، وتتبع أصحابي - فكانت ذكبة كبيرة رائعة .

### ( من شيزر إلى دمشق )

فاقتضت الحال مسيري الى دمشق ، ورسل أتابك تتردد في طلبي إلى صاحب دمشق ، فاقمت فيها ثمانين سنين ، وشهدت فيها عدة حروب ، وأجزل لي صاحبها ، رحمه الله ، العطية والاقطاع ، وميزني بالتقريب والاكرام - يضاف ذلك الى اشتغال الامير معين الدين ، رحمه الله علي ، وملازمتي له ، ورعايته لأسبابي .

ثم جرت أسباب أوجبت مسيري إلى مصر . فضاع من حوائج داري وسلاحي ما لم أقدر على حمله ، وفرطت في أملاكي ما كان ذكبة لخسري . كل ذلك والامير معين الدين ، رحمه الله ، مدسّن مجمل كثير التأسف على مفارقتي ، مقر بالعجز عن أمري ، حتى أنه أنفذ إلي كاتبه الحاجب محمود المسترشيدي ، رحمه الله ، قال : « والله لو أن معي نصف الناس لضربت بهم النصف الآخر ، ولو أن معي ثلثهم لضربت بهم الثلثين ، وما فارقتك . لكن الناس كلهم قد تمالؤوا علي ومالي بهم طاقة ، وحيث كنت ، فالذي بيننا من المودة على أحسن حاله ( ٤ ) » . ففي ذلك أقول :

معين الدين كم لك طوق من	بجيدي مثل أطواق الحمام
تعبيني لك الاحسان طوعا	وفي الاحسان رق الكرام
فصار الى مودتك انتسابي	وان كنت العظامي العصامي
الم تعلم بانني لانتماي	اليك رمى سوايدي كل رام
ولولا انت لم يصحب شماسي	لقسر دون إغزار الحسام

- ٥٥٨٣ -

ولكن خفت من نار الاعادي  
عليك فكنت إطفاء الضرام ( ٥ )

### ( من دمشق الى القاهرة )

فكان وصولي الى مصر يوم الخميس الثاني من جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمس مائة ، فقربني الحافظ لدين الله ساعة وصولي ، فخلع علي بين يديه ، ودفع لي تخت ثياب ومائة دينار ، ودولني دخول الحمام ، وانزلني في دار من دور الأفضل بن أمير الجيوش ، في غاية الحسن وفيها بسطها وفرشها ومرتبة كبيرة ، وآلتها من النحاس ، كل ذلك لا يستعاد منه شيء ، وأقمت بها مدة ، إقامة في إكرام واحترام وإنعام متواصل ، وإقطاع زاج.

فوقع بين السودان ، وهم في خلق عظيم ، شر وخاف : بين الريحانية ، وهم عبيد الحافظ ، وبين الجيوشية (٦) والاسكندرية والفرحية ، فكان الريحانية في جانب ، وهؤلاء كلهم في جانب ، متفقين على الريحانية ، وانضاف إلى الجيوشية قوم من صبيان الخاص ، فاجتمع من الفريقين خلق عظيم ، وغاب عنهم الحافظ ، وترددت إليهم رسله ، وحرص على ان يصلح بينهم . فما أجابوا إلى ذلك ، وهم معه في جانب البلد ، فاصبحوا التقوا في القاهرة فاستظهرت الجيوشية وأصحابها على الريحانية ، فقتلت منهم في سويقة أمير الجيوش ألف رجل حتى سدوا السويقة ، ونحسن نبيت ونصبح بالسلاح خوفا من ميلهم علينا ، فقد كانوا فعلوا ذلك قبل طلوعي إلى مصر .

وظن الناس لما قتل الريحانية أن الحافظ يذكر ذلك ويوقع بقاتليهم ، وكان مريضا على شفا ، فمات ، رحمه الله ، بعد يومين ، وما انتطح فيها عنزان .

وجلس بعده الظافر بأمر الله ، وهو أصغر أولاده ، واستوزر نجم الدين بن مصال ، وكان شيخا كبيرا ، والامير سيف الدين ابو الحسن علي بن السلار ، رحمه الله ، إذ ذاك في ولايته (٧) ، فحشد



وجمع وسار إلى القاهرة ، ونفذ إلى داره ، فجمع الظافر بأمر الله الأمراء في مجلس الوزارة ، ونفذ إلينا زمام القصور ( ٨ ) يقول : « يا أمراء هذا نجم الدين وزيري ونائبي ، فمن كان يطيعني فليطعه ويمتثل أمره » فقال الأمراء : « نحن مماليك مولانا سامعون مطيعون » فرجع الزمام بهذا الجواب .

فقال أمير من الأمراء شيخ يقال له لكرون : « يا أمراء ، نترك علي بن السلار يقتل ؟ » قالوا : « لا والله » قال : « فقوموا » فذفروا كلهم وخرجوا من القصر شدوا على خيلهم وبغالهم وخرجوا إلى معونة سيف الدين بن السلار ، فلما رأى الظافر ذلك وغلب عن دفعه أعطى نجم الدين بن مصال مالا كثيرا وقال : « اخرج إلى الدوف ( ٩ ) ، اجمع واحشد وانفق فيهم ، وادفع ابن السلار » فخرج لذلك .

ودخل ابن السلار القاهرة ، ودخل دار الوزارة ، واتفق الجند على طاعته ، وأحسن إليهم ، وأمرني أن أبيت أنا وأصحابي في داره ، وأفرد لي موضعا في الدار أكون فيه ، وابن مصال في الدوف قد جمع من لواته ( ١٠ ) ومن جند مصر ومن السودان والعربان خلقا كثيرا . وقد خرج عباس ركن الدين ، وهو ابن امرأة علي بن السلار ، ضرب خيمة في ظاهر مصر ، فغدت سرية من لواته ، ومعهم نسيب لابن مصال ، وقصدوا مخيم عباس ، فانهزم عنه جماعة من المصريين ، ووقف هو وغلمانه ومن صبر معه من الجند ليلة مخايستهم .

وبلغ الخبر إلى ابن السلار فاستدعاني في الليل ، وأنا معه في الدار ، وقال : « هؤلاء الكلاب - يعني جند مصر - قد شغلوا الأمير - يعني عباسا - بالفوارغ ، حتى عدا إليه قوم من لواته سباحة ، فانهزموا عنه ودخل بعضهم إلى بيوتهم بالقاهرة ، والأمير موافقهم » قلت : « يامولاي ، نركب إليهم في سحر ، وما يضحى النهار إلا وقد فرغنا منهم إن شاء الله تعالى » قال : صواب أبكر في

ركوبك ، فخرجنا إليهم من بكرة ، فلم يسلم منهم إلا من سبحت به  
فرسه في النيل ، وأخذ نسيب ابن مصال ضربت رقبتة .

وجمع العسكر مع عباس وسيره الى ابن مصال ، فلقية على  
دلاص ( ١١ ) ، فكسرههم وقتل ابن مصال ، وقتل من السودان وغيرهم  
سبعة عشر ألف رجل ، وحملوا رأس ابن مصال إلى القاهرة ، ولم  
يبق لسيف الدين من يعانده ولا يشاqqه .

وخلع عليه الظافر خلع الوزارة ولقبه الملك العادل ، وتولى  
الامور .

كل ذلك والظافر منحرف عنه ، كاره له ، مضمرة له الشر ، فعمل  
على قتله وقرر مع جماعة من صبيان الخاص وغيرهم ممن  
استمالهم وأنفق فيهم أن يهجموا داره ويقتلوه ، وكان شهر  
رمضان ، والقوم قد اجتمعوا في دار بالقرب من دار الملك العادل  
ينتظرون توسط الليل واقتراق اصحاب العادل ، وانا تلك الليلة  
عنده .

فلما فرغ الناس من العشاء واقترقوا ، وقد بلغه الخبر من بعض  
المعاملين عليه ، أحضر رجلين من غلمانه وأمرهم أن يهجموا عليهم  
الدار التي هم فيها مجتمعون ، وكانت الدار ، لما أراده الله من  
سلامة بعضهم ، لها بابان : الواحد قريب من دار العادل ، والاخر  
بعيد ، فهجمت الفرقة الواحدة من الباب القريب ، قبل وصول  
أصحابهم إلى الباب الاخر ، فانهزموا وخرجوا من ذلك الباب ،  
وجاءني منهم في الليل من صبيان الخاص نحو عشرة رجال ، كانوا  
أصدقاء غلماني نخبئهم . وأصبح البلد فيه الطلب لأولئك المنهزمين ،  
ومن ظفر بهم منهم قتل .

ومن عجيب ما رأيت في ذلك اليوم أن رجلا من السودان الذين  
كانوا في العملة انهزم إلى علو داري ، والرجال بالسيوف خلفه ،

فأشرف على القاعة من ارتفاع عظيم ، وفي الدار شجرة نبق ( ١٢ ) كبيرة ، فقفز من السطح إلى تلك الشجرة ، فثبت عليها ، ثم نزل ودخل من كم ( ١٣ ) مجلس قريب منه فوطىء على منارة نحاس ، فكسرها ، ودخل إلى خلف رحل في المجلس اختبأ فيه .

وأشرف أولئك الذين كانوا خلفه ، فصحت عليهم وأطلعت إليهم الغلمان ، دفعوهم ، ودخلت إلى ذلك الأسود ، فنزع كساء كان عليه وقال : « خذه لك » ، قلت « أكثر الله خيرك ، ما احتجاجة » وأخرجته وسيرت معه قوما من غلماني ، فنجا .

وجالست في صفة في دهليز داري ، فدخل علي شاب سلم وجلس ، فرأيت حسن الحديث حسن المحاضرة ، هو يتحدث وأنسان استدعاه فمضى معه ، ونفذت خلفه غلاما يبصر لماذا استدعي ، وكنت بالقرب من دار العادل ، فساعة ما حضر ذلك الشاب بين يدي العادل أمر بضرب رقبتة ، فقتل ، وعاد الغلام ، وقد استخبر عن ذنبه ، فقليل له : « كان يزور الدواقيع » ، فسبحان مقدر الأعمار ، وموقت الأجال .

وقتل في الفتنة جماعة من المصريين والسودان .

وتقدم إلي الملك العادل ، رحمه الله ، بالتجهز للمسير إلى الملك العادل نور الدين رحمه الله ، وقال : « تأخذ معك مالا وتمضي إليه لينازل طبرية ، ويشغل الفرنج عنا ، لنخرج من هاهنا نخرب غزة » .

وكان الأفرنج ، خذلهم الله ، قد شرعوا في عمارة غزة ليحاصروا عسقلان ، قلت : « يامولاي ، فإن اعتذر أو كان له من الأشغال ما يعوقه ، أي شيء تأمرني ؟ » قال : « إن نزل على طبرية ، فأعطه المال الذي معك ، وإن كان له مانع ، فديون ( ١٤ ) من قدرت عليه من الجند وأطلع إلى عسقلان أقم بها في قتال الأفرنج ، واكتب إلي بوصولك لأمرك بما تعمل » .

ودفع إلي ستة آلاف دينار مصرية ، وحمل جمل ثياب ديدقي ( ١٥ )  
وسقلاطون ومسنبج ودمياط ( ١٦ ) وعمائم ، ورقب معي قوما من  
العرب أدلاء .

وسرت وقد ازاح علة سفري بكل ما احتاجه من كثير وقليل ، فلما  
دزونا من الجفر ( ١٧ ) قال لي الادلاء : « هذا مكان لا يكاد يخلو من  
الافرنج » ، فامرت اثنين من الادلاء ركبا مهريين ، وسارا قدامنا  
إلى الجفر ، فما لبثا أن عادا ، والمهاري تطير بهما ، وقالا :  
« الافرنج على الجفر ! » ، فوقفنا وجمعت الجمال التي عليها ثقلنا  
ورفاقا من السفارة كانوا معي ، ورددتهم إلى الغرب ، وندبت ستة  
فوارس من ممالكي وقلت : « تقدمونا ، وأنا في إثركم » ، فساروا  
يركضون وأنا أسير خلفهم ، فعاد إلي واحد منهم وقال : « ما على  
الجفر أحد ، ولعلمهم ابصروا عربانا » . وتنازع هو والادلاء . فنفذت  
من رد الجمال ، وسرت .

فلما وصلت الجفر ، وفيه مياه وعشب وشجر ، فقام من ذلك  
العشب رجل عليه ثوب أسود ، فأخذناه ، وفارق أصحابي فأخذوا  
رجلا آخر وامرأتين وصبياننا ، فجاءت امرأة منهن مسكت ثوبي  
وقالت : « يا شيخ ، أنا في حسبك » ، قلت : « انت أمنة ، مالك ؟ »  
قالت « قد اخذ أصحابك لي ثوبا وناهقا وناجحا وخرزة » ، قلت  
لغلماني : « من كان أخذ شيئا يرده » .

فأحضر غلام قطعة كساء لعلها طول ذراعين ، قالت : « هذا  
الثوب » .

وأحضر آخر قطعة سندروس ( ١٨ ) قالت : « هذه الخرزة » ،  
قلت : « فالحمار والكلب ؟ » قالت : « الحمار قد ربطوا يديه  
ورجليه ، وهو مرمي في العشب ، والكلب مفلوت يعدو من مكان إلى  
مكان » .



فجمعتهم ورأيت بهم من الضر أمرا عظيما ، قد يبست جلودهم  
على عظامهم ، قلت « ايش أنتم ؟ » قالوا : « نحن من بني أبي » ،  
وبنو أبي فرقة من العرب من طيء لا يأكلون إلا الميتة ويقولون :  
« نحن خير العرب ، ما فينا مجذوم ولا أبرص ولا زمن ولا أعمى » ،  
وإذا نزل بهم الضيف ذبحوا له واطعموه من غير طعامهم ، قلت :  
« ما جاء بكم الى هاهنا ؟ » قالوا : « لنا بدسمى ( ١٩ ) كثول ذرة  
مطمورة جئنا نأخذها » قلت : « وكم لكم هنا ؟ » قالوا : « من عيد  
رمضان لنا هاهنا ، ومارأينا الزاد بأعيننا » ، قلت : « فمن أين  
تعيشون ؟ » قالوا « من الرمة ، ( يعذون العظام البالية الملقاة )  
ندقها ونعمل عليها الماء وورق القطف ( شجر بتلك الارض ) ونتقوت  
به » ، قلت : « فكلا بكم وحمركم ؟ » قالوا : « الكلاب نطعمهم من  
عيشنا ، والحمير تأكل الحشيش » ، قلت : « فلم لا تدخلتم الى  
دمشق ؟ » قالوا : « خفنا الوباء » ، ولا وباء اعظم مما كانوا فيه ! ،  
وكان ذلك بعد عيد الاضحى .

فوقفت حتى جاءت الجمال ، وأعطيتهم من الزاد الذي كان  
معنا ، وقطعت فوطة كانت على رأسي أعطيتها للمرأتين ، فكادت  
عقولهم تزول من فرحهم بالزاد ، وقلت : « لاتقيموا هاهنا يسبوكم  
الافرنج » .

ومن طريف ما جرى لي في الطريق أنني نزلت ليلة أصلي المغرب  
والعشاء قصرا وجمعا ، وسارت الجمال ، فوقفت على رفعة من  
الارض وقلت للغلمان : « تفرقوا في طلب الجمال ، وعودوا إلي ،  
فأنا ما أزول من مكاني » ، فتفرقوا وركضوا كذا وكذا فما رأوهم ،  
فعادوا كلهم إلي وقالوا : « ما لقيناهم ، ولا ندري كيف مضوا » ،  
فقلت : « نستعين بالله تعالى ونسير على الذوء » ، فسرنا ونحن قد  
أشرفنا من انفرادنا عن الجمال في البرية على أمر صعب .

وفي الادلاء رجل يقال له جرية فيه يقظة وفطنة ، فلما استبطأنا  
علم انا قد تهنا عنهم ، فأخرج قداحة وجعل يقدح ، وهو على

- ٥٥٩٠ -

الجمال ، والشرار من الزند يتفرق كذا وكذا ، فرأينا على البعد ،  
فقصدنا النار حتى لحقناهم ، ولولا لطف الله وما ألهمه ذلك الرجل  
كنا هلكنا .

ومما جرى لي في تلك الطريق أن الملك العادل ، رحمه الله ، قال  
لي « لا تعلم الادلاء الذين معك بالمال » ، فجعلت أربعة آلاف دينار في  
خرج على بغل سروجي مجذوب معي وسلمته إلى غلام ، وجعلت  
ألفي دينار ونفقة لي وسرفسار ( ٢٠ ) ودينانير مغربية في خرج على  
حصان مجذوب معي وسلمته إلى غلام ، فكنت إذا نزلت جعلت  
الاخراج في وسط بساط ، ورددت طرفيه عليها ، وبسطت فوقه  
بساطا آخر ، وأنام على الاخراج وأقوم وقت الرحيل قبل  
أصحابي ، يجيء الغلمان اللذان معهما الخرجان فيتسلمانهما ،  
فاذا شداهما على الجنايب ركبت وأيقظت أصحابي وتهمنا  
بالرحيل .

فنزلنا ليلة في تيه بني اسرائيل ، فلما قمت للرحيل جاء الغلام  
الذي معه البغل المجذوب أخذ الخرج وطرحه على وركي البغل ودار  
يريد يشده بالسموط ، فزل البغل ، وخرج يركض وعليه الخرج  
فركبت حصاني ، وقد قدمه الركابي ، وقلت لواحد من غلماني :  
« اركب ، اركب » .

وركضت خلف البغل فما لحقته ، وهو كأنه حمار وحش ،  
وحصاني قد أعيا من الطريق ، ولحقني الغلام ، فقلت « اتبع البغل  
كذا » ، فمضى وقال : « والله يامولاي ، مارأيت البغل ، ولقيت هذا  
الخرج قد شلته » ، فقلت : « للخرج كنت اطلب ، والبغل أهون  
مفقود » .

ورجعت إلى المنزل وإذا البغل قد جاء يركض دخل في طـواله  
الخيـل ووقف ، فكانه ما كان قصده إلا تضییع أربعة آلاف دينار .

- ٥٥٩١ -

ووصلنا في طريقنا إلى بصرى ، فوجدنا الملك العادل نور الدين ،  
رحمه الله ، على دمشق ، وقد وصل إلى بصرى الأمير اسد الدين  
شيركوه رحمه الله ، فسرت معه إلى العسكر فوصلته ليلة الاثنين ،  
وأصبحت تحدثت مع نور الدين بما جئت به ، فقال لي : « يا فلان ،  
أهل دمشق أعداء ، والافرنج أعداء ، ما آمن منهما إذا دخلت  
بينهما » ، قلت له : « فتأذن لي ان أديون من محرومي الجند قوما  
أخذهم وأرجع ، وتنفذ معي رجلا من اصحابك في ثلاثين فارسا  
ليكون الاسم لك » قال : « أفعل » .

فديونت إلى الاثنين الاخر ثمانمائة وستين فارسا وأخذتهم ،  
وسرت في وسط بلاد الافرنج ننزل بالبوق ونرحل بالبوق .

وسير معي نور الدين الامير عين الدولة الياروقي في ثلاثين  
فارسا فاجتزت في طريقي بالكهف والرقيم ( ٢١ ) ، فنزلت فيه ودخلت  
صليت في المسجد ، ولم أدخل في ذلك المضيق الذي فيه ، فجاء أمير  
من الاتراك الذين كانوا معي يقال له برسق ، يريد الدخول في ذلك  
الشق الضيق ، قلت : « أي شيء تعمل في هذا ؟ صل برا » قال : « لا  
إله الا الله ، أنا حرام إذا حتى لا أدخل في ذلك الشق الضيق ؟ »  
قلت : « أي شيء تقول ؟ » قال : « هذا الموضع ما يدخل فيه ولدزنا ،  
ما يستطيع الدخول » .

فأوجب قوله أن قمت دخلت في ذلك الموضع صليت ، وخرجت ،  
وأنا - الله يعلم - ما أصدق ما قاله ، وجاء أكثر العسكر فدخلوا  
وصلوا .

ومعي في الجند براق الزبيدي معه عبد له أسود دين كثير  
الصلاة ، أدق ما يكون من الرجال وأذهبهم ( ٢٢ ) فجاء إلى ذلك  
الموضع ، وحرص بكل حرص على الدخول ، فما قدر يدخل ، فبكى  
المسكين وتوجع وتحسر ، وعاد بعد الغلبة عن الدخول .



- ٥٥٩٢ -

فلما وصلنا عسقلان سحر ، ووضعنا اثقالننا عند المصلى ،  
صبحونا الافرنج عند طلوع الشمس ، فخرج الينا ناصر الدولة  
ياقوت ، والي عسقلان ، فقال : « ارفعوا ، ارفعوا اثقالكُم » ،  
قلت : « تخاف لا يغلبونا الافرنج عليها ؟ » قال : « نعم » ، قلت :  
« لاتخف ، هم يرونا في البرية ويعارضونا ، إلى أن وصلنا إلى  
عسقلان ، ما خفناهم ، نخافهم الآن ونحن عند مدينتنا ؟ !

ثم إن الافرنج وقفوا على بعد ساعة ، ثم رجعوا إلى بلادهم  
جمعوا لنا وجاءونا بالفارس والراجل والخيم يريدون منازل  
عسقلان ، فخرجنا إليهم ، وقد خرج راجل عسقلان ، فدرت على  
سرب الرجالة وقلت : « يا أصحابنا ، إرجعوا إلى سوركم ، ودعونا  
وإياهم ، فإن نصرنا عليهم فأنتم تلحقونا ، وإن نصرنا علينا كنتم  
أنتم سالمين عند سوركم » ، فامتنعوا من الرجوع ، فتركهم  
ومضيت إلى الافرنج ، وقد حطوا خيامهم ليضربوها ، فاحتطنا  
بهم ، وأعجلناهم عن طي خيامهم ، فرموها كما هي منشورة  
وساروا راجعين .

فلما انفسحوا عن البلد تبعهم من السوقيين أقوام ما عندهم منعة  
ولا غناء ، فرجع الافرنج حملوا على أولئك فقتلوا منهم نفرا ،  
فانهزمت الرجالة ، الذين رددتهم فما رجعوا ، ورموا تراسهم ،  
ولقينا الافرنج ، فرددناهم ، ومضوا عائدين إلى بلادهم وهي قريبة  
من عسقلان .

وعاد الذين انهزموا من الرجالة يتلاومون ، وقالوا : « كان ابن  
مذقد أخبر منا ، قال لنا : ارجعوا ، ما فعلنا حتى انهزمنا  
وافترضنا » .

وكان أخي عز الدولة ابو الحسن علي ، رحمه الله ، في جملة من  
سار معي من دمشق هو وأصحابه إلى عسقلان ، وكان ، رحمه

- ٥٥٩٣ -

الله ، من فرسان المسلمين يقاتل للدين لا الدنيا ، فخرجنا يوما من عسقلان نريد الغارة على بيت جبريل ( ٢٣ ) وقتالها ، فوصلناها وقتلناها ، ورأيت عند رجوعنا على البلد غلة كبيرة ، فوقفت في أصحابي وقدحنا نارا وطرحناها في البيادر ، وصرنا نتنقل من موضع إلى موضع ، ومضى العسكر تقدمني ، فاجتمع الأفرنج ، لعنهم الله ، من تلك الحصون ، وهي كلها متقاربة وفيها خيل كثيرة للأفرنج ، لمغادة عسقلان ومراوحتها ، وخرجوا على أصحابنا .

فجاءني فارس منهم يركض وقال : « قد جاء الأفرنج ! » فسرت إلى أصحابنا وقد وصلهم أوائل الأفرنج ، وهم ، لعنهم الله ، أكثر الناس احترازا في الحرب ، فصعدوا على رابية وقفوا عليها ، وصعدنا نحن على رابية مقابلهم ، وبين الراييتين فضاء ، أصحابنا المنقطعون وأصحاب الجنائب عبور تحتهم ، لا ينزل إليهم منهم فارس خوفا من كمين أو مكيدة ، ولو نزلوا أخذوهم عن آخرهم ، ونحن مقابلهم في قلة ، وعسكرنا قد تقدمنا منهزمين .

وما زال الأفرنج وقوفا على تلك الرابية إلى أن انقطع عبور أصحابنا ، ثم ساروا إلينا ، فاندفعنا بين أيديهم - والقتال بيننا - لا يجدون في طلبنا ، ومن وقف فرسه قتله ، ومن وقع أخذه ، ثم عادوا عنا .

وقدر الله سبحانه لنا بالسلامة باحترازهم ، ولو كنا في عددهم ونصرنا عليهم ، كما نصرنا علينا ، كنا أفنيناهم .

فأقامت بعسقلان لمحاربة الأفرنج أربعة أشهر هجمنا فيها مدينة يبنى ( ٢٤ ) وقتلنا فيها نحو مائة نفس وأخذنا منها أسارى .

وجاءني بعد هذه المدة كتاب الملك العادل ، رحمه الله ، يستدعيني . فسرت إلى مصر وبقي أخي عز الدولة أبو الحسن علي ، رحمه الله ، بعسقلان ، فخرج عسكرها إلى قتال غزة

- ٥٥٩٤ -

فاستشهد ، رحمه الله ، وكان من علماء المسلمين وقرسانهم  
وعبادهم .

وأما الفتنة التي قتل فيها الملك العادل بن السلار ، رحمه الله ،  
فإنه كان جهاز عسكري إلى بلبيس ، ومقدمه ابن امرأته ركن الدين  
عباس بن أبي الفتوح بن تميم بن بابيس ، لحفظ البلاد من  
الأفرنج ، ومعه ولده ناصر الدين نصر بن عباس ، رحمه الله ، فأقام  
مع أبيه في العسكر أياما ، ثم دخل إلى القاهرة بغير إذن من العادل  
ولا دستور ، فأذكر عليه ذلك وأمره بالرجوع إلى العسكر ، وهو يظن  
أنه دخل القاهرة للعب والفرجة وللضجر من المقام في العسكر .

وابن عباس قد رتب أمره مع الظافر ، ورتب معه قوما من  
غلمانه ، يهجم بهم على العادل في داره إذا ابرد في دار الحرم ونام ،  
فيقتله .

وقرر مع استاذ من استاذي دار العادل أن يعلمه إذا نام ،  
وصاحبة الدار امرأة العادل جدته ، فهو يدخل إليها بغير استئذان .

فلما نام العادل أعلمه ذلك الاستاذ بذومه ، فهجم عليه في البيت  
الذي هو نائم فيه ، ومعه ستة نفر من غلمانه ، فقتلوه ، رحمه الله ،  
وقطع رأسه وحمله إلى الظافر ، وذلك في يوم الخميس السادس من  
الحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وفي دار العادل من مماليكه  
وأصحاب الذوبة نحو من ألف رجل ، لكنهم في دار السلام ، وهو قتل  
في دار الحرم فخرجوا من الدار ووقع القتال بينهم وبين أصحاب  
الظافر وابن عباس إلى أن رفع رأس العادل على رمح ، فساعة ما  
رأوه انقسموا فرقتين : فرقة خرجت من باب القاهرة إلى عباس  
لخدمته وطاعته ، وفرقة رمت السلاح وجاءوا إلى بين يدي نصر بن  
عباس قبلوا الأرض ووقفوا في خدمته ( ٢٥ ) .

وأصبح والده عباس دخل القاهرة وجلس في دار الوزارة ، وخلع

- ٥٥٩٥ -

عليه الظافر وفوض إليه الأمر ، وابنه نصر مخالطه ومعاشره ، وأبوه عباس كاره لذلك مستوحش من ابنه ، لعلمه بمذهب القوم في ضربهم بعض الناس ببعض حتى يفذوهم ويحوزوا كلما لهم ، حتى يتفانوا ، فأحضراني ليلة وهما في خلوة يتعاتبان ، وعباس يردد عليه الكلام ، وابنه مطرق كأنه نمر يرد عليه كلمة بعد كلمة يشـتـاط منها عباس ويزيد في لومه وتأنيبه ، فقلت لعباس : « يا مولاي الأفضل ، كم تلوم مولاي ناصر الدين وتوبخه وهو ساكت ؟ اجعل الملامة لي ، فأنا معه في كل ما يعمل ، ما أتبرا من خطأه ولا صوابه ، أي شيء هو ذنبه ؟ ما أساء إلى أحد من أصحابك ، ولا فرط في شيء من مالك ، ولا قدح في دولتك ، خاطر بذفسه حتى نلت هذه المنزلة ، فما يستوجب منك اللائمة » ، فأمسك عنه والده ورعى لي ابنه ذلك .

وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على قتل أبيه ، ويصير في الوزارة مكانه ، وواصله بالعطايا الجزيلة ، فحضرته يوما وقد أرسل إليه عشرين صينية فضة فيها عشرون ألف دينار ، ثم أغفله أياما وحمل إليه من الكسوات من كل نوع مالا رأيت مثله مجتمعاً قبله ، وأغفله أياما . وبعث إليه خمسين صينية فضة فيها خمسون ألف دينار ، وأغفله أياما . وبعث إليه ثلاثين بغلا رحلا ( ٢٦ ) وأربعين جملا بعددها وغرائرها وحبالها .

وكان يتردد بينهما رجل يقال له مرتفع بن فحل ، وأنا مع ابن عباس لا يفسح لي في الغيبة عنه ليلا ولا نهارا ، أنام ورأسي على رأس مخدته .

فكنت عنده ليلة ، وهو في دار الشابورة ، وقد جاء مرتفع بن فحل ، فتحدث معه إلى ثلث الليل ، وأنا معتزل عنهما ثم انصرف . فاستدعاني وقال : « أين أنت ؟ » قلت : « عند الطاعة اقرأ القرآن ، فأني اليوم ما تفرغت اقرأ » ، فابتدأ يفاتحني بشيء مما كان فيه ليـبـصر ما عندي في ذلك ، ويريد بي أقوي عزمه على سوء ما قد حمله



عليه الظافر ، فقلت : « يامولاي ، لا يستزك الشيطان وتتخضع لمن يغرك ، فما قتل والدك مثل قتل العادل ، فلا تفعل شيئاً تلعن عليه إلى يوم القيامة » . فأطرق ، وقاطعني الحديث ، ونمنا .

فاطلع والده على الأمر ، فلاطفه ، واستماله ، وقرر معه قتل الظافر .

وكانا يخرجان في الليل متذكرين ، وهما اقرب ، وسنهما واحدة ، فدعاه إلى داره ، وكانت في سوق السيوفيين ، ورتب من أصحابه نفرًا في جانب الدار ، فلما استقر به المجلس خرجوا عليه فقتلوه ، وذلك ليلة الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، ورماه في جب في داره ، وكان معه خادم له أسود لا يفارقه يقال له سعيد الدولة ، فقتلوه .

وأصبح عباس جاء إلى القصر كالعادة للسلام يوم الخميس ، فجلس في خزانة في مجالس الوزارة كأنه ينتظر جلوس الظافر للسلام ، فلما جاوز وقت جلوسه استدعى زمام القصر ، وقال : « ما مولانا ما جلس للسلام ؟ » فتبدل الزمام في الجواب ، فصاح عليه وقال : « مالك لاتجاوبني ؟ » قال : « يامولاي مولانا ما ندري أين هو » ، قال : « مثل مولانا يضيع ؟ ارجع فاكشف الحال » . فمضى ورجع وقال : « ما وجدنا مولانا » . فقال عباس : « ما يبقى الناس بلا خليفة ، ادخل إلى الموالي أخوته يخرج منهم واحد نبايعه » ، فمضى وعاد وقال : « الموالي يقولون لك : نحن ما لنا في الأمر شيء ، والده عزله عنا وجعله في الظافر ، والأمر لولده بعده ، قال : اخرجوه حتى نبايعه » .

وعباس قد قتل الظافر وعزم على أن يقول : « أخوته قتلوه » ويقتلهم به ، فخرج ولد الظافر ، وهو صبي محمول على كتف استاذ من استاذي القصر ، فأخذه عباس ، فحمله ، وبكى الناس ، ثم

دخل به ، وهو حامله ، إلى مجلس أبيه ، وفيه أولاد الحافظ :  
الأمير يوسف ، والأمير جبريل ، وابن أخيهما الأمير أبو البقاء .

ونحن في الرواق جلوس ، وفي القصر أكثر من ألف رجل من  
المصريين ، فما راعنا إلا فوج قد خرج من المجلس إلى القاعة ،  
وصوت السيوف على إنسان ، فقلت لغلام لي أرمني : « أبصر من  
هذا المقتول » ، فمضى ثم عاد وقال : « ما هؤلاء مسلمون ! هذا  
مولاي أبو الأمانة ، يعني الأمير جبريل ، قد قتلوه ، وواحد قد شق  
بطنه يجذب مصارينه » ، ثم خرج عباس ، وقد أخذ رأس الأمير  
يوسف تحت إبطه ورأسه مكشوف ، وقد ضربه بسيف والدم يفور  
منه ، وأبو البقاء ابن أخيه مع نصر بن عباس ، فأخذاهما ، في  
خزانة في القصر وقتلوهما ، وفي القصر ألف سيف مجردة .

وكان ذلك اليوم من أشد الأيام التي مرت بي ، لما جرى فيه من  
البغي القبيح الذي يذكره الله تعالى وجميع الخلق .

وكان من طريف ما جرى ذلك اليوم أن عباسا لما أراد الدخول إلى  
المجلس وجد بابه قد قفل من داخل ، وكان يتولى فتح المجلس وغلقه  
استاذ شيخ يقال له أمين الملك ، فاحتالوا في الباب حتى فتحوه ،  
ودخلوا فوجدوا ذلك الاستاذ خلف الباب ، وهو ميت ، وفي يده  
المفتاح .

وأما الفتنة التي جرت بمصر ونصر فيها عباس على جند مصر ،  
فإنه لما فعل بأولاد الحافظ ، رحمه الله ، ما فعل جفت عليه قلوب  
الناس ، وأضمرُوا فيها العداوة والبغضاء ، وكاتب من في القصر من  
بنات الحافظ فارس المسلمين أبا الغارات طلائع بن رزيك ، رحمه  
الله ، يستصرخون به . وحشد ، وخرج من ولايته ( ٢٧ ) يريد  
القاهرة ، فأمر عباس فعمرت المراكب ، وحمل فيها الزاد والأسلح  
والخزانة ، وتقدم إلى العسكر بالركوب والمسير معه ، وذلك يوم



- ٥٥٩٨ -

الخميس العاشر من صفر سنة تسع وأربعين ، وأمر ابنه ناصر  
البن بالمقام في القاهرة ، وقال لي : « تقيم معه » .

فلما خرج من داره متوجها الى لقاء ابن رزيك خامر عليه الجند  
وغلقوا أبواب القاهرة ، ووقع القتال بيننا وبينهم في الشوارع  
والازقة : خيالتهم تقاتلنا في الطريق ، ورجالتهم يرموننا بالنشاب  
والحجارة من على السطوحات ، والنساء والصبيان يرموننا  
بالحجارة من الطاقات ، ودام بيننا وبينهم القتال من ضحى نهار  
إلى العصر ، فاستظهر عليهم عباس ، وفتحوا أبواب القاهرة  
وانهزموا ، ولحقهم عباس إلى أرض مصر فقتل منهم من قتل ،  
وعاد إلى داره وأمره ونهيه .

وأمر بإحراق البرقية ( ٢٨ ) لأنها مجمع دور الأجناد ، فتلطف  
الامر معه وقلت : « يامولاي إذا وقعت النار أحرقت ما تريد وما  
لا تريد ، وبعلت ( ٢٩ ) عن ان تطفئها » . وردت رأيه عن ذلك .

وأخذت الأمان للامير المؤمن بن أبي رمادة ، بعد أن أمر بتلافه ،  
واعذرت عنه ، فصفح عن جرمه .

### ( أسامة يعود إلى دمشق )

ثم سكنت تلك الفتنة ، وقد ارتاع منها عباس ، وتحقق عداوة الجند والأمراء ، وأنه لا مقام له بينهم ، وثبت في نفسه الخروج من مصر وقصد الشام الى الملك العادل نور الدين ، رحمه الله ، يستنجد به ، والرسول بين من في القصور وبين ابن رزيك مترددة ، وكان بيني وبينه ، رحمه الله ، مودة ومخالطة من حين دخلت ديار مصر ، فنفذ إلي رسولا يقول لي : « عباس ما يقدر على المقام بمصر ، بل هو يخرج منها إلى الشام ، وأنا أملك البلاد ، وأنت تعرف ما بيني وبينك ، فلا تخرج معه ، فهو بحاجة إليك في الشام يرغبك ويخرجك معه ، فالله الله لاتصحبه ، فأنت شريك في كل خير أناله » . فكأن الشياطين وسوست لعباس بذلك ، أو توهمه لما يعلمه بيني وبين ابن رزيك من المودة .

فأما الفتنة التي خرج فيها عباس من مصر وقتله الأفرنج ، فإنه لما توهم من أمري وأمر ابن رزيك ما توهمه ، أو بلغه ، أحضرني واستحلفني بالإيمان المغلظة التي لامخرج منها أنني أخرج معه وأصحبه ، ولم يقنعه ذلك حتى نفذ في الليل أستاذ داره الذي يدخل على حرمة أخذ أهلي ووالدي وأولادي إلى داره ، وقال لي : « أنا احمل كلفتهم عنك في الطريق ، واحملهم مع والدنا ناصر الدين » .

واهتم بأمر سفره بخيله وجماله وبغاله ، فكان له مائتا حصان وحجرة مجذوبة على أيدي الرجال ، كعادتهم بمصر ، ومائتا بغل رحل ، وأربع مائة جمل تحمل أثقاله .

وكان كثير اللهج بالنجوم ، وهو معول على المسير بالطالع يوم السبت الخامس عشر من ربيع الاول من السنة ، فحضرتة وقد دخل عليه غلام يقال له عنبر الكبير ، وهو متولي أموره كبيرها وصغيرها ، فقال له : « يامولاي ، أي شيء مرجو من مسيرنا إلى

الشام ؟ خذ خزانةك وأهلك وغلمانك ومن تبعك وسر بنا إلى الاسكندرية ، نحشد من هناك ونجمع ، ونرجع إلى ابن رزيك ومن معه ، فإن نصرنا عدت إلى دارك وإلى ملكك ، وإن عجزنا عنه عدنا إلى الاسكندرية إلى بلد نحتمي فيه ، ويمتنع على عدونا » ، فنهـره وخطأ رأيه ، وكان الصواب معه .

ثم أصبح يوم الجمعة استدعاني من بكرة ، فلما حضرت عنده قلت : « يامولاي ، إذا كنت عندك من الفجر إلى الليل فمتى أعمل شغل سفري ؟ » قال : « عندنا رسل من دمشق ، تسيرهم وتمضي تعمل شغلك » .

وكان قبل ذلك أحضر قوما من الأمراء واستدلفهم أنهم لا يخذونونه ولا يخامرون عليه ، واحضر جماعة من مقدمي العرب من درماء ، وزريق ، وجذام ، وسنابس ، وطلحة ، وجعفر ، ولواته ، واستدلفهم بالمصحف والطلاق ، على مثل ذلك ، فما راعنا ، وأنا عنده بكرة الجمعة ، إلا والناس قد لبسوا السلاح ، وزحفوا إلينا ورؤوسهم الأمراء الذين استدلفهم بالأمس ، فأمر بشد دوابه فشدت وأوقفت على باب داره ، فكانت بيننا وبين المصريين كالسد لا يصلون إلينا لا زحام الدواب دوننا .

فخرج إليهم غلامه عذير الكبير الذي كان اشار عليه بذلك الرأي ، وهو زمامهم ، صاح عليهم وشتمهم ، وقال : « روحوا إلى بيوتكم » ، فسيبوا الدواب ومضى الركابية والمكارية والجمالون ، وبقيت الدواب مهملة . ووقع فيها النهب .

فقال لي عباس : « اخرج أحضر الاتراك ، وهم عند باب النصر ، والكتاب يذفون فيهم » ، فلما جئتهم واستدعيتهم ركبوا كلهم ، وهم في ثمانمائة فارس ، وخرجوا من باب القاهرة منهزمين من القتال ، وركب المماليك ، وهم أكثر من الاتراك ، وخرجوا أيضا من باب النصر ، ورجعت إليه عرفته ، ثم اشتغلت باخراج أهلي

الذين كان حملهم إلى داره ، فأخرجتهم وأخرجت حرم عباس ، فلما خلت الطريق ونهبت تلك الدواب بأجمعها وصل المصريون إلينا فأخرجونا ، ونحن في قلة ، وهم في خلق كثير .

فلما خرجنا من باب النصر وصلوا إلى الأبواب أغلقوها وعادوا إلى دورنا نهبوها ، فأخذوا من قاعة داري أربعين غرارة جمالية مخاطة فيها من الفضة والذهب والكسوات شيء كثير ، وأخذوا من اصطبلي ستة وثلاثين حصانا وبغلة سروجية بسروجها وعدتها كاملة ، وخمسة وعشرين جملا ، وأخذوا من اقطاعي من كوم اشفين مائتي رأس بقر للتناثين وألف شية ( ٣٠ ) وأهراء غلة .

ولما سرنا عن باب النصر تجمعت قبائل العرب الذين استحلهم عباس ، وقاتلونا من يوم الجمعة ضحى نهار إلى يوم الخميس العشرين من ربيع الأول ، فكانوا يقاتلونا النهار كله ، فإذا جن الليل ونزلنا أغفلونا إلى أن ننام ، ثم يركبون في مائة فارس ويدفعون خيلهم في بعض جوانبنا ويرفعون أصواتهم بالصياح ، فما نفر من خيلنا وخرج إليهم أخذوه .

وانقطعت يوما عن أصحابي وتحتي حصان أبيض ، هو أردأ خيلي ، شدة الركابي ولا يدري ما يجري ، وما معي من السلاح غير سيفي ، فحمل علي العرب فلم أجد ما أدفعهم به ، ولا ينجيني منهم حصاني ، وقد وصلتني رماحهم ، قلت : « أثب عن الحصان واجذب سيفي ، أدفعهم » ، فجمعت نفسي لأثب ، ففتتعت الحصان ، فوقعت على حجارة وأرض خشنة ، فاندقعت قطعة من جلدة رأسي ودخت حتى ما بقيت أدري بما أنا فيه ، فوقف علي منهم قوم ، وأنا جالس مكشوف الرأس ، غائب الذهن ، وسيفي مرمي بجهازه ، فضربني واحد منهم ضربتين بالسيف وقال : « هات الوزن » وأنا لا أدري ما يقول ، ثم أخذوا حصاني وسيفي .

ورآني الاتراك فعادوا إلي ، ونفذ لي ناصر الدين ابن عباس



حصانا وسيفا وسرت وأنا لا أقدر على عصابة أشد بها جراحي ،  
فسبحان من لا يزول ملكه .

وسرنا وما مع أحد منا كف زاد ، وإذا اردت ماء ترجلت شربت  
بيدي ، وقبل أن أخرج بليلة جاست في بعض دهاليز داري على كرسي  
وعرضوا علي ستة عشر حمل روايا ، وما شاء الله سبحانه من  
القرب والسطائح .

وعجزت عن حمل أهلي ، فرددتهم من بلبس إلى عند الملك  
الصالح أبي الغارات طلائع بن رزيك ، رحمه الله ، فأحسن إليهم  
وأنزلهم في دار ، وأجرى لهم ما يحتاجونه ، ولما أراد العرب النين  
يقاتلونا الرجوع عنا جاؤونا يطلبون حسبنا ( ٢١ ) إذا عنا .

وسرنا إلى يوم الأحد ثالث وعشرين ربيع الأول ، فصحبنا  
الافرنج في جمعهم على المويلح ( ٢٢ ) فقتلوا عباسا وابنه حسام الملك  
واسروا ابنه ناصر الدين ، وأخذوا خزانته وحرمه ، وقتلوا من  
ظفروا به . وأخذوا أخي نجم الدين أبا عبد الله محمدا ، رحمه  
الله ، أسيرا . وعادوا عنا ، ونحن قد تحصنا عنهم في الجبال .

فسرنا في أشد من الموت في بلاد الفرنج بغير زاد للرجال ولا علف  
للخيل إلى أن وصلنا جبال بني فheid ، لعنهم الله ، في وادي موسى .

وطلعنا في طرقات ضيقة وعرة إلى أرض فسيحة ، ورجال  
وشياطين رجيمة من ظفروا به منا منفرد قتلوه .

وتلك الناحية لا تخلو من بعض بني ربيعة الأمراء الطائيين ،  
فسألت : « من ها هنا من الأمراء بني ربيعة ؟ » قالوا : « منصور  
ابن دغفل » ، وهو صديقي ، فدفعت لواحد دينارين وقلت : « امض  
إلى منصور قل له صديقك ابن منقذ يسلم عليك ويقول لك صل إليه  
بكرة » ، وبتنا في مبيت سوء من خوفهم . فلما اضاء الصبح أخذوا

عدتهم ووقفوا على العين وقالوا: « ما ندعكم تشربون ماءنا ونهلك نحن بسالعطش » وتلك العين تكفي ربيعاً ومضر ، وكم في أرضهم مثلها ، وإنما قصدهم أن يذشوا الشر بيننا وبينهم ويأخذونا . فنحن فيما نحن فيه ومنصور بن دغفل وصل ، فصاح عليهم وسبهم فتفرقوا . وقال : « اركب » . فركبنا ونزلنا في طريق أضيق من الطريق التي طلعت فيها وأوعر ، فنزلنا إلى الوطاسالين ، وما كدنا نسلم ، فجمعت للامير منصور ألف دينار مصرية ودفعتها إليه ، وعاد .

وسرنا حتى وصلنا بلد دمشق بمن سلم من الأفرنج وبني فهد ، يوم الجمعة خامس ربيع الآخر من السنة ، وكانت السلامة من ذلك الطريق من دلائل قدرة الله عز وجل ، وحسن دفاعه .

ومن عجيب ما جرى لي في تلك الواقعة أن الظافر كان أرسل إلى ابن عباس رهوارا ( ٣٣ ) صغيرا مليحا أفرنجيا ، وكنت قد خرجت إلى قرية لي ، وابني أبو الفوارس مرهف عند ابن عباس ، فقال : « كنا نريد لهذا الرهوار سرجا مليحا من السروج الغزية » ، فقال له ابني : « قد وجدته ، يامولاي ، وهو فوق الغرض » . قال : « أين هو ؟ » قال : « في دار خادمك والذي ، له سرج غزي مليح » ، قال : « أنفذ أحضره » ، فأرسل رسولا إلى داري أخذ السرج ، فأعجبه ، وشد به على الرهوار ، وكان السرج طلع معي من الشام على بعض الجنائب وهو منبت مجرى بسواد في غاية الحسن وزنه مائة مثقال وثلاثون مثقالا .

ووصلت أنا من الاقطاع ، فقال لي ناصر الدين : « ادلنا عليك واخذنا هذا السرج من دارك » ، فقلت : « يامولاي ، ما أسعدني بخدمتك ! » فلما خرج علينا الأفرنج بالمويلح كان معي من مماليكي خمسة رجال على الجمال أخذت العرب خيلهم ، فلما وقع الأفرنج بقيت الخيل سائبة ، فنزل الغلمان عن الجمال واعترضوا الخيل



وأخذوا منها ماركبوه ، فكان على بعض الخيل التي أخذوها ذلك السرج الذهب الذي أخذه ابن عباس .

وكان حسام الملك ابن عم عباس ، واخو عباس ابن العادل قد سلما فيمن سلم منا ، وقد سمع حسام الملك خبر السرج فقال وأنا أسمع : « كل ما كان لهذا المسكين - يعني ابن عباس - نهب ، فمنه ما نهبه الأفرنج ، ومنه ما نهبه أصحابه » ، قلت : « لعلك تعني السرج الذهب » ؟ قال : « نعم » .

فأمرت باحضاره وقلت : « اقرأ ما عليه ، اسم عباس عليه واسم ابنه أو اسمي ؟ » ، ومن كان في مصر يقدر يركب بسرج ذهب في أيام الحافظ غيري ؟ » ، وكان اسمي مكتوبا على دائر السرج بالسواد ، ووسطه منبت ، فلما قرأ ما عليه اعتذر وسكت .

ولولا نفاذ المشيئة في عباس وابنه وعواقب البغي وكفر النعمة كان اتعظ بما جرى قبله للأفضل رضوان بن الولخي ، رحمه الله ، كان وزيرا فقام الجند عليه بأمر الحافظ كما قاموا على عباس ، فخرج من مصر يريد الشام ، ونهبت داره وحرمه ، حتى أن رجلا يعرف بالقائد مقبل ، رأى مع السودان جارية فاشتراها منهم وبعثها إلى داره ، وكانت له امرأة صالحة ، فاطلعت الجارية إلى حجرة في علو الدار فسمعتها تقول : « لعل الله يظفرنا بمن بغى علينا وكفر نعمتنا » ، فسألتها : « من أنت ؟ » فقالت : « أنا قطر الندى بنت رضوان » ، فنفذت المرأة إلى زوجها القائد مقبل أحضرته وهو على باب القصر في خدمته ، فعرفته حال البنت ، فكتب إلى الحافظ. مطالعة ، فعرفه بذلك ، فنفذ من خدام القصر من أخذها من دار مقبل ورفعها إلى القصر .

ثم إن رضوان وصل إلى صلخد ، وفيها أمين الدولة كمشتكين الأتابكي ( ٢٤ ) ، رحمه الله ، فأكرمه وأنزله وخدمه ، وملك الأمراء اتابك زنكي بن أقسنقر ، رحمه الله ، على بعلبك يحاصرها ،

فراسل رضوان واستقر أنه يمضي إليه ، وكان رجلا كاملا كريما شجاعا كاتباً عارفا ، والجند إليه ميل عظيم لكرمه ، فقال لي الأمير معين الدين ، رضي الله عنه : « هذا الرجل إن انضاف إلى أتاك دخل علينا منه ضرر كثير » ، قلت : « فأى شيء ترى ؟ » قال : « تسير إليه لعلك ترد رأيه عن قصد أتاك ، ويكون وصوله إلى دمشق ، وأنت ترى فيما تفعله في هذا رأيك » ، فسرت إليه إلى صلخد واجتمعت به وبأخيه الأوحـد وتحدثت معهما ، فقال لي الأفضل رضوان : « فرط الأمر مني ورهنت قلبي عند هذا السلطان بوصولي إليه ، ولزمني الوفاء بقولي » ، قلت : « أقدمك الله على خير ! وأنا أعود إلى صاحبي ، فإنه ما يستغني عني ، بعد أن أخرج إليك بما في نفسي » ، قال : « قل » ، قلت : « إذا وصلت إلى أتاك ، معه من العسكر ما يذفـذ نصفه معك إلى مصر ويبقى نصفه يحاصرنا به ؟ » قال : « لا » . قلت : « فإذا هـونزل على دمشق وحاصرها وأخذها بعد المدة الطويلة يقدر ، وقد ضعف عسكره وفرغت ذفقاتهم وطالت سفرتهم ، يسير معك إلى مصر قبل أن يجدد بركه ويقوي عسكره ؟ » قال : « لا » . قلت : « ذلك الوقت يقول لك : نسير إلى حلب نجدد آلة سفرنا » ، فإذا وصلتـم إلى حلب قال : نمضي إلى الفرات نجمع التركمان ، فإذا نزلتم على الفرات قال : « إن لم نعد الفرات ما يجتمع لنا التركمان » ، فإذا عديتم تشوف بك وافتخر على سلاطين الشرق وقال : « هذا عزيز مصر في خدمتي » ، وتتمنى ذلك الوقت أن ترى حجرا من حجارة الشام فلا تقدر عليها ، وتذكر حينئذ كلامي ، وتقول « نصحني ما قبلت » ، فأطرق مفكرا لا يدري ما يقول ، ثم التفت إلي وقال : « ماذا أعمل ، وأنت تريد ترجع ؟ » قلت : « إن كان في مقامي مصلحة أقمت » ؟ قال : « نعم » ، فاقمت .

وتكرر الحديث بيني وبينه حتى استقر وصوله إلى دمشق ، وأن يكون له ثلاثون ألف دينار نصفها نقد ونصفها إقطاع ، ويكون له دار العقـيقي ( ٢٥ ) ويخرج لأصحابه ديوان ، وكتب لي خطه بذلك ، وكان كاتباً حسنا ، وقال : « إن شئت سرت معك » ؟ قلت : « لا ، أنا

اسير ومعي الحمام من هاهنا ، فإذا وصلت واخليت الدار ورتبت الأمر ، طيرت إليك الحمام وسرت أنا في الوقت ألك في نصف الطريق ، وأدخل بين يديك » ، فتقرر ذلك وودعته وسرت .

وكان أمين الدولة يشتهي مصيره الى مصر لما قد وعده به وأطمعه فيه ، فجمع له من قدر عليه وسيره بعد مفارقتي له ، فلما دخل حدود مصر غدر به النين كاذوا معه من الأتراك ونهبوا ثقله ( ٣٦ ) ، والتجأ هو إلى حي من أحياء العرب ، وراسل الحافظ وطلب منه الأمان ، وعاد إلى مصر ، فساعة وصوله إلى مصر أمر به الحافظ فحبس هو وولده .

واتفق طلوعي إلى مصر وهو في الحبس في دار في جانب القصر ، فذقب بمسمار حديد أربعة عشر ذراعا وخرج ليلة الخميس ، وله من الأمراء نسيب قد عرف أمره فهو عند القصر ينتظره ومصطنع له من لواته ، ومشوا إلى النيل عدوا إلى الجيزة ، واختبأت القاهرة لهروبه ، وأصبح في منظره في الجيزة والناس يجتمعون إليه ، وعسكر مصر قد تأهب لقتاله ، ثم أصبح بكرة الجمعة عدى إلى القاهرة والعسكر المصري مع قيماز صاحب الباب مدر عين اللقاء ، فلما وصلهم هزمهم ودخل القاهرة .

وكنت قد ركبت أنا وأصحابي إلى باب القصر ، قبل دخوله البلد ، فوجدت أبواب القصر مغلقة وما عندها أحد ، فرجعت نزلت في داري ، ونزل رضوان في الجامع الأقمر ، واجتمع إليه الأمراء وحملوا إليه الطعام والنفقة ، وقد جمع الحافظ قوما من السودان في القصر شربوا وسكروا ، وفتح لهم باب القصر فخرجوا يريدون رضوانا . فلما وقع الصباح ركب الأمراء كلهم من عند رضوان وتفرقوا وخرج هو من الجامع وجد حصانه قد أخذه الركابي وراح ، فراه رجل من صبيان الخاص واقفا على باب الجامع فقال : « يامولاي ، ما تركب حصاني ؟ » قال : « بلى » ، فجاء إليه يركض وسيفه في يده ، فأوماً كأنه يميل للنزول وضربه بالسيف ، فوقع ،

ووصله السودان قتلوه ، وتقاسم أهل مصر لحمه يأكلونه ليكونوا شجعانا ، فقد كان فيه معتبر ، وواعظ لولا نفاذ المشيئة .

وأصاب ذلك اليوم رجلا من أصحابنا الشاميين جراح كثيرة ، فجاءني أخوه وقال : « أخي تالف ، قد وقع فيه كذا وكذا جرح سيوف وغيرها ، وهو مغمور مايفيق » . قلت : « أرجع أفصده » ، قال : « قد خرج منه عشرون رطل دم » ، قلت : « أرجع أفصده فاننا اخبر منك بالجراح ، وليس له دواء غير الفصاد » ، فمضى غاب عني ساعتين ثم عاد وهو مستبشر ، قال : « أنا فصدته ، وهو أفاق وجلس وأكل وشرب وذهب عنه البؤس » ، قلت : « الحمد لله ! ولولا أنني جربت هذا في نفسي عدة مرار ما وصفته لك » .

ثم اتصلت بخدمة الملك العادل نور الدين ، رحمه الله ، وكاتب الملك الصالح في تسيير أهلي وأولادي الذين تخلفوا بمصر ، وكان محدسنا إليهم ، فرد الرسول واعتذر بأنه يخاف عليهم من الأفرنج ، وكتب إلي يقول : « ترجع إلى مصر وأنت تعرف ما بيني وبينك ، وإن كنت مستوحشا من أهل القصر فتصل إلى مكة وأنفذ لك كتابا بتسليم مدينة أسوان إليك ، وأمدك بما تتقوى به على محاربة الحبيشة ، فأسوان ثغر من ثغور المسلمين ، وأسير إليك أهلك وأولادك » .

ففاوضت الملك العادل واستطلعت أمره فقال : « يا فلان ، ما صدقت متى تخلص من مصر وفتنها ، تعود إليها ! العمر أقصر من ذلك . أنا أنفذ أخذ لأهلك الأمان من ملك الأفرنج وأسير من يحضرهم » . فأنفذ رحمه الله ، أخذ أمان الملك وصليبه في البر والبحر .

وسيرت الأمان مع غلام لي ، وكتاب الملك العادل وكتابي إلى الملك الصالح ، فسيرهم في عشاري من الخاص إلى دمياط ، وحمل لهم كل ما يحتاجونه من الذفقات والزاد ، ووصى بهم ، وأقلعوا من



دمياط في بطسه من بطس الأفرنج ، فلما دنوا من عكا والملك ،  
لأرحمه الله ، نفذ قوما في مركب صغير كسروا البطسة بالفؤوس ،  
وأصحابي يرونهم ، وركب ووقف على الساحل نهب كل ما فيه .

فخرج إليه غلام لي سباحة ، والأمان معه وقال له : « يامولاي  
الملك ، ما هذا أمانك ؟ » قال : « بلى ، ولكن هذا رسم المسلمين ،  
إذا انكسر لهم مركب على بلد نهبه أهل ذلك البلد » . قال :  
« فتسبينا ؟ » قال : « لا » ، وأنزلهم ، لعنة الله ، في دار وفدتش  
النساء حتى أخذ كل ما معهم ، وقد كان في المركب حلي أودعه  
النساء وكسوات وجوهر وسيوف وسلاح وذهب وفضة بنحو من  
ثلاثين ألف دينار ، فآخذ الجميع ونفذ لهم خمس مائة دينار وقال  
« توصلوا بهذه إلى بلادكم » - وكانوا رجالا ونساء في خمسين  
نسمة .

وكنت إذ ذاك مع الملك العادل في بلاد الملك مسعود ( ٢٧ ) رعبان  
وكيسون ، فهون علي سلامة أولادي وأولاد أخي ، وأحزننا نهاب  
ما نهب من المال ، إلا ما ذهب لي من الكتب ، فإنها كانت أربعة  
آلاف ( ٢٨ ) مجلد من الكتب الفاخرة . فإن نهابها حازاة في قلبي ما  
عشت .

فهذه نكبات تزعزع الجبال وتفني الأموال ، والله سبحانه يعرض  
برحمته ويختم بلطفه ومغفرته ، وتلك وقعات كبار شاهدها مضافة  
إلى نكبات نكبتها سلمت فيها النفس لتوقيت الآجال ، وأجذفت  
بهلاك المال .

## حروب مع الكفار والمسلمين

وقد كان بين هذه الوقعات فترات شهدت فيها من الحروب مع  
الكفار والمسلمين مالا أحصياها ، وسأورد من عجائب ما شاهده  
ومارسته في الحروب ما يحضرني ذكره ، وما النسيان بمستذكر لن

- ٥٦٩ -

طال عليه ممر الاعوام ، وهو وراثة بني آدم من أبيهم عليه الصلاة والسلام .

فمن ذلك ما شاهدته من أنفة الفرسان وحملهم نفوسهم على الأخطار ، أننا كنا التقينا نحن وشهاب الدين محمود بن قراجا ، صاحب حماة ذلك الوقت ، وكانت الحرب بيننا وبينه ما تغب ، والمواكب واقفة والطراد بين المتسعة فجاءني رجل من أجنادنا وفرساننا المعدوبين يقال له جمعة من بني زمير ، وهو يبكي ، فقلت له : « ما لك يا أبا محمود ؟ هذا وقت بكاء ؟ » قال « طعنني سرهذك ابن أبي منصور » ، قلت : « وإذا طعذك سرهذك أي شيء يكون ؟ » قال : « ما يكون شيء إلا يطعنني مثل سرهذك ! » والله إن الموت أسهل علي من أن يطعنني ، لكنه استغفلني واغتالني ، فجعلت أسكنه وأهون الأمر عليه ، فرد رأس فرسه راجعا فقلت : « إلى أين يا أبا محمود ؟ » قال : « إلى سرهذك ، والله لأطعننه أو لأموتنه » .

فغاب ساعة واشتغلت أنا بمن مقابلي ، ثم عاد وهو يضحك فقلت : « ما عملت ؟ » فقال : « طعنته والله ، ولو لم أطعنه لفاظت روحي » . فحمل عليه في جمع أصحابه فطعنه وعاد ( ٢٩ ) ، فكان هذا الشعر عن سرهذك وجمعة بقوله :

له درك ما تظن بثائر

حران ليس عن التراث براقد

أيقظته ورقدت عنه ولم ينم

حنقا عليك وكيف نوم الجاهد

إن تمكن الايام منك وعلها

يوما يكل لك بالصواع الزائد

وقد كان سرهذك هذا من الفرسان المذكورين مقدما في الاكراد ،



الا انه كان شابا وجمعة رجل كهل له ميزة بالسن والتقدمية في الشجاعة .

وذكرت بفعله سرهذك ما فعله مالك بن الحارث الأشتر ، رحمه الله ، بأبي مسيكة الايادي .

وذلك أنه لما ارتدت العرب في أيام أبي بكر الصديق ، رضوان الله عليه ، وعزم الله سبحانه له على قتالهم ، جهز العساكر إلى قبائل العرب المرتدين ، فكان أبو مسيكة الايادي مع بني حنيفة وكانوا اشد العرب شوكا ، وكان مالك بين الصفيين وصاح : « ياأبا مسيكة ! » فبرز له ، فقال : « ويحك ! ياأبا مسيكة ، بعد الاسلام وقراءة القرآن رجعت إلى الكفر ؟ » فقال : « إياك عني يامالك ! إنهم يحرمون الخمر ، ولا صبر عنها » ، قال : « فهل لك في المبارزة ؟ » قال : « نعم » . فالتقيا بالرماح والتقيا بالسيوف .

فضربه أبو مسيكة فشق رأسه وشتر عينه وبذلك الضربة سمي الاشتار .

فرجع وهو معتنق رقبة فرسه إلى رحله ، واجتمع له قوم من أهله وأصدقائه يبكون ، فقال لأحدهم : « ادخل يدك في فمي » ، فادخل أصبعه في فمه ، فعضها مالك ، فالتوى الرجل من الوجع ، فقال مالك : « لا بأس على صاحبكم ، يقال : إذا سلمت الاضراس سلم الرأس ، احشوها - يعني الضربة - سويقا وشدوها بعمامة » . فلما حشوها وشدوها قال : « هاتوا فرسي » ، قالوا : « إلى أين ؟ » قال : « إلى أبي مسيكة » .

فبرز بين الصفيين وصاح : « ياأبا مسيكة ! » فخرج إليه مثل السهم ، فضربه مالك بالسيف على كتفه فشققها إلى سرجه فقتله ، ورجع مالك إلى رحله فبقي أربعين يوما لا يستطيع الحراك ، ثم أبل وعوفي من جرحه ذلك ( ٤٠ )

ومن ذلك ما شاهدته من سلامة المطعون ، وقد ظن أنه قد هلك ،  
أننا التقينا بواد خيل شهاب الدين محمود بن قراجا وقد جاء إلى  
أرضنا وكمن لنا كميناً ، فلما تواقفنا نحن وهو انتشرت خيلنا ،  
فجاءني فارس من جندنا يقال له علي بن سلام زميري ، وقال :  
« أصحابنا قد انتشروا ، إن حملوا عليهم أهلكوهم » ، قلت :  
« أحبس عني أخوتي وبني عمي حتى أردهم » ، فقال : « يا أمراء ،  
دعوا هذا يرد الناس ولا تتبعوه ، وإلا حملوا عليهم قلعوهم » ،  
قالوا : « يمضي » ، فخرجت أنا قل ( ٤١ ) حصاني حتى رددتهم ،  
وكانوا ممسكين عنهم ليستجروهم ويتمكذوا منهم .

فلما رأوني قد رددتهم حملوا علينا ، وخرج كمينهم وأنا على  
فسحة من أصحابي ، فرجعت مباريهم أريد أحمي أعقاب  
أصحابي ، فوجدت ابن عمي ليث الدولة يحيى ، رحمه الله ، قد  
حذب ( ٤٢ ) من وراء أصحابي من قبلي الطريق وأنا في شماليه ،  
فجئناهم ، فتسرع فارس من خيلهم يقال له فارس بن زمام ، رجل  
عربي فارس مشهور ، وجازنا يريد الطعن في أصحابنا ، فسبقني  
إليه ابن عمي ، فطعنه ، فوقع هو وحصانه ووقع الرمح فقعة  
سمعتها أنا وأولئك .

وكان الوالد ، رحمه الله ، أرسل رسولا إلى شهاب الدين ،  
فأخذه معه لما جاء لقتالنا ، فلما طعن فارس بن زمام ولم يبلغ منا ما  
أراد نفذ الرسول من مكانه بجواب ما سأل فيه ، ورجع إلى حماة ،  
فسألت الرسول : « هل مات فارس بن زمام ؟ » قال : « لا ، والله ،  
ولا فيه جرح » . قال : « ليث الدولة طعنه ، وأنا أراه ، فرماه ورمى  
حصانه ، وسمعت قعقة كسر الرمح ، لما غشيه ليث الدولة من  
يساره مال على جانبه الأيمن وفي يده قنطارية ( ٤٣ ) . فوقع حصانه  
على قنطاريته وهي على وهدة ، فانكسرت ، وتذب ليث الدولة  
برمحه ، فوقع من يده ، والذي سمعت قعقة قنطارية فارس بن  
زمام ، ورمح ليث الدولة أحضروه بين يدي شهاب الدين ، وأنا  
حاضر ، وهو صحيح ما فيه كسر ، ولا في فارس جرح » . فعجبت

- ٥٦١٢ -

من سلامته ، وكانت تلك الطعنة طعنة فيصل كما قال عنقرة :

الخيـل تعلم والفـوارس أنـني  
فرقت جمعهم بطعنة فيصل

ورجع جمعهم وكمينهم ما نالوا منه ما أرادوه :  
والبيت المقدم من أبيات لعنقرة بن شداد يقول فيها :

إنـي أمرؤ من خير عبس منصبا  
شطري وأحمي سائري بالمنصل  
واذا الكتيبة أحجمت فتلاحظت  
ألفيت خيرا من معم مخـول  
إن المنية لو تمثل مثلـت  
مثلي إذا نزلوا بضـك المنزل  
والخيـل تعلم والفـوارس أنـني  
فرقت جمعهم بطعنة فيصـل  
ودعوا نزال فكنت أول نازل  
وعلام أركبه إذا لم أنزل ( ٤٤ )

ومثل ذلك ما جرى لي على أقامية . فإن نجم الدين بن إيلغازي  
ابن أرتق ، رحمه الله ، كسر الأفرنج على البلاط ، وذلك يوم  
الجمعة خامس جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمس مائة ( ٤٥ )  
وأفناهم وقتل صاحب أنطاكية روجار وجميع فرسانه ، فسار إليه  
عمي عز الدين أبو العساكر سلطان ، رحمه الله ، وتخلف والذي ،  
رحمه الله ، في حصن شيزر ، وقد وصاه أن يسيرني إلى أقامية بمن  
معي بشيزر من الناس ويستدفر الناس والعرب لنهب زرع أقامية ،  
وكان قد هدف من العرب إلينا خلق كثير .

فلما سار عمي نادى المنادي بعد يوميات من مسيره ، وسرت في  
ذفر قليل ، ما يلحق عشرين فارسا ، ونحن على يقين أن أقامية ما

- ٥٦١٣ -

فيها خيالة ، ومعى خلق عظيم من النهاية والباية ، فلما صرنا على وادي أبو الميمون ، والنهاية والعرب متفرقون في الزرع ، خرج علينا من الأفرنج جمع كثير ، وكان قد وصلها تلك الليلة ستون فارسا وستون راجلا .

فكشفونا عن الوادي ، فاندفعنا بين أيديهم إلى أن وصلنا الناس الذين في الزرع ينتهبونه ، فضجوا ضجة عظيمة ، فهان علي الموت لهلاك ذلك العالم معي ، فرجعت على فارس في أولهم قد ألقى عنه درعه وتخفف ليجوزنا من بين أيدينا ، فطعنته في صدره فطار عن سرجه ميتا .

ثم استقبلت خيلهم المتتابعة فولوا ، وأنا غر من القتال ما حضرت قتالا قبل ذلك اليوم ، وتحتي فرس مثل الطير ، ألحق أعقابهم لأطعن فيهم ثم اجتن عنهم .

وفي آخرهم فارس على حصان أدهم مثل الجمل بالدرع ولأمة الحرب أنا خائف منه لا يكون جازبا لي ليعود علي ، حتى رأيت ضربه حصانه بمهمازه فلوح بذنبه ، فعلمت أنه قد أعيا ، فحملت عليه طعنته فنفذ الرمح من قدامه نحو من ذراع ، وخرجت من السرج لخفة جسمي وقوة الطعنة وسرعة الفرس ، ثم تراجعت وجذبت رمحي وأنا اظن أنني قتلت . فجمعت أصحابي وهم سالون .

وكان معي مملوك صغير يجرفرسا لي دهماء مجذوبة ، وتحتيه بغلة مليحة سروجية وعليها مركوب ثقيل فضة ، فنزل عن البغلة وسببها وركب الحجرة فطارت به الى شيزر ، فلما عدت إلى أصحابي وقد مسكوا البغلة ، سألت عن الغلام فقالوا : « راح » ، فعلمت أنه يصل شيزر ويشغل قلب الوالد ، رحمه الله ، فدعوت رجلا من الجند وقلت : « تسرع إلى شيزر تعرف والدي بما جرى » .



وكان الغلام لما وصل أحضره الوالد بين يديه وقال : « أي شيء لقيتم ؟ » قال : « يامولاي ، خرج علينا الأفرنج في ألف ، وما أظن أحدا يسلم إلا مولاي » ، قال : « كيف يسلم مولاك دون الناس ؟ » قال : « رأيت قد لبس وركب الخضراء ، وفيما هو يحدثه وذلك الفارس قد وصله وأخبره باليقين ، ووصلت بعده ، فاستخبرني ، رحمه الله ، فقلت : « يامولاي ، كان أول قتال حضرته ، فلما رأيت الأفرنج قد وصلوا إلى الناس هان علي الموت ، فرجعت إلى الأفرنج لأقتل أو أحمي ذاك العالم » ، فقال رحمه الله : متمثلاً :

يفر جبان القوم عن أم رأسه  
ويحمي شجاع القوم من لا يلزمه

ووصل عمي ، رحمه الله ، من عند نجم الدين إيلغازي ، رحمه الله بعد أيام ، فأتاني رسوله يستدعيني في وقت ما جرت عادته فيه ، فجنّته فاذا عنده رجل من الأفرنج ، فقال : « هذا الفارس قد جاء من افامية يريد أن يبصر الفارس الذي طعن فليب الفارس ، فإن الأفرنج تعجبوا من تلك الطعنة وانها خرقت الزردية من طائفتين وسلم الفارس » ، قلت : « كيف سلم ؟ » قال ذلك الفارس الأفرنجي : « جاءت الطعنة في جلدة خاصرته » ، قلت : « نعم الأجل حصن حصين » ، وما ظننته يسلم من تلك الطعنة ، قلت : يجب على من وصل إلى الطعن أن يشد يده وذراعه على الرمح إلى جانبه ويدع الفرس يعمل ما يعمل في الطعنة ، فإنه متى حرك يده بالرمح أو مدها به لم يكن لطعنته تأثير ولا نكاية .

وشاهدت فارساً من رجالنا يقال له عدي بن تليل القشيري ، وكان من شجعاننا ، وقد التقينا نحن والأفرنج وهو معري ما عليه غير ثوبين ، فطعنه فارس من الأفرنج في صدره فقطع هذه العصفورة التي في الصدر وخرج الرمح من جانبه ، فرجع في صدره وما نظنه يصل منزله حياً ، فقدر الله سبحانه أن سلم وبراً جرحه ،

لكنه لبث سنة اذا نام على ظهره لا يقدر يجلس إن لم يجلسه انسان  
بأكتافه ، ثم زال عنه ما كان يشكوه وعاد إلى تصرفه وركوبه كما  
كان .

قلت فسبحان من نفذت مشيئته في خلقه يحيي ويميت ، وهو حي  
لا يموت بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير (٤٦) .

كان عندنا رجل من المصطنعة ، يقال له عتاب ، أجسم ما يكون  
من الرجال وأطولهم ، دخل بيته فاعتمد على يده عند جلوسه على  
ثوب بين يديه ، كانت فيه ابرة ، دخلت في راحته فمات منها ، وبالله  
لقد كان يئن في المدينة فيسمع أنينه من الحصن لعظم خلقه وجهارة  
صوته ، يموت من ابرة ، وهذا القشيري يدخل في صدره قنطارية  
تخرج من جذبه لا يصيبه شيء .

نزل علينا صاحب أنطاكية ، لعنه الله ، بفارسه وراجله وخيامه  
في بعض السنين ، فركبنا ولقيناهم نظن أنهم يقاتلونا ، فجاءوا  
نزلوا منزلا كانوا ينزلونه ، وهجعوا في خيامهم ، فرجعنا نحن إلى  
آخر النهار ، ثم ركبنا ، ونحن نظن أنهم يقاتلونا ، فما ركبوا من  
خيامهم .

وكان لابن عمي ليث الدولة يحيى غلة قد نجزت وهي بالقرب من  
الافرنج ، فجمع دواب يريد يمضي إلى الغلة يحملها ، فسرنا معه في  
عشرين فارسا معدين ، وقفنا بينه وبين الافرنج ، إلى أن حمل الغلة  
ومضى ، فعدلت أنا ورجل من مولينا يقال له حسام الدولة مسافر ،  
رحمه الله ، إلى كرم رأينا فيه شخوصا ، وهم على شط النهر ،  
فلما وصلنا الشخوص التي رأيناها ، والشمس على مغيبها ، فاذا  
شيخ عليه معرقة امرأة ومعه آخر ، فقال له حسام الدولة وكان ،  
رحمه الله ، رجلا جيدا كثير المزاح : « يا شيخ ، أي شيء تعمل  
ها هنا ؟ » قال : « انتظر الظلام واسترزق الله تعالى من خيل هؤلاء  
الكفار » ، قال : « يا شيخ ، بأسنانك تقطع عن خيلهم ؟ » قال :



« لا ، بهذه السكين » . وجذب سكيننا من وسطه مشدودة بخيط مثل شعلة النار ، وهو بغير سراويل ، فتركناه وانصرفنا .

وأصبحت من بكرة ركبت انتظر ما يكون من الافرنج ، وإذا الشيخ جالس في طريقي على حجر والدم على ساقه وقد جمد ، قلت : « يهذك السلامة ، أي شيء عملت ؟ » قال : « أخذت منهم حصانا وترسا ورمحا ، ولحقني راجل ، وأنا خارج من عسكريهم ، طعنني نفذ القنطارية في فخذي ، وسبقت بالحصان والتارس والرمح » - وهو مستقل بالطعنة التي فيه كأنها في سواه ، وهذا الرجل يقال له الزمر كل من شياطين اللصوص حدثني عنه الامير معين الدين ، رحمه الله ، قال : « أغرت زمان مقامي بحمص على شيزر ، وعدت آخر النهار نزلت على ضيعة من بلد حماه ، وأنا عدو لصاحب حماه ، قال : فجاءني قوم معهم شيخ قد أنكره فقبضوه وجأؤوني به ، فقلت : يا شيخ ايش انت ؟ قال : « يامولاي ، أنا رجل صعلوك شيخ زمن ، وأخرج يده وهي زمرة ، قد أخذ لي العسكر عنزين جئت خلفهم لعل ان يتصدقوا علي بهما ، فقلت لقوم من الجندارية : « احفظوه إلى غد ، فاجلسوه بينهم وجلسوا على أكمام فروة عليه . فاستغفلهم في الليل وخرج من الفروة وتركها تحتهم وطار ، فعدوا في اثره ، سبقهم ومضى ، قال : وكنت قد نفذت بعض أصحابي في شغل فلما عادوا وفيهم جندار يقال له شومان قد كان يسكن بشيزر ، فحدثته حديث الشيخ ، قال : « واحسرتي عليه ! لو كنت لحقته كنت شربت دمه ، هذا الزمر كل » ، قلت : « فأني شيء بينك وبينه ؟ » قال : نزل عسكري الافرنج على شيزر فخرجت أدور به لعل أسرق حصانا منهم ، فلما أظلم الظلام مشيت الى طوالة خيل بين يدي وإذا هذا جالس بين يدي ، فقال لي : إلى أين ؟ قلت : أخذ حصانا من هذه الطوالة ، قال : وأنا من العشاء انظرها حتى تأخذ أنت الحصان ! قلت : لا تهذ ، قال : لا تغتر ، والله ، ما أدعك تأخذ شيئاً ، فما التفت إلى قوله ويممت إلى الطوالة ، فقام وصاح بأعلى صوته : وافقري ، واخيبة تعبني وسهري ، وصيح حتى خرج علي الافرنج ، فاما هو فطار ،

فطردوني حتى رميت نفسي في النهر ، وما ظننت أنني اسلم منهم .  
ولو لحقته كنت شربت دمه ، وهو لص عظيم ، وما تبع العسكر الا  
يسرق منه » .

فكان هذا الرجل يقول من يراه « ما في هذا يسرق رغيف خبز  
من بيته » .

ومن عجيب ما اتفق في السرقة ان رجلا كان بخدمتي يقال له علي  
ابن الدودويه من أهل بتكين ، نزل يوما الافرنج ، لعنهم الله ، على  
كفرطاب (٤٧) وهي إذ ذاك لصلاح الدين محمد بن أيوب اليغسياني ،  
رحمه الله ، فخرج هذا علي بن الدودويه دار بهم وأخذ حصانا ركبه  
وخرج به من العسكر يركض ، وهو يسمع الحس خلفه ويعتقد أن  
بعضهم قد ركب في طلبه ، وهو مجد في الركض والحس خلفه حتى  
ركض قدر فرسخين والحس معه . فالتفت يبصر ما خلفه في الظلام ،  
واذا بغلة كانت تألف الحصان قد قطعت مقودها وتبعته . فوقف  
حتى شد فوطته في رأسها وأخذها وأصبح عندي في حماة بالحصان  
والبغلة ، وكان الحصان من أجود الخيل وأحسنها وأسبقها .

كنت يوما عند أتابك وهو يحاصر رمنية (٤٨) وقد استدعاني فقال  
لي : « يا فلان ، أي شيء من حصانك الذي خبيته ؟ » وكان قد بلغه  
خبر الحصان ، قلت « لا ، والله يامولاي ، ما لي حصان مخبي ،  
حصني كلها في العسكر » ، قال : فالحصان الافرنجي ؟ قلت :  
« حاضر » ، قال : « أنفذ احضره » ، فأنفذت أحضرته وقلت  
للغلام : « امض به الى الاصطبل » ، قال أتابك : « اتركه الساعة  
عندك » ، ثم أصبح سبق ، فسبق ، ورده الى اصطبلي . وعاد  
استدعاه من البلد وسبق به فسبق ، فحملته الى اصطبله .

وشاهدت في الحرب عند انتهاء المدة ، كان عندنا رجل من الجند  
يقال له رافع الكلابي ، وهو فارس مشهور ، اقتتلنا نحن وبنو  
قراجا وقد جمعوا لنا من التركمان وغيرهم ، وحشدوا وباسطناهم

- ٥٦١٨ -

على فسحة من البلد ، ثم تكاثروا علينا فرجعنا وبعضنا يحمي بعضا ، وهذا رافع في من يحمي الأعقاب ، وهو لابس كزاغند ( ٤٩ ) وعلى رأسه خوذة بلا لثام ، فالتفت لعله يرى فيهم فرصة فينحرف عليهم ، فضربه سهم كسماء ( ٥٠ ) في حلقه ذبحه ، ووقع مكانه ميتا .

وكذلك شاهدت شهاب الدين محمود بن قراجا ، وقد انصلح ما بيننا وبينه ، وقد نفذ إلى عمي يقول له : « تأمر أسامة بإلقاني هو وفارس واحد إلى كفرع ( ٥١ ) لنمضي نبصر موضعا نكمن فيه لأفامية ونقاتلها » ، فأمرني عمي بذلك : فركبت ولقيته وأبصرنا الموضع .

ثم اجتمع عسكرينا وعسكره ، وأنا على عسكري شيزر وهو في عسكريه ، وسرنا إلى أفامية ، فلقينا فارسهم وراجلهم في الخراب الذي لها ، وهو مكان لا تتصرف فيه الخيل من الحجارة والاعمدة واصلوا الحيطان الخراب ، فعجزنا عن قلعهم من ذلك المكان ، فقال لي رجل من جنودنا : « تريد تكسرهم ؟ » قلت : « نعم » ، قال : « اقصد بنا باب الحصن » ، فأراد ان يردني عن ذلك ، فأبيت وقصدت الباب .

فساعة مارنا الفرنج قاصدين الباب عاد إلينا فارسهم وراجلهم فداسوننا وجازوا ، وترجل الفرسان داخل باب الحصن واطلعوا خيلهم إلى الحصن وصفوا عوالي قنطارياتهم في الباب ، وأنا وصاحب لي من مولدي أبي ، رحمه الله ، اسمه رافع بن سوتكين وقوف تحت السور مقابل الباب علينا شيء كثير من الحجارة والنشاب ، وشهاب الدين واقف في موكب بعيد منهم على جوبة الاكراد ( ٥٢ ) ، فقد طعن صاحب لنا يقال له حارثة الزميري نسيب جمعة في صدر فرسه طعنة معترضة ، ونزلت القنطارية في الفرس فتخبطت حتى وقعت القنطارية منها ووقعت جلدة صدرها جميعها ، فبقيت مسبلة على أعضائها .

- ٥٦١٩ -

وشهاب الدين بمعزل عن القتال ، فجاء سهم من الحصن فضربه في جانب عظم زنده فما دخل في جانب عظم زنده مقدار طول شعيرة ، فجاءني رسوله يقول : « لاتزل مكانك حتى تجمع الناس الذين تفرقوا في البلد ، فأنا قد جرحت ، وكأني أحس الجرح في قلبي ، وأنا راجع فاحفظ انت الناس » ، ومضى ورجعت أنا بالناس نزلت على برج خريبة ، وكان الافرنج لهم عليه ديد بان يكشفنا إذا أردنا الغارة على أفامية .

ووصلت العصر إلى شيزر وشهاب الدين في دار والذي يريد يحل جرحه ويدأويه ، وعمي قد منعه وقال : « والله ، ما تحل جرحك إلا في دارك » ، قال : « أنا في دار والذي » - يعني الوالد ، رحمه الله - قال : « إنن إذا وصلت دارك وبرأ جرحك دار والدك بحكمك » .

فركب المغرب وسار الى حماة . فاقام الغد وبعد الغد ثم اسودت يده وغاب عنه رشده ومات ، وما كان به إلا فراغ الأجل . ( ٥٣ )

وشاهدت من الطعنات العظيمة طعنة طعنها فارس من الافرنج ، خذلهم الله ، فارسا من أجنادنا يقال له تايه بن قنيب كلابي قطع له ثلاثة أضلاع من جانبه اليسار ، وثلاثة أضلاع من جانبه الايمن وضرب شفار الحربة مرفقه ففصله كما يفصل الجزار المفصل ، ومات لساعته .

وطعن رجل من أجنادنا كردي يقال له مياح فارسا من الافرنج أدخل قطعة من الزرد في جوفه وقتله ، ثم إن الافرنج غاروا علينا بعد أيام ومياح قد تزوج وخرج ، وهو لابس وفوق درعه ثوب أحمر من ثياب العروس ، قد تشهر به ، فطعنه فارس من الافرنج فقتله ، رحمه الله . « يا قرب مأتمه من العرس ! »

فذكرت به الخبر عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وقد أنشد قول قيس بن الخطيم :



- ٥٦٢٠ -

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا

كأن يدي بالسيف مخراق لاعب ( ٥٤ )

فقال النبي صلى الله عليه للحاضرين من الانصار ، رضي الله عنهم : « هل حضر أحد منكم يوم الحديقة ؟ » ( ٥٥ ) فقال رجل منهم : « أنا حضرته ، يارسول الله ، صلى الله عليك وسلم ، وحضره قيس بن الخطيم وهو قريب عهد بالعرس وعليه ملاءة حمراء ، فوالذي بعثك بالحق لقد عمل في قتاله كما قال عن نفسه »

ومن عجائب الطعن ان رجلا من الاكراد يقال له حمدات كان قديم الصحبة قد سافر مع والدي ، رحمه الله ، إلى أصبهبان إلى دركاه السلطان ملكشاه فكبر وضعف بصره ونشأ له أولاد ، فقال له عمي عز الدين ، رحمه الله : « يا حمدات ، قد كبرت وضعفت ، ولك علينا حق وخدمة ، فلو لزممت مسجدك - وكان له مسجد على باب داره - وأثبتنا أولادك في الديوان ويكون لك أنت كل شهر ديناران وحمل دقيق وأنت في مسجدك » ، قال : « أفعل يا أمير » ، فأجري له ذلك مديدة.

ثم جاء إلى عمي وقال : « يا أمير ، والله ، ما تطاوعني نفسي على القعود في البيت ، وقتلي على فرسي أشهى إلي من موتي على فراشي » قال : « الأمر لك » ، وأمر برد ديوانه عليه كما كان .

فما مضى إلا الأيام القلائل حتى غار علينا السرداني (٥٦) صاحب طرابلس ، ففزع الناس إليهم ، وحمدات في جملة الروع ، فوقف على رفعة من الارض مستقبلاً القبلة ، فحمل عليه فارس من الافرنج من غربية ، فصاح إليه بعض أصحابنا : « يا حمدات ! » ، فالتفت رأى الفارس قاصده ، فرد رأس فرسه شمالا ومسك رمحه بيده وسدده إلى صدر الافرنجي ، فطعنه نفذ الرمح منه ، فـرجع الافرنجي متعلقا برقبة حصانه في آخر رمقه ، فلما انقضى القتال قال

- ٥٦٢١ -

حمدات لعمي : « ياأمير، لو أن حمدات في المسجد من كان طعن هذه  
الطعنة ؟ »

فأذكرني قول الفند الزماني ( ٥٧ )

أيا طعنة ما شيخ  
كبير يفن بالسي  
تفتيت بها إذكـ  
ـره الشكة أمثالي

وكان الفند قد كبر وحضر القتال فطعن فارسين مقتربين فرماهما  
جميعا

وقد كان جرى لنا مثل ذلك : وهو أن فلاحا من العلاء جاء يركض  
إلى أبي وعمي ، رحمهما الله ، قال : « شاهدت سرية أفرنج تائهيـ  
قد جاؤوا من البرية ، لو خرجتم إليهم أخذتموهم » ، فركب أبي  
وعمامي وخرجوا بالعسكر إلى السرية التائهة وإذا به السرداني  
صاحب طرابلس في ثلاثمائة فارس ومائتي تركبولي ، وهم رماة  
الأفرنج ، فلما راوا أصحابنا ركبوا خيلهم واطلقوا على أصحابنا  
هزموهم ، وتموا يطردونهم ، فأحرف عليهم مملوك لوالدي يقال له  
ياقوت الطويل ، وأبي وعمي ، رحمهما الله ، يريانه ، فطعن فارسا  
منهم إلى جانبه فارس آخر ، وهما يتبعان أصحابنا ، فرمى  
الفارسين والفارسين .

وكان هذا الغلام كثير التخليط والزلات لا يزال فد فعل فعلة يجب  
تأديبه عليها ، فكلما هم والدي به وبتأديبه يقول عمي : « ياأخي ،  
بحياتك هب لي نذبه ولا تنس له تلك الطعنة » ، فيصفح عنه لكلام  
أخيه .

وكان حمدات الذي تقدم ذكره ظريف الحديث . حدثني والدي ،



- ٥٦٢٢ -

رحمه الله ، قال : « قلت لحمدات ونحن سائرون في طريق اصبهان سحرا ، « أمير حمدات ، أكلت اليوم شيئا ؟ ، قال : نعم يا أمير ، اكلت ثريدة .

قلت : « ركبنا في الليل وما نزلنا ولا أوقدنا نارا ، من أين لك الثريدة ؟ قال : « يا أمير عملتها في فهمي ، اخلط في فمي الخبز واشرب عليه الماء يصير كالثريدة » .

وكان الوالد ، رحمه الله ، كثير المباشرة للحرب ، وفي بدنه جراح هائلة ، ومات على فراشه ، وحضر يوما القتال وهو لا يس وعليه خوذة اسلامية بأنف فزرقه رجل بحربة - وكان معظم قتالهم مع العرب ذلك الزمان - فوقع الحربة في أنف الخوذة فانطوى وأدمى أنفه ولم يؤذه ، ولو كان قدر الله سبحانه أن يميل المزراق عن أنف الخوذة كان أهلكه .

وضرب مرة أخرى بذشابة في ساقه ، وفي خفه دشني ( ٥٨ ) ، فوقع السهم في الدشن فانكسر فيه ولم يجرحه ، هذا لحسن دفاع الله تعالى . وشهد ، رحمه الله ، الحرب يوم الاحد تاسع وعشرين شوال سنة سبع وتسعين واربعمئة مع سيف الدولة خلف بن ملاعب الاشهبي صاحب أفامية بأرض كفرطاب ، فلبس جوشنه ، وعجل الغلام عن طرح كلاب الجوشن من الجانب ، فجاءه خشت ( ٥٩ ) فضربه في ذلك الموضع الذي أدخل الغلام بستره فوق بزه الايسر خرج الخشت من فوق بزه الايمن ، فكانت اسباب السلامة لما جرت بها المشيئة من العجب ، والجرح لما قدره الله سبحانه من العجب .

فطعن ، رحمه الله ، في ذلك اليوم فارسا واحرف حصانه وثنى يده برمحه وجذبه من المطعون ، فحدثني قال : « حسست شيئا قد لدغ زندي ، فظننته من حرارة صفائح الجوشن ، إلا أن رمحي سقط من يدي ، فرددتها فاذا قد طعنت في يدي وقد استرخت لقطع شيء من الاعصاب » ، فحضرته ، رحمه الله ، وزيد الجرائحي

- ٥٦٢٣ -

يداوي جرحه ، وعلى رأسه غلام واقف ، فقال : « يا زيد ، اخرج هذه الحصاة من الجرح » ، فما كلمه الجرائحي . فعاد فقال : « يا زيد ما تبصر هذه الحصاة ؟ ما تزيلها من الجرح ! » فلما اضجره قال : « أين الحصاة ؟ هذا رأس عصب قد انقطع » ، وكان بالحقيقة أبيض كأنه حصاة من حصا الفرات .

وأصابه ذلك اليوم طعنة أخرى وسلم الله حتى مات على فراشه ، رحمه الله ، يوم الاثنين ثامن شهر رمضان سنة احدى وثلاثين وخمسة مائة

وكان يكتب خطا مليحا ، فما غيرت تلك الطعنة من خطه ، وكان لا يذسخ سوى القرآن ، فسأله يوما فقلت : « يا مولاي كم كتبت ختمه ؟ » قال « الساعة تعلمون » ، فلما حضرته الوفاة قال : « في ذلك الصندوق مساطر كتبت على كل مسطرة ختمة ضعوها - يعني المساطر - تحت خدي في القبر » ، فعدناها فكانت ثلاثا وأربعين مسطرة .

فكان كتب بعدتها ختمات : منها ختمة كبيرة كتبها بالذهب ، وكتب فيها علوم القرآن قراءاته وغريبه وعريبته وناسخه ومذسوخه وتفسيره ، وسبب نزوله وفقهه ، بالحبر والحمرة والزرقة ، وترجمه بالتفسير الكبير ، وكتب ختمه أخرى بالذهب مجردة من التفسير ، وباقي الختمات بالحبر مذهبة الأعشار والأخماس والآيات ورؤوس السور ورؤوس الاجزاء ، وما يقتضي الكتاب ذكر هذا وإنما ذكرته لأستدعي له الرحمة ممن وقف عليه .

أعود الى ما تقدم :

وفي ذلك اليوم أصاب غلاما كان لعمي عز الدولة أبي المرفف نصر ، رحمه الله ، يقال له موفق الدولة شمعون طعنة عظيمة التقاها دون عمي عز الدين أبي العساكر سلطان ، رحمه الله ، واتفق ان

عمي أرسله رسولا إلى الملك رضوان بن تاج الدولة تتش إلى حلب ، فلما حضر بين يديه قال لغلمانه : « مثل هذا يكون الغلمان وأولاد الحلال في حق مواليتهم » ، وقال لشمعون : « حدثهم حديثك أيام والدي وما فعلته مع مولاك » ، فقال : « يامولانا ، بالأمس حضرت القتال مع مولاي فحمل عليه فارس يطعنه ، فدخلت بينه وبين مولاي لأفديه بذنبي فطعنني قسطع من أضلاعي ضلعين وهي - ونعمتك - عندي في قمطرة » فقال له الملك رضوان « والله ما أعطيك الجواب حتى تنفذ تحضر القمطرة والاضلاع » .

فأقام عنده وأرسل من أحضر القمطرة وفيها عظمان من أضلاعه ، فعجب رضوان من ذلك ، وقال لأصحابه : « كذا عملوا في خدمتي »

فاما الأمر الذي سأله عنه أيام والده تاج الدولة فإن جدي سيد الملك أبا الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منذر ، رحمه الله ، سير ولده عز الدولة نصرا ، رحمه الله ، إلى خدمة تاج الدولة ، وهو معسكر بظاهر حلب ، فقبض عليه واعتقله ووكل به من يحفظه ، وكان لا يدخل إليه سوى مملوكه هذا شمعون والموكلون حول الخيمة ، فكتب عمي إلى أبيه ، رحمه الله ، يقول : « تنفذ لي في الليلة الفلانية - وعينها - قوما من أصحابه - ذكرهم - وخيلا أركبها إلى الموضع الفلاني » ، فلما كانت تلك الليلة دخل شمعون خلع ثيابه فلبسها مولاة وخرج على الموكلين في الليل ، فما انكروه ، ومضى إلى أصحابه وركب وسار ، ونام شمعون في فراشه .

وجرت العادة أن يجيئه شمعون في السحر بوضوئه فكان ، رحمه الله ، من الزهاد القائمين ليلهم يتلون كتاب الله تعالى ، فلما أصبحوا ولم يروا شمعون دخل كعادته دخلوا الخيمة فوجدوا شمعون وعز الدولة قد راح ، فأنهوا ذلك إلى تاج الدولة . فأمر بإحضاره ، فلما حضر بين يديه قال : « كيف عملت ؟ » قال :

- ٥٦٢٥ -

« أعطيت مولاي ثيابي لبسها وراح ، ونمت أنا في فراشه » ، قال :  
« وما خشيت أن أضرب رقبتك ؟ » قال : « يامولاي ، إذا ضربت  
رقبتي وسلم مولاي وعاد إلى بيته فانا السعيد بذلك . وما اشتراني  
ورباني إلا لأفديه بذنبي » .

فقال تاج الدولة ، رحمه الله ، لحاجبه : « سلم الى هذا الغلام  
خيل مولاه » ودوابه وخيامه وجميع بركه ، وسيره يتبع صاحبه  
« وما انكر عليه وما احذقه ما فعل في خدمة مولاه ، فهذا الذي قال له  
رضوان : « حدث اصحابي ما عمله أيام والدي مع مولاك » .

أعود إلى حديث الحرب المقدم ذكرها مع ابن ملاعب

وجرح عمي عز الدولة ، رحمه الله ، في ذلك اليوم عدة جراح ،  
منها : طعنة طعنها في جفن عينه السفلائي من ناحية المآق ، ونشب  
الرمح في المآق عند مؤخر العين فسقط الجفن جميعه وبقي معلقا  
بجلده من مؤخر العين ، والعين تلعب لا تستقر ، وإنما الجفون التي  
تمسك العين ، فخاطها الجرائحي وداواها فعادت كحالها الأولى  
لا تعرف العين المطعونة من الأخرى

وكانا ، رحمهما الله ، من اشجع قومهما . ولقد شهدتهما يوما  
وقد خرجا الى الصيد بالبراة نحو تل ملح ( ٦٠ ) وهناك طير ماء  
كثير ، فما شعرنا إلا وعسكر طرابلس قد أغار على البلد ووقفوا  
عليه ، فرجعنا وكان الوالد ( أبل ) من أثر مرض ، فاما عمي فخلف  
بمن معه من العسكر وسار حتى عبر من المخاض إلى الافرنج ، وهم  
يرونه ، وأما الوالد فسار والحصان يخب به ، وأنا معه صربي وفي  
يده سفرة يمتص منها ، فلما دنونا من الافرنج قال لي : « امض  
أنت ادخل من السكر » وعبر هو من ناحية الافرنج .

ومرة أخرى شاهدته وقد اغارت علينا خيل محمود بن قسراجا ،



ونحن على فسحة من البلد وخيل محمود أقرب إليه منا ، وأنا قد حضرت القتال ومارست الحرب ، فلبست كزاغندي وركبت حصاني وأخذت رمحي ، وهو ، رحمه الله ، على بغلة ، فقلت : « يامولاي ما تركب حصانك ! » قال : « بلى » وسار كما هو غير منزعج ولا مستعجل ، وأنا لخوفي عليه ألح في ركوبه حصانه ، إلى أن وصلنا إلى البلد ، وهو على بغلته ، فلمسا عاد أولئك وأمنا قلت : « يامولاي ، ترى العدو قد حال بيننا وبين البلد وأنت لا تركب بعض جنائبك وأنا أخاطبك فلا تسمع ! » قال : « يا ولدي ، في طالعي أنني لا أرتاع » .

وكان ، رحمه الله ، له اليد الطولى في النجوم مع ورعه وبينه وصومه الدهر وتلاوة القرآن ، وكان يحرضني على معرفة علم النجوم فأبى وامتنع ، فيقول : « فاعرف أسماء النجوم ، ما يطلع منها ويغرب » ، فكان يريني النجوم ويعرفني أسماءها .

ورأيت من إقدام الرجال ونخواتهم في الحرب أنا أصبحنا وقت صلاة الصبح رأينا سرية من الافرنج ، نحوا من عشرة فوارس ، جاؤوا إلى باب المدينة قبل ما يفتح . فقالوا للبواب : « أي شيء اسم هذا البلد ؟ » والباب خشب بينهما عوارض ، وهو داخل الباب ، قال : « شيزر » ، فرموه بنشاب من خلل الباب ورجعوا وخيلهم تخب بهم ، فركبنا فكان عمي ، رحمه الله ، أول راكب وأنا معه ، والافرنج رائجون غير منزعجين ، ولحقنا من الجند نفر ، فقلت لعمي : « عن أمرك أخذ أصحابنا واتبعهم أقلعهم وهم غير بعيدين » ، قال : « لا » ، وكان أخبر مني بالحرب ، في الشام أفرنجي لا يعرف شيزر ؟ هذه مكيدة » .

ودعا فارسين من الجند على فارسين سوابق وقال : امضيا اكشفا تل ملح ، وكان مكنا للافرنج ، فلما شارفاه خرج عليهما عسكري أنطاكية جميعه فاستقبلنا متسرعيهم نريد الفرصة فيهم قبل ركود الحرب ، ومعنا جمعة النميري وابنه محمود ، وجمعة فارسنا

وشيخنا ، فوقع ابنه محمود في وسطهم فصاح جمعة : « يا فرسان الخيل ولدي » ، فرجعنا معه في ستة عشر فارسا طعنا ستة عشر فارسا من الفرنج وأخذنا صاحبنا من بينهم ، واختلطنا نحن وهم حتى أخذ واحد رأس ابن جمعة تحت ابطه ، فخلص ببعض تلك الطعنات .

ومع هذا فلا يثق إنسان بشجاعته ولا يعجب باقدامه ، فوالله لقد سرت مع عمي ، رحمه الله ، أغرنا على أفامية ، واتفق أن رجالها خرجوا ليسيروا قافلة فسيروها ، وعادوا ، ونحن لقيناهم فقتلنا منهم قدر عشرين رجلا ، ورأيت جمعة النميري ، رحمه الله ، وفيه نصف قنطارية قد طعن بها في لبد السرج وخرج الرمح من البداد إلى فخذه ، ونفذ إلى خلفه ، فاندكست القنطارية فيه ، فراعني ذلك ، فقال : « لا بأس ، أنا سالم » .

ومسك سنان القنطارية وجذبها منه ، وهو وفرسه سالمان . فقلت : « يا أبا محمود ، انتهى اتقرب من الحصن أبصره » قال : « سر » ، فرحت أنا وهو نخب فرسينا ، فلما أشرفنا على الحصن إذا من الافرنج ثمانية من الفرسان وقوف على الطريق ، وهي مشرفة على الميدان من ارتفاع لا ينزل منه إلا من ذلك الطريق ، فقال لي جمعة : « قف حتى أريك ما أصنع فيهم » ، قلت : « ما هذا انصاف ، بل نحمل عليهم أنا وأنت » ، قال : « سر » . فحملنا عليهم فهزمناهم ورجعنا نحن نرى أنا قد فعلنا شيئا ما يقدر يفعل غيرنا ، نحن اثنان قد هزمتنا ثمانية فرسان من الافرنج

فوقفنا على ذلك الشرف ننظر الحصن ، فما راعنا إلا رويجل قد طلع علينا من ذلك السند الصعب معه قوس ونشاب ، فرمانا ، ولا سبيل لنا إليه فهزمتنا ، والله ما صدقنا نتخلص منه وخيلنا سالمة ، ورجعنا دخلنا مرج أفامية فسقنا منه غنيمة كبيرة من الجواميس والبقر والغنم ، وانصرفنا وفي قلبي من ذلك الراجل الذي



- ٥٦٢٨ -

هزمنا حسرة « اللي » ما كان لنا إليه سبيل ، وكيف هزمنا راجل واحد وقد هزمنا ثمانية فرسان من الافرنج

وشهدت يوما وقد أغارت علينا خيل كفرطاب في قلة ففزعنا اليهم طامعين فيهم لقلتهم ، وقد كمنوا لنا كمينا في جماعة منهم ، وانهزم الذين اغاروا فتبعناهم حتى أبعدنا عن البلد ، فخرج إلينا الكمين ورجع إلينا الذين كنا نطردهم ، فرأينا أننا إن انهزمنا قلعونا كلنا ، فالتقيناهم مستقتلين فنصر الله عليهم ، فقلعنا منهم ثمانية عشر فارسا : منهم من طعن فمات ، ومنهم من طعن فوقه وهو سالم ، ومنهم من طعن حصانه فهو راجل .

فجذب الذين في الارض منهم سالمون سيوفهم ووقفوا كل من اجتاز بهم ضربوه ، فاجتاز جمعة الذميري ، رحمه الله ، بواحد منهم فخطا إليه وضربه على رأسه ، وعلى رأسه قلنسوة ، فقطعها وشق جبهته وجرى منها الدم حتى نزح ، وبقيت مثل فم السمكة مفتوحة ، فلقىته ونحن في ما نحن فيه من الافرنج فقلت له : « يا أبا محمود ، ما تعصب جرحك » فقال : « ما هذا وقت العصائب وشدة الجراح » ، وكان لا يزال على وجهه خرقة سوداء وهو رمد وفي عينه عروق حمراء ، فلما أصابه ذلك الجرح وخرج منه الدم الكثير زال ما كان يشكو من عينيه ، ولم يعد يناله منهما رمد ولا ألم فربما صحت الاجسام بالعلل (٦١)

وأما الافرنج فانهم اجتمعوا بعد ما قتلنا منهم من قتلنا ووقفوا مقابلنا ، فجاءني ابن عمي نخيرة الدولة أبو القنا خطام ، رحمه الله ، فقال : « يا ابن عمي ، معك جنيبتان وأنا على هذا الفرس الحطم » ، قلت للغلام : « قدم له الحصان الاحمر » ، فقدمه له ، فساعة ما استوى في سرجه حمل على الافرنج وحده فافرجوا له حتى تـوسطهم وطعنوه رموه ، وطعنوا الحصان واقلبوا قنطارياتهم ، وصاروا يركشونه بها ، وعليه زربية حصينة ما تعمل

رماحهم فيها ، فتصايحنا : « صاحبكم ، صاحبكم » ، وحملنا عليهم فهزمناهم عنه واستخلصناه وهو سالم ، وأما الحصان فمات في يومه ، فسبحان المسلم القادر

وتلك الواقعة إنما كانت لسعادة جمعة وشفاء عينيه ، فسبحان القائل : (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) (٦٢)

وقد جرى لي مثل ذلك ، كنت بالجزيرة في عسكر أتابك فدعاني صديق لي إلى داره ومعي ركابي اسمه غنيم قد استسقى ودقت رقبتة وكبر جوفه وقد تغرب معي ، فأنا أرى له ذلك ، فدخل بالبلغة إلى اصطبل ذلك الصديق هو وغلمان الحاضرين ، وعندنا شاب تركي سكر وغلب عليه السكر ، فخرج إلى الاصطبل جذب سكينه وهجم على الغلمان ، فانهزموا وخرجوا . وغنيم لضعفه ومرضه قد طرح السرج تحت رأسه ونام ، فما قام حتى خرج كل من في الاصطبل ، فضربه ذلك السكران بالسكين تحت سرتة فشق من جوفه قدر أربع أصابع ، فوقع موضعه . فحمله الذي دعانا ، وهو صاحب قلعة باشزي (٦٣) إلى داري ، وحمل الذي جرحه وهو مكتوف معه إلى داري ، فاطلقته ، وتردد إليه الجرائحي فصلاح ومشى وتصرف ، إلا أن الجرح ما ختم ، ومازال يخرج منه مثل القشور وماء اصفر مدة شهرين ، ثم ختم وضممر جوفه وعاد إلى الصحة ، فكان ذلك الجرح سببا لعافيته .

ورأيت يوما البازدار قد وقف بين يدي والدي ، رحمه الله ، وقال : « يامولاي ، هذا الباز قد لحقه حص (٦٤) وهو يموت ، وعينه الواحدة قد تالفت ، فتصيد به ، فهو باز شاطر وهو تالف » ، فخرجنا إلى الصيد وكان معه ، رحمه الله ، عدة بزاة . فرمى ذلك الباز على دراجة وكان يهجم في النيج (٦٥) . فذبحت الدراجة في اجمة حلفاء وبخل الباز معها ، وقد صار على عينه كالنقطة الكبيرة ، فضربته شوكة من الحلفاء في تلك النقطة ففقتها ، فجاء به البازدار ، وعينه قد سالت وهي مطبوقة ، فقال : « يامولاي ، تالفت

- ٥٦٣٠ -

عين الباز » ، فقال : « كله تالف » ثم من الغد فتح عينه وهي  
سالة ، وسلم ذلك الباز عندنا حتى قرنص قرناصين فكان من أشطر  
البزاة .

ذكرته بما جرى لجمعة وغنيم وإن لم يكن موضع ذكر البزاة  
ورأيت من استسقى وفصدوا جوفه فمات ، وغنيم شق ذلك  
السكران جوفه سلم وعوفي ، فسبحان القادر .

وأغار علينا عسكر أنطاكية وأصحابنا قد التقوا أوائلهم وجأؤوا  
قدامهم ، وأنا واقف في طريقهم أنتظر وصولهم إلي لعلني أنال منهم  
فرصة ، وأصحابنا يعبرون علي منهزمين ، فعبر علي في من عبر  
محمود بن جمعة ، فقلت : « قف يا محمود » ، فوقف لحظة ثم دفع  
فرسه ومضى عني ، ووصلني أوائل خيلهم ، فاندفعت بين أيديهم  
وأنا راد رمحي اليهم ملتفت أنظرهم لا يتسرع إلي منهم فارس  
يطعنني ، وبين يدي جماعة من أصحابنا ، ونحن بين بساتين لها  
حيطان طول قعدة الرجل ، فندس(٦٦) فرسي بصدرها رجل(رجل)  
من أصحابنا ، فرددت رأس فرسي على يساري ، فضربت بها بالمهاميز  
ففزت الحائط ، فضبطت حتى صرت أنا والافرنج مصطفيين وبيننا  
الحائط ، فتسرع منهم فارس عليه تشهير حرير أخضر وأصفر ،  
فظننت أن ما تحته درع ، فتركته حتى تجاوزني وضربت الفرس  
بالمهاميز ، ففزت الحائط ، وطعنته ، فمال إلى أن وصل رأسه ركابه  
ووقع ترسه والرمح من يده والخونة عن رأسه ، ونحن قد وصلنا إلى  
رجالنا ، ثم عاد انتصب في سرجه وكان عليه زربية تحت التشهير .

فما جرحته الطعنة ، وأدركه أصحابه ثم عادوا ، وأخذ الرجال  
الترس والرمح والخونة .

فلما انقضى القتال ورجع الافرنج جاءني جمعة ، رحمه الله ،  
يعتذر عن ابنه محمود وقال : « هذا الكلب انهزم عنك » ، قلت :  
« وأي شيء يكون ؟ » قال : « ينهزم عنك ولا يكون شيء ؟ » قلت :

« وحياتك يا أبا محمود وانت تنهزم عني أيضا » ، قال : « يا شين والله إن موتي أسهل علي من أن انهزم عنك » ، ولم يمض إلا أيام قلائل حتى أغارت علينا خيل حماة فأخذوها لنا باقورة وحبسوها في جزيرة (٦٧) تحت الطاحون الجلالى .

وطلع الرماة على الطاحون يحمون الباقورة . فوصلتهم أنا وجمعة وشجاع الدولة ماضي - مولد لنا - وكان رجلا شجاعا ، فقلت لهما : « نعبر الماء ونأخذ الدواب » ، فعبرنا ، فأما أنا فضربت فرسي نشابة في أصل رقبتها فجازت فيها قدر شبر ، فوالله ما رمحت ولا قلاقت ولا كأنها احسست بالجرح ، وأما جمعة فرجع خوفا على فرسه ، فلما عدنا قلت : « يا أبا محمود ، ما قلت لك إنك تنهزم عني وأنت تلوم ابذك محمودا ؟ » قال : « والله ما خفت إلا على الفرس . فانها تعز علي » واعتذر .

وقد كنا ذلك اليوم الدقينا نحن وخيل حماة وقد سبقهم بعضهم بالباقورة إلى الجزيرة ، فاقتتلنا نحن وهم ، وفيهم فرسان عسكري حماة : سرهذك وغازي التلي ، ومحمود بن بلداجي وخضر الطوط واسباسلار خطلخ ، وهم أكثر عددا منا ، فحملنا عليهم ، فهزمناهم وقصدت فارسا منهم أريد أطعنه وإذا هو خضر الطوط ، فقال : « الصنيعة ، يا فلان ! » فعدلت عنه إلى آخر قطعته فوقع الرمح تحت ابطه ، فلو تركه ما كان وقع ، فشدد عضده عليه يريد يأخذ الرمح والفرس مسندرة (٦٨) بي فطار في السرج على رقبة الحصان ، فوقع . ثم قام وهو على شفير الوادي المنحدر إلى الجلالى ، ف ضرب حصانه وساقه بين يديه ونزل ، وحمدت الله سبحانه الذي ما ناله ضرر من تلك الطعنة لأنه كان غازي التلي ، وكان رحمه الله ، رجلا جيدا .

ونزل علينا عسكري أنطاكية في بعض الايام منزلا كان ينزله كلما نزل علينا ، ونحن ركاب مقابلهم وبيننا النهر ، فلم يقصدنا منهم أحد ، وضربوا خيامهم ونزلوا فيها ، فرجعنا نحن نزلنا في دورنا ،



- ٥٦٣٢ -

ونحن نراهم من الحصن ، فخرج من جندنا نحو من عشرين فارسا الى بندرقتين قرية بالقرب من البلد يرعون خيلهم ، وقد تركوا رماحهم في دورهم ، فخرج من الافرنج فارسان سارا إلى قريب من أولئك الجند الذين يرعون خيلهم ، فصادفا رجلا ، وعلى الطريق يسوق بهيمة فأخذه وبهيمة ونحن نراهم من الحصن ، وركب أولئك الجند ووقفوا ما معهم رماح ، فقال عمي : « هؤلاء عشرون لا يخلصون أسيرا مع فارسين ، لو حضرهم جمعة رأيتهم ما يعمل » ، هو يقول ذلك وجمعة لا بس يركض إليهم ، فقال عمي « أبصروا الساعة ما يعمل » .

فلما بنا من الفارسين وهو يركض كف رأس فرسه وسار خلفهم سترة ، فلما رأى عمي توقفه عنهما ، وهو على روشن له في الحصن يراه ، دخل من الروشن مغضبا وقال : « هذا خذلان ! » ، وكان توقف جمعة خوفا من جورة كانت بين يدي الفارسين لا يكون لهم فيها كمين ، فلما وصل تلك الجورة وما فيها أحد حمل على الفارسين خالص الرجل والبهيمة وطردهما إلى الخيام .

وكان ابن بيموند صاحب انطاكية يرى ما جرى ، فلما وصل الفارسان أنفذ أخذ ترسيهما جعلهما معالف للدواب ، ورمى خيمتهما وطردهما وقال : « فارس واحد من المسلمين يطرد فارسين من الافرنج ، ما أنتم رجال ، أنتم نساء » .

واما جمعة فوبخه وحرد عليه لوقوفه عنهما أول ما وصلهما ، فقال : « يامولاي ، خفت يكون لهم في جورة رابية القرافة كمين يخرج علي ، فلما كشفتها وما رأيت فيها أحدا استخلصت الرجل والبهيمة وطردتهما حتى بخلا عسكريهما » ، فلا والله ما قبل عذره ولا رضي عنه .

والافرنج ، خذلهم الله ، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، فهم اصحاب الرأي وهم اصحاب القضاء والحكم ، وقد

حاكمتهم مرة ، على قطعان غنم اخذها صاحب بانياس من الشعراء وبيننا وبينهم صلح ، وأنا إذ ذاك بدمشق ، فقلت للملك فلك بن فلك : « هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا ، وهو وقت ولاد الغنم ، فولدت وماتت أولادها وربها علينا بعد أن اتلفها » ، فقال الملك لستة سبعة من الفرسان : « قوموا اعملوا له حكما » ، فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد ، وعادوا الى مجلس الملك ، فقالوا : « قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما اتلف من غنمهم » ، فأمره الملك بالغرامة ، فتوسل إلي ولعل ( ٦٩ ) علي ، وسألني حتى أخذت منه أربع مائة دينار ، وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا احد من مقدمي الافرنج يغيره ولا ينقضه ، فالفرس أمر عظيم عندهم .

واقد قال لي الملك : « يا فلان ، وحق بيني لقد فرحت البارحة فرحا عظيما » ، قلت : « والله يفرح الملك بماذا فرحت ؟ » قال : « قالوا لي أنك فارس عظيم ، وما كنت اعتقد أنك فارس » ، قلت : « يامولاي ، أنا فارس من جنسي وقومي » ، وإذا كان الفارس دقيقا طويلا ، كان أعجب لهم .

وكان نزل علينا بذكري وهو أول اصحاب انطاكية بعد بيموند ، فقاتلنا ثم اصطالحنا ، فذفد حصانا لغلाम لعمي عز الدين ، رحمه الله ، وكان فرسا جوادا ، فذفذه له عمي تحت رجل من أصحابنا كردي يقال له حسزون ، وكان من الفرسان الشجعان ، وهو شاب مقبول الصورة دقيق ، ليس سابق بالحصان بين يدي بذكري ، فسابق به فسبق الخيل المجراة كلها ، وحضر بين يدي بذكري فصار الفرسان يكشفون سواعده ويتعجبون من دقته وشبابه ، وقد عرفوا أنه فارس شجاع فخلع عليه بذكري ، فقال له حسزون : « يامولاي ، أريدك تعطيني أمانك أنك ان ظفرت بي في القتال ، تصطنعني وتطلقني » ، فأعطاه أمانه ، على ما توهم حسزون ، فانهم لا يتكلمون إلا بالافرنجي ما ندري ما يقولون .



ومضى على هذا سنة أو أكثر وانقضت مدة الصلح ، وجاءنا  
بذكرى في عسكر انطاكية ، فقاتلنا عند سور المدينة ، وكانت خيلنا  
لقيت أوائلهم ، فطعن فيهم رجل يقال له كامل المشطوب من أصحابنا  
كردي ، وهو وحسنون نظراء في الشجاعة ، وحسنون واقف مع  
والدي ، رحمه الله ، على حجرة له ينتظر حصانه يأتيه به غلامه من  
عند البيطار ويأتيه كزا غنده ، فأبطأ عليه وأقلقه طعن كامل المشطوب  
فقال لوالدي : « يامولاي ، أمر لي بلباس خفيف » ، فقال : « هذه  
البغال عليها السلاح واقفة . مهما صلح لك البسة » ، وأنا إذ ذاك  
واقف خلف والدي ، وأنا صبي وهو أول يوم رأيت فيه القتال ،  
فنظر الكزاغندات في عيبتها على البغال فما وافقته ، وهو يغلي يريد  
يتقدم يعمل كما عمل كامل المشطوب ، فتقدم على حجرته ، وهو  
معري ، فاعترضه فارس منهم ، فطعن الفرس في قطاتها ( ٧٠ )  
فعضت على فاس اللجام وحملت به حتى رمته في وسط موكب  
الافرنج ، فاخذوه أسيرا وعذبوه أنواع العذاب ، وأرادوا قلع عينه  
اليسرى ، فقال لهم بذكرى ، لعنه الله : « اقلعوا عينه اليمين ، حتى  
إذا حمل الترس استترت عينه اليسار فلا يبقى يبصر شيئا » ،  
فقلعوا عينه اليمين كما أمرهم وطلبوا منه ألف دينار وحصانا أدهم  
كان لوالدي من خيل خفاجة جوادا من أحسن الخيل ، فاشتراه  
بالحصان ، رحمه الله .

وكان خرج من شيزر في ذلك اليوم راجل كثير ، فحمل عليهم  
الافرنج فما زعزعوهم من مكانهم ، فحرد بذكرى وقال : « أنتم  
فرساني ، وكل واحد منكم له ديوان مثل ديوان مائة مسلم ، وهؤلاء  
سرجند - يعني رجالة - ما تدرون تقلعونهم من موضعهم! » قالوا :  
« انما خوفنا على الخيل ، وإلا دسناهم وطعناهم » ، قال : « الخيل  
لي ، من قتل حصانه اخافته عليه » ، فحملوا على الناس عدة  
حملات ، فقتل منهم سبعون حصانا وما قدروا يزحزحونهم من  
مواقفهم .

وكان بقمية فارس من كبار فرسانهم يقال له بدرهوا ( ٧١ ) ،

- ٥٦٣٥ -

فكان ابدا يقول : « ترى ما التقى جمعة في القتال؟ » ، وجمعة يقول : « ترى ما التقى بدرهوا في القتال؟ » .

فنزل علينا عسكر انطاكية وضرب خيامه في الموضع الذي كان ينزله ، وبيننا وبينهم الماء ، ولنا موكب واقف على شرف مقابلهم ، فركب فارس من الخيام وسار حتى وقف تحت موكبنا ، والماء بينه وبينهم ، وصاح بهم : « فيكم جمعة؟ » قالوا : « لا » ، والله ما كان حاضرا فيهم ، وكان ذلك الفارس بدرهوا ، فالتفت فرأى أربعة فوارس منا من ناحيته : يحيى بن صافي الاعسر ، وسهل بن أبي غانم الكردي ، وحارثة النميري ، وفارس آخر .

فحمل عليهم فهزمهم ، ولحق واحدا منهم طعنه فشلة ما ألحقه حصانه ليتمكن الطعن ، وعاد الى الخيام

ودخل اولئك الذفر الى البلد فافتضحوا ، واستخفهم الناس ولا موهم وأزروا بهم وقالوا : « أربعة فوارس يهزمهم فارس واحد ، كنتم افترقتم له فكان طعن واحد منكم وكان الثلاثة قتلوه ، ولا قد افتضحتم » ، وكان أشد الناس عليهم جمعة النميري فكان تلك الهزيمة منحتم قلوبا غير قلوبهم ، وشجاعة ما كانوا يطمعون فيها ، فانتخوا وقاتلوا واشتهروا في الحرب ، وصاروا من الفرسان المعدودين ، بعد تلك الهزيمة .

وأما بدرهوا فانه سار بعد ذلك من أفامية في بعض شغله يريد انطاكية . فخرج عليه الأسد من غاب في الروج في طريقه فخطفه عن بغلته ودخل به الى الغاب أكله - لارحمه الله .

ومن اقدام الرجل الواحد على الجمع الكثير : فمن ذلك ان اسباسلار مودود رحمه الله ، نزل بظاهر شيزر يوم الخميس تاسع ربيع الأول سنة خمس وخمس مائة وقد قصده بذكرى صاحب انطاكية في جمع كثير، فخرج اليه عمي ووادي ، رحمهما

الله ، وقالوا: « الصواب ان ترحل - وكان نازلا شرقي البلد على النهر - وتنزل في البلد ، ويضرب العسكر خيامهم على الاسطوحات في المدينة ونلقى الأفرنج بعد أن نحرز خيامنا وأثقالنا » فرحل ونزل كما قالوا له ، واصبحا خرجا اليه ، وخرج من شيزر خمسة آلاف راجل معدين ففرح بهم اسباسلار وقويت نفسه .

وكان معه ، رحمه الله ، رجال جيد ، فصافوا من قبلي الماء والأفرنج نزول شماليه ، فمنعواهم من الشرب والورود نهارهم ، فلما كان الليل رحلوا راجعين الى بلادهم والناس حولهم ، فنزلوا على تل الترمسي ( ٧٢ ) فمنعواهم من الورود كما عملوا بالأمس ، فـرحلوا في الليل ونزلوا على تـل التل ( ٧٣ ) والعسكر قد ضايقهم ومنعهم من المسير ، فاحتاطوا بالماء ومنعواهم من الورود ، ورحلوا في الليل متوجهين الى أرامية ، ففزع اليهم العسكر واحتاطوا بهم وهم سائرون ، فخرج منهم فارس واحد فحمل على الناس حتى توسطهم ، فقتلوا حصانه ، وأخذوه بالجراح ، فقاتل وهو راجل حتى وصل الى أصحابه .

ودخل الأفرنج أرضهم وعاد المسلمون عنهم .

ومضى اسباسلار مودود ، رحمه الله ، الى دمشق ، فجاءنا بعد شهر كتاب يذكر صاحب انطاكية مع فارس معه غلمان وأصحاب يقول: « هذا فارس محدثم من الأفرنج ، وصل حج ويريد الرجوع الى بلاده ، وسألني أن اسيره اليكم يبصر فرسانكم ، وقد نفذته فاستوصوا به » ، وكان شابا حسن الصورة حسن اللباس ، الا أن فيه آثار جراح كثيرة وفي وجهه ضربة سيف قد قدت من مفرقه الى حكمته ( ٧٤ ) ، فسألت عنه فقالوا : « هذا الذي حمل على عسكر اسباسلار مودود ، وقتلوا حصانه ، وقاتل حتى رجع الى أصحابه » ، فتعالى الله القادر على ما يشاء كيف شاء لا يؤخر الأجل الاحجام ولا يقدمه الاقدام .

ومن ذلك ما حكاه لي العقاب الشاعر ، رجل من اجنادنا من المغرب ، قال : « خرج أبي من تدمر يريد سوق دمشق ومعه أربعة فوارس وأربعة رجاله وهم يسبقون ثمانية جمال ليبيعوها ، قال : بينا نحن نسير اذا فارس مقبل من صدر البرية ، فجاء يسير حتى صار بالقرب منا ، فقال : خلوا عن الجمال ، فصحنا عليه وشتمناه ، فاطلق حصانه علينا ، فطعن منا فارسا رماه عن فرسه وجرحه ، فطردناه فسبق ، ثم عاد الينا وقال : خلوا عن الجمال ، فصحنا عليه وشتمناه ، فحمل علينا ، فطعن راجلا منا اوذقه بالجرح وتبعناه فسبقنا ، ثم عاد وقد بطل منا رجلان فاطلق علينا ، فاستقبله رجل منا ، فطعنه صاحبنا ف وقعت الطعنة في قربوس سرجه فانكسر رمح صاحبنا ، وطعنه الفارس فجرحه ، ثم حمل علينا فطعن رجلا منا فصرعه ، وقال : خلوا عن الجمال ، والا افنيتمكم ، قلنا : تعال خذ نصفها ، قال : لا ، احبسوا منها اربعة اتركوها وقوفا وخذوا اربعة وامضوا ، ففعلنا وما صدقنا نخلص بما سلم معنا ، وساق هو تلك الاربعة ونحن نراه مالنا فيه حيلة ولا طمع ، وعاد بالغنيمة وهو وحده ونحن ثمانية رجال . »

ومن ذلك ان دنكري صاحب أنطاكية أغار على شيزر ، فاستاق دواب كثيرة وقتل وسبى ٠ ونزل على قرية يقال لها زلين فيها مغار معلقة لا يوصل إليها في وسط الجبل ، ما إليها من فوق منزل ولا إليها من أسفل مطلع ، إنما ينزل إليها من يحتمي فيها بالحبال ، وذلك يوم الخميس العشرين من ربيع الآخر سنة اثنتين وخمس مائة فجاء شيطان من فرسانهم الى دنكري فقال : « اعمل لي صندوقا من خشب ، وأنا أقعد فيه ، ودلوني من الجبل اليهم بسلاسل او ثقوها في الصندوق حتى لا يقطعوها بالسيف ، فاسقط » ، فعملوا له صندوقا ودلوه بالسلاسل المعلقة الى المغار ، فأخذها وأنزل كل من كان فيها الى دنكري ، وذلك أن المغار بهو ما فيه مكان يستتر الناس فيه ، وذلك يرميهم بالنشاب فلا تقع نشابة الا في انسان لضيق الموضع وكثرة الناس فيه .



وكان ممن أسر في جملة من أسر في ذلك اليوم امرأة كانت من اصل جيد من العرب ، وصفت لعمي عز الدين أبي العساكر سلطان ، رحمه الله ، قبل ذلك وهي في بيت أبيه ، فأرسل عمي عجوزا من أصحابه تبصرها فعادت تصفها وجمالها وعقلها إما لرغبة بذلها لها وأما أروها غيرها ، فخطبها عمي وتزوجها ، فلما دخلت عليه رأى غير ما وصف له منها ، ثم هي خرساء ، فوفاه مهرها وردّها الى قومها ، فأسرت من بيوت قومها ذلك اليوم ، فقال عمي : « ما ادع امرأة تزوجتها وانكشفت علي في أسر الأفرنج » ، فاشتراها ، رحمه الله ، بخمس مائة دينار وسلمها الى أهلها .

ومن ذلك ما حدثني به المؤيد الشاعر البغدادي بالموصل سنة خمس وستين وخمس مائة قال : « أقطع الخليفة والذي ضيعة وهو يتردد اليها ، وبها جماعة من العيارين يقطعون الطريق ، والذي يصانعهم لخوفه منهم ولانتفاعه بشيء مما يأخذونه ، فنحن يوما جلوس بها أقبل غلام تركي على حصانه ومعه بغل رحل عليه خرج وجاريه راكبة فوق الخرج ، فنزل وأنزل الجارية فقال : يا فتيان ، اسعدوني على حط الخرج ، فجئنا حططنا معه ، واذا به كله دنانير ذهب ومصاغ ، فجلس هو والجارية أكلا شيئا ثم قال : « اسعدوني على رفع الخرج » فرفعناه معه ، فقال لنا : كيف طريق الأنبار ؟ فقال له والذي : الطريق هاهنا - وأشار الى الطريق - ولكن في الطريق ستون عيارا أخاف عليك منهم ، فصرط له وقال : « أنا أخاف من العيارين ! »

فتذكره والذي ومضى الى العيارين أخبرهم خبره ومامعه ، فخرجوا حتى عارضوه في الطريق ، فلما رأهم أخرج قوسه وترك فيه سهمًا واستوفاه يريد يرميهم ، فاندقطع الوتر ، فهجم عليه العيارين ، فانهزم ، واخذوا البغل والجارية والخرج ، فقالت لهم الجارية : يا شباب ، بالله لا تهتكوني ، وبيعوني نفسي والبغل ايضا بعقد جواهر مع التركي

قيمته خمس مائة دينار ، وخذوا الخرج ومافيه ، قالوا : « قد فعلنا » قالت ابعثوا معي بعضكم حتى أتحدث مع التركي وأخذ العقد، فبعثوا معها من يحفظها حتى دنت من التركي وقالت له : قد اشتريت نفسي والبغل بالعقد الذي في ساق موزك خفك اليسار • فادفعه لي ، قال : نعم » وانفسح عنهم وأخرج الساق ( ٧٥ ) موزا وإذا فيه وترقوس ، فركبه على قوسه ورجع اليهم ، فما زالوا يقاتلونه وهو يقتل منهم واحدا واحدا حتى قتل ثلاثة وأربعين رجلا ، ونظر فاذا والذي في الجماعة الباقين من العيارين فقال : « وأنت فيهم » فتشبهت به أعطيك نصيبك من الذشاب ؟ » قال « لا » ، قال : خذ هؤلاء السبعة عشر الباقين امض بهم الى شحنة البلد يشنقهم وأولئك قد زنهروا ورموا سلاحهم ، وساق بغله بما عليه ومضى ، وقد ارسل الله تعالى على العيارين منه مصيبة وسخطة عظيمة »

ومن ذلك ما حضرته في سنة تسع وخمس مائة وقد خرج والذي ، رحمه الله ، بالعسكر الى اسباسلار برسق بن برسق ، رحمه الله ، وقد وصل بأمر السلطان إلى الغزاة ، وهو في خلق عظيم وجماعة من الأمراء : منهم أمير الجيوش اوزبه صاحب الموصل ، وسنقر دراز صاحب الرحبة ، والأمير كند غدي ، والحاجب الكبير بكتمر ، وزنكي بن برسق وكان من الأبطال ، وتميرك ، واسماعيل البسكجي ، وغيرهم من الأمراء فنزلوا على كفر طباب وفيها أخو وثوفل والأفرنج ، فقاتلوا ، ودخلوا الخراسانية في الخندق ينقبون ، والأفرنج قد ايقنوا بالهلاك ، فطرحوا النار في الحصن فأحرقوا السقوف ووقعت على الخيل والدواب والغنم والخنازير والأسارى ، فاحترق الجميع ، وبقي الأفرنج معلقين في اعلاه على الحيطان .

فوقع لي أن أدخل في النقيب أبصره ، فنزلت في الخندق ، والذشاب والحجار مثل المطر علينا ، ودخلت



- ٥٦٤٠ -

الذقب ، فرأيت حكمه عظيمة : قد نقبوا من الخندق الى الباشورة وأقاموا في جوانب الذقب قائمتين وعليهما عرضية تمنع من تهدم ما فوقها ، ونظموا الذقب بالأخشاب كذلك الى اساس البرج ، والذقب ضيق ، إنما هو طريق الى البرج ، فلما وصلوه وسعوا الذقب في حائط البرج وحملوه على الأخشاب ، ويخرجون نقارة الأحجار اولا فأولا ، وأرض الذقب من الذقب قد صارت طينا ، فرأيته وخرجت ولم يعرفني الخراسانية ، ولو عرفوني ماتركوني اخرج الا بغرامة كثيرة لهم .

وشرعوا في تقطيع الخشب اليابس وحشوا الذقب بذلك الخشب ، وأصبحوا طرحوا فيه النار ، وقد لبسنا وزحفنا الى الخندق لنهجم الحصن اذا وقع البرج ، علينا من الحجارة والذشاب بلاء عظيم ، فاول ما عملت النار صار يسقط ما بين الاحجار من تكحيل الكلاس ثم انشق واتسع الشق ووقع البرج ، ونحن نظن انه اذا وقع تمكنا من الدخول عليهم ، فوقع اوجه البراني وبقي الحائط الجواني كما هو ، فوقفنا الى أن حميت علينا الشمس ورجعنا الى خيامنا ، وقد نالنا من الحجارة أذى كبيرا .

فمكثنا الى الظهر ، واذا قد خرج من العسكر راجل واحد معه سيفه وترسه فمضى الى حائط البرج الذي قد وقع ، وقد صارت جوانبه كدرج السلم ، فتوغل فيه حتى صعد الى أعلاه ، فلما رآه رجال العسكر تبعه منهم قدر عشرة رجال تسرعوا بعدتهم فصعدوا واحدا وراء واحد حتى صاروا على البرج والأفرنج لا يشعرون بهم ، ولبسنا نحن من الخيام وزحفنا ، فكثروا على البرج قبل ان يتكامل الناس عندهم .

ففزع اليهم الأفرنج فرموهم بالذشاب ، فجرحوا الذي طلع في الاول ، فنزل وتتابع الناس في الطلوع ، وصاروا مع الأفرنج على بدن من حيطان البرج ، وبين يديهم برج في بابه فارس لابس ومعه

ترسه وقنطاريته يحمي من دخول البرج ، وعلى البرج جماعة من الأفرنج يقاتلون الناس بالذشاب والحجارة ، فصعد رجل من الأتراك ، ونحن نراه ، ومشى والبلاء يأخذه الى أن دنا من البرج وضرب الذي عليه بقارورة فقط ، فرأيته كالشهاب على تلك الحجارة البهم وقد رموا نفوسهم الى الأرض خوفا من الحريق ، ثم عاد .

وطلع آخر يمشي على البدن ومعه سيف وترس ، فخرج عليه من البرج الذي في بابه الفارس رجل منهم عليه زريقتان ويده قنطارية وما معه ترس ، فلقىه التركي وفي يده سيفه ، فسطعنه الأفرنجي ، قدفع سنان القنطارية عنه الترس ومشى الى الأفرنجي وقد دخل ، على الرمح ، إليه فولى عنه وأدار ظهره وأمال ظهره كالراكع خوفا على رأسه ، فضربه التركي ضربات ماعملت فيه شيئا ، ومشى حتى دخل البرج وقوي عليهم الناس وتكاثروا فسلموا الحصن ونزل الأسارى الى خيام برسق بن برسق .

فشاهدت ذلك الذي خرج بقنطاريته على التركي وقد جمعوهم في سرادق برسق بن برسق ليقطعوا على نفوسهم ثمنا يخلصون به ، فوقف وكان سرجنديا وقال: « كم تأخذون مني؟ » قالوا: « نريد ستمائة دينار » ، فصرط لهم وقال: « أنا سرجندي ، ديواني كل شهر ديناران من أين لي ستمائة دينار؟ » وعاد جلس بين أصحابه ، وكان خلقه عظيمة ، فقال الأمير السيد الشريف وكان من كبار الأمراء ، لوالدي رحمه الله: « يا أخي ترى هؤلاء القوم ؟ نعوذ بالله منهم » .

فقضى الله سبحانه ان العسكر رحل عن كفر طاب الى دانيث وصبحهم عسكر أنطاكية يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الآخر وكان تسليم كفر طاب يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الآخر فقتل الأمير السيد ، رحمه الله ، وخلق كثير من المسلمين .

وعاد الوالد ، رحمه الله ، وكنت فارقته من كفر طاب وقد كسر

العسكر ، ونحن في كفر طاب نحـرزها نريد نعمـرها ، وكان اسباسلار سلمها الينا ، ونحن نخرج الأسارى كل اثنين في قيد من أهل شيزر وقد احترق نصفنا وقد بقيت فخذة ، وذا قدمنا في النار ، فرأيت منهم عبـرة عظيمة ، فتركناها وعدنا الى شيزر مع الوالد ، رحمه الله ، وقد أخذ كل ماكان معه من الخيام والجمال والبغال والبرك والتجمل وتفرق العسكر .

وكان ماجرى عليهم بمكيدة من أولئ الخادم صاحب حلب ذلك الوقت ، قرر مع صاحب انطاكية ان يحتال عليهم ويفرقهم ويخرج ذلك من انطاكية بعسكره يكسرهم ، فأرسل الى اسباسلار برسق رحمه الله ، يقول : « تنفذ لي بعض الأمراء ومعه جماعة من العسكر أسلم اليه حلب ، فاني أخاف من أهل البلد أن لايطاوعوني على التسليم ، فأريد أن يكون مع الأمير جماعة أتقوى بهم على الحلبيين » ، فنفذ اليه أمير الجيوش اوزبة ومعه ثلاثة آلاف فارس ، وصباحهم روجار لعنه الله ، كسرهم لنفاذ المشيئة .

وعاد الأفرنج لعنهم الله ، الى كفر طاب عمروها وسكنوها . وقدر الله تعالى أن خلص الأسرى من الأفرنج الذين أخذوا من كفر طاب ، فان الأمراء اقتسموهم وأبقوهم معهم ليشتروا أنفسهم الا ما كان من أمير الجيوش فانه تقدم الذين طلعوا في سهمه ضرب رقاب جميعهم قبل أن يتوجه الى حلب ، واقترق العسكر - من سلم منهم من دانيث - وتوجهوا الى بلادهم ، فذلك الرجل الذي طلع وحده الى برج كفر طاب كان سبب أخذها .

ومن ذلك : كان في خدمتي رجل يقال له زمير العلاروزري ، راجل شجاع أيد ، نهض هو وقوم من رجال شيزر الى الروج الى الأفرنج ، فعثروا في البلد على قافلة من الأفرنج في مغارة ، فقال بعضهم لبعض : « من يدخل عليهم ؟ » قال زمير : « أنا » فدفع اليهم سيفه وترسه وجذب سكينه ودخل عليهم ، فاستقبله رجل منهم ، فضربه بالسكين رماه وبرك عليه يقتله ، وخلفه افرنجي معه

سيف فضربه ، وعلى ظهر نمير مزود فيه خبز ، فهو يرد عنه ، فلما قتل الرجل الذي تحته التفت الى صاحب السيف يريد ، فضربه بالسيف في جانب وجهه فقطع حاجبه وجفن عينه وخده وأنفه وشفته العليا ، فتدلى جانب وجهه على صدره ، فخرج من المغارة الى أصحابه فشدوا جرحه ورجعوا به في ليلة باردة ماطرة ، فوصل شيزر وهو على تلك الحالة ، فخيظ وجهه وداوى جراحه فبرأ وعاد الى ماكان عليه ، الا أن عينه تالفت ، وهو أحد الثلاثة الذين رماهم الاسماعيلية من حصن شيزر وقد تقدم ذكرهم

وحدثني الرئيس سهرى وكان في خدمة الأمير شمس الخواص التـونـتاش صاحب رمنية ، وكان بينه وبين علم الدين علي كرد صاحب حماة عداوة وخلاف ، قال : « أمرني شمس الخواص أن أخرج أقدر بلد رمنية وأبصر زرعه ، فخرجت ومعي قوم من الجند قدرت البلد ، ونزلت ليلة عند المساء بقرية من قرى رمنية لها برج صعدنا الى سطحه تعشينا وجلسنا وخيلنا على باب البرج ، فما شعرنا الا برجل قد اشرف علينا من بين شراريـف البرج فصاح علينا ورمى نفسه الينا وفي يده سكينـة فانهزمنا ونزلنا في السلم الأول وهو خلفنا ، ونزلنا في السلم الثاني ، وهو خلفنا ، حتى وصلنا الباب ، فخرجنا وإذا قد رتب لنا رجالا على الباب فقبضونا جميعا وأوثقونا رباطا ودخلوا بنا الى حماة الى علي كرد ، فما فعل بنا ذلك كله رجل واحد »

ومثل ذلك جرى في حصن الخريبة ، كانت لصلاح الدين محمد بن أيوب اليغسياني ، رحمه الله ، وفيها الحاجب عيسى واليها ، وهو حصن منيع على صخرة مرتفعة من جميع جوانبه يطلع إليه بسلم خشب ، ثم يرفع السلم فلا يبقى اليها طريق ، وليس مع الوالي في الحصن سوى ابنه وغلـامه وبواب الحصن وله صاحب يقال له ابن المرجي يطلع اليه في الوقت بعد الوقت في أشغاله ، فتحدث مع الاسماعيلية وقرر له معهم قرارا أرضاه من مال واقطاع ويسلم اليهم حصن الخريبة ، ثم جاء الى الحصن فاستأنن وطلع ، فبدأ



بالبواب قتله، ولقيه الغلام فقتله، وبخل على الوالي قتله، وعاد الى ابن الوالي قتله، وسلمه الى الاسماعيلية وقاموا له بما كانوا قرروه له .

والرجال اذا قووا نفوسهم على شيء فعلوه .

ومن ذلك تفاضل الرجال في هممهم ونخبواتهم، وكان الوالد، رحمه الله يقول لي: « كل جيد من سائر الأجناس، من الرديء من جذسه ما يكون بقيمته، مثل حصان جيد يسوى مائة دينار، خمس حصن رديئة تسوى مائة دينار، وكذلك الجمال، وكذلك أنواع الملبوس، الا ابن آدم فان ألف رجل أرياء لا يساؤون رجلا واحدا جيدا»، وصدق رحمه الله .

كنت قد نفذت مملوكا لي في شغل مهم الى دمشق، واتفق أن أتاك زنكي رحمه الله، أخذ حماة ونزل على حمص، فاستدت الطريق على صاحبي، فتوجه الى بعلبك ومنها الى طرابلس واكترى بغل رجل نصراني يقال له يونان فحمله الى حيث اكتراه وودعه، ورجع وخرج صاحبي في قافلة يريد يتوصل الى شيزر من حصون الجبل، فلقيهم انسلان فقال لأرباب الدواب: « لا تمضوا، فان في طريقكم في الموضع الفلاني عقد حرامية في ستين سبعين رجلا يأخذونكم» قال: « فوقفنا لاندري مانعمل ماتطيب نفوسنا بالرجوع ولانجسر على المسير من الخوف، فنحن كذلك اذا الريس يونان قد أقبل مسرعا، فقلنا ما لك ياريس؟ قال سمعت ان في طريقكم حرامية جئت لأسيركم، سيروا . فسرنا معه الى ذلك الموضع، واذا قد نزل من الجبل خلق عظيم من الحرامية يريدون أخذنا، فلقيهم يونان وقال: « يافتيان، موضعيكم انا يونان، وهؤلاء في خفارتي، والله ما فيكم من يتقرب منهم؟ » فردهم والله جميعهم عنا وماأكلوا من عندنا رغيف خبز، ومشى معنا يونان حتى أمنا ثم ودعنا وانصرف »

وحكى لي صاحبي هذا عن ابن صاحب الطور ، وكان طلع معي من مصر في سنة ثمان وثلاثين وخمس مائة قال حدثني ابن والي الطور - وهي ولاية لمصر بعيدة كان الحافظ لدين الله ، رحمه الله ، اذا اراد ابعاد بعض الأمراء ولاء الطور ، وهو قريب من بلاد الأفرنج - قال : « وليها والدي وخرجت أنا معه الى الولاية وكنت مغرى بالصيد ، فخرجت أتصيد ، فوقع بي قوم من الأفرنج فأخذوني ومضوا بي الى بيت جبريل فحبسوني فيه في جب وحدي ، وقطع علي صاحب بيت جبريل ألفي دينار ، فبقيت في الجب سنة لايسأل عني أحد ، فأنا في بعض الأيام في الجب واذا قد رفع عنه الغطاء ودلي الي رجل بدوي ، فقلت : « من أين أخذك ؟ » قال : « من الطريق » فأقام عندي يوميات وقطعوا عليه خمسين ديناراً ، فقال لي يوماً من الأيام : « تريد تعلم ان ما يخلصك من هذا الجب الا أنا ؟ فخلصني حتى اخلصك » فقلت في نفسي « رجل قد وقع في شدة يريد لروحه الخلاص » فما جاوبته ، ثم بعد ايام اعاد علي ذلك القول : فقلت في نفسي « والله لأسعين في خلاصه لعل الله يخلصني بثوابه » فصحت بالاسجان فقلت له : « قل للصاحب اشتهي أحدث معك » فعاد واطلعني من الجب وأحضرني عند الصاحب ، فقلت له : لي في حبسك سنة ما سأل أحد عني ولا يدري أنا حي أو ميت ، وقد حبست عندي هذا البدوي وقطعت عليه خمسين ديناراً اجعلها زيادة على قطيعتي ودعني اسيرة الى ابي حتى يفكني قال : « افعل » ، فرجعت عرفت البدوي وخرج ودعني ومضى .

فانتظرت ما يكون منه شهرين فما رأيت اثراً له ولا سمعت له خبراً ، فبدئت منه ، فما را عني ليلة من الليالي الا وهو قد خرج علي من نقيب في جانب الجب وقال : « قم والله لي خمسة ( ٧٦ ) اشهر أحفر هذا السرب من قرية خربة حتى وصلت اليك » فقامت معه وخرجنا من ذلك السرب وكسر قيدي وأوصلني الى بيتي ، فما ادري مم اعجب من حسن وفائه او من هدايته حتى طلع نقبه من جانب الجب .



واذا قضى الله سبحانه بالفرج فما سهل أسبابه .  
كنت أتردد الى ملك الأفرنج في الصلح بينه وبين جمال الدين  
محمد بن تاج الملوك رحمه الله ، ليد كانت للوالد . رحمه الله . على  
بغدوين الملك والد الملكة امرأة الملك فلك بن فلك ، فكان الأفرنج  
يسدقون أساراهم الي لأشترتهم ، فكنت أشتري منهم من سهل الله  
تعالى خلاصه ، فخرج شيطان منهم يقال له كليام جينا في موكب له  
يغزي فأخذ مركبا فيه حجاج من المغاربة نحو اربع مائة نفس رجال  
ونساء ، فكان يجيء أقوام مع مالكم فاشتري منهم من قدرت على  
شراه ، وفيهم رجل شاب يسلم ويقعد لا يتكلم ، فسألت عنه فقل  
لي هو رجل زاهد صاحبه دباغ ، فقلت له : « بكم تبيعني  
هذا ؟ » قال « وحق بيني ما أبيعه الا هو وهذا الشيخ جملة كما  
اشتريتهما بثلاثة واربعين ديناراً » فاشتريتهما واشتريت لي منهم  
نفرا ، واشتريت للأمير معين الدين رحمه الله ، منهم نفرا بمائة  
وعشرين ديناراً، ووزنت ما كان معي وضمنت علي بالباقي .

وجئت الى دمشق فقلت للأمير معين الدين ، رحمه الله ، « قد  
اشتريت لك أسارى اختصك بهم ، وما كان معي ثمنهم ، والآن قد  
وصلت الى بيتي ، إن أردتهم وزنت ثمنهم ، والا وزنته  
انا » قال : « لا بل انا أزن والله ثمنهم ، وأنا أرغب الناس في  
ثوابهم » ، وكان رحمه الله ، اسرع الناس الى فعل خير وكسب  
مثوبة، ووزن ثمنهم ، وعدت بعد أيام الى عكا .

وقد بقي من الأسرى عند كليام جينا ثمانية وثلاثون  
اسيرا ، وفيهم امرأة لبعض الذين خلاصهم الله تعالى على  
يدي ، فاشتريتها منه ، وماوزنت ثمنها ، فركبت الى داره لعنه  
الله ، وقلت : « تبيعني منهم عشرة ؟ » قال : « وحق بيني ما أبيع الا  
الجميع » ، قلت : « ما معي ثمن الجميع ، وأنا اشترى  
بعضهم ، والثوبة الاخرى اشترى الباقي » قال : « ما أبيعك الا  
الجميع » فانصرفت وقد راى الله سبحانه أنهم هربوا في تلك الليلة

جميعهم ، وسكان ضياع عكا كلهم من المسلمين اذا وصل اليهم  
الأسير أخفوه وأوصلوه الى بلاد الاسلام .

وتطلبهم ذلك الملعون فما ظفر منهم بأحد ، واحسن الله سبحانه  
خلاصهم ، واصبح يطالبني بثمان المرأة التي كنت اشتريتها  
وماوزنت ثمنها وقد هربت في من هرب ، فقلت : « سلمها الي وخذ  
ثمنها » قال : « ثمنها لي من أمس قبل أن تهرب » والزمني بوزن  
ثمنها ، فوزنته وهان ذلك علي لاسرتي بخلاص أولئك المساكين .

ومن عجائب السلامة اذا جرى بها القدر وسبقت بها المشيئة ان  
الأمير فخر الدين قرا أرسلان بن سقمان بن أرتق ، رحمه  
الله ، عمل على مدينة أمد عنة مرار ، وأنا في خدمته ، ولا يبلغ منها  
مقصودة ، وكان آخر ما عمل عليها أن أميرا من الأكراد كان مديونا  
بأمد راسله ومعه جماعة من أصحابه وقرر الأمر أن تصله العساكر  
في ليلة تواعدوا اليها ويطلعهم بالحبال ويملك أمد ، فعول فخر الدين  
في ذلك المهم على خادم له افرنجي يقال له ياروق ، والعسكر كله  
يمقته ويكرمه لسو أخلاقه ، فركب في بعض العسكر وتقدم ، وركب  
باقي الأمراء فتبعوه ، وتوانى هو في السير فسبقه الأمراء إلى  
أمد ، فأشرف عليهم ذلك الأمير الكردي وأصحابه من برج ودلوا  
اليهم الحبال وقالوا : « اطلعوا » - ماطلع منهم أحد ، فنزلوا  
كسروا أقفال باب المدينة وقالوا « ادخلوا » مادخلوا ، وكل ذلك  
لا اعتماد فخر الدين على صبي جاهل في هذا المهم العظيم دون الأمراء  
الكبار .

وعلم بذلك الأمير كمال الدين علي بن نيسان والبليدة  
والجند ، ففزعوا اليهم ، فقتلوا بعضهم ، ورمى بعضهم  
نفسه ، وقبضوا بعضهم ، ومد بعض النين رموا نفوسهم ، وهو  
نازل في الهواء ، يده كأنه يريد شيئا يتمسك به ، فوقع في يده حبل  
من تلك الحبال التي دلوا أول الليل وماطلعوا فيها فتعلق به ونجا

دون أصحابه ، وإلا أن كفيه انسلختا من الحبل ، هذا وأنا حاضر .

وأصبح صاحب أمد يتبع الذين عملوا عليه فقتلهم ، وسلم ذلك من دونهم ، فسبحان من إذا قدر السلامة انقذ الانسان من لهاة الأسد فذلك حق لا مثل .

كان في حصن الجسر ( ٧٧ ) رجل من أصحابنا من بني كنانة يعرف بابن الأحمر ركب فرسه من حصن الجسر يريد كفر طاب لشغل له ، فاجتاز بكفر نبـونا ( ٧٨ ) وقافلة عابرة على الطريق ، فأروا الأسد ومع ابن الأحمر حربة تلمع ، فصاح اليه أهل القافلة : « يا صاحب الخشت ( ٧٩ ) البراق دونك الأسد » فحمله الحياء من صياحهم أن حمل على الأسد فحاصت به الفرس فوق ، وجاء فبرك عليه ، وكان لما يريد الله من سلامته ، الأسد شبعان ، فالتقم وجهه وجبهته ، فجرح وجهه وصار يلحس الدم ، وهو بارك عليه لايؤذيه ، قال : « ففتحت عيني فأبصرت لهاة الأسد ، ثم جذبت نفسي من تحته ، ورفعت فخذه عني ، وخرجت تعلقت بشجرة بالقرب منه ، وصعدت فيها ، فرأني وجاء خلفي ، فسبقت وطلعت في الشجرة ، فنام الأسد تحت الشجرة وعلاني من الذر شيء عظيم على تلك الجراح - والذري طلب جريح الأسد كما يطلب الفأر جريح النمر - قال : « فرأيت الأسد قد قعد وانصب أذانه كأنه يتسمع ، ثم قام يهرول فاذا قافلة قد أقبلت على الطريق ، كأنه سمع حسها » فعرفوه وحملوه الى بيته ، وكان أثر انياب السبع في جبهته وخديه كوسم النار فسبحان المسلم

قلت : تفاوضنا يوما في ذكر القتال ومؤدبي الشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بابن المنيرة ( ٨٠ ) رحمه الله ، يسمع فقلت له : « يا استاذ ، لو ركبنا حصانا ولبست كزاغندا وخوذة وتقلدت سيفاً وحملت رمحا وترسا ووقفت عند مشهد العاصي موضع ضيق كان الأفرنج ، لعنهم الله ، يجتازون به - ما كان



يجوزك أحد منهم » ، قال : « بلى والله كلهم » ، قلت : « كانوا بها بونك ، ولا يعرفونك » قال : « سبحان الله ، فأنا ما أعرف نفسي ! » ، ثم قال لي « يا فلان ، ما يقاتل عاقل » قلت : « يا استاذ تحكم على فلان وفلان وعدت له رجالا من أصحابنا من شجعان الفرسان أنهم مجانيين ! » قال : « ما هذا قصدت ، انما قصدي ان العقل لا يحضر وقت القتال ، ولو حضر ما كان الانسان يلقي بوجهه السيوف وبصدره الرماح والسهام ، ما هذا شيء يقضي به العقل » .

وكان رحمه الله ، بالعلم أخبر مما هو بالحرب ، فان العقل هو الذي يحمل على الاقدام على السيوف والرماح والسهام أنفة من موقف الجبان وسوء الاحدثة ، ودليل ذلك ان الشجاع يلحقه الزمعة والرعدة وتغير اللون قبل دخوله في الحرب لما يفكر فيه وتحدث به نفسه مما يريد يعمل ويباشره من الخطر ، والذفس ترتاع لذلك وتكرهه ، فاذا بخل في الحرب وخاض غمارها ذهب عنه ذلك الزمعة والرعدة وتغير اللون ، وكل امر لا يحضره العقل يظهر فيه الخطأ والزلال .

ومن ذلك ان الفرنج نزلوا مرة على حماة في أزوارها وفيها زرع مخصب ، فضربوا خيامهم في ذلك الزرع ، وخرج من شيزر جماعة من الحرامية يديرون بعسكر الافرنج يسرقون منه ، فأوا الخيام في الزرع ، فأصبح بعضهم حضر صاحب حماة وقال : « الليلة احرق عسكر الافرنج كله » قال : « ان فعلت خلعت عليك » فلما امسى خرج ومعه نفر على رايه طرحوا النار غربي الخيام في الزرع لتسوقها الرياح الى خيامهم ، فصار الليل بضوء النار كالنهار ، فراهم الافرنج فقصدهم فقتلوا أكثرهم ، ومانجا منهم الا من رمى نفسه بالماء وسبح الى الجنب الآخر ، فهذه آثار الجهل وعواقبه .

ورأيت مثل ذلك ، وان لم يكن في الحرب ، وقد عسكر الافرنج على بانياس في جمع كثير ، ومعه البطرك وقد ضرب خيمة كبيرة جعلها كنيسة يصلون فيها يتولى خدمتها شيخ شماس منهم ، وقد

فرش أرضها بالحلفاء والحشيش ، فكثرت البراغيث فطرح فيه النار ، وقد يبس ، فارتفعت أسننتها وعالت بالخيمة فتركها رمادا ، فهذا لم يحضره العقل

وضدده اننا ركبنا في بعض الايام من شيزر الى الصيد وعمي ، رحمه الله ، معنا وجماعة من العسكر ، فخرج علينا السبع من قصباء دخلناها لصيد الدراج ، فحمل عليه رجل من الجند كردي يقال له زهر الدولة بختيار القبرصي سمي بذلك للطف خلقة ، وكان رحمه الله ، من فرسان المسلمين ، فاستقبله السبع فحاص به الحصان ، وجاءه السبع وهو ملقى ، فرفع رجله ، فتلقمها السبع ، وبادرناه فقتلنا السبع واستخلصناه وهو سالم ، فقلنا له : « يا زهر الدولة ، لم رفعنا رجلك الى فـــــــم السبع ؟ » فقال : « جسمي كما ترونه ضعيف نحيف ، وعلي ثوب وغلالة ، وما في أكسى من رجلي ، فيها الرانات والخف والساق موزا ، فقلت : « اشغله بها عن اضلاعي أو يدي أو رأسي الى أن يفرج الله تعالى » فهذا حضره العقل في مــــوضع تــــزول فيه العقول ، وأولئك ما حضرهم العقل ، فالإنسان أخرج الى العقل من كل ماسواه ، وهو محدود عند العاقل والجاهل .

ومن ذلك ان روجار صاحب انطاكية كتب الى عمي يقول : « قد دفنت فارسا من فرساني في شغل مهم الى القدس ، أسأل أن تدفد خيلك تأخذه من أفامية ويوصلونه الى رمنية » ، فركب وأرسل اليه من أحضره ، فلما لقيه قال : « قد دفنتني صاحبي في شغل وسر له ، لكني رأيتك رجلا عاقلا ، فأنا أحدثك به » فقال له عمي : « من اين عرفت أني عاقل وما رأيتني قبل الساعة ؟ » قال « لأنني رأيت البلاد التي مشيت فيها خربة وبلدك عامر ، فعرفت أنك ماعمرته الا بعقلك وسياستك » ، وحدثه ماجاء فيه .

وحدثني الأمير فضل بن أبي الهيجاء صاحب إربل قال : « حدثني أبو الهيجاء وقال : « بعثني السلطان ملك شاه لما وصل الى الشام

الى الأمير ابن مروان صاحب بيار بكر يقول : « أريد ثلاثين ألف دينار ، فاجتمعت به وأعدت عليه الرسالة ، فقال : « تستريح ونتحدث واصبح أمر أن يدخلوني الحمام ، ونفذ آلة الحمام جميعها فضة ونفذ لي بدلة ثياب ، وقالوا لفراشي : كل آلة الحمام لكم ، فلما خرجت لبست ثيابي ورددت جميع الحوائج ، فتركني أياما ثم أمر لي بالحمام وما أنكر رد الحوائج ، وحملوا معي آلة الحمام أفضل من الآلة « الأولى » وبدلة ثياب أفضل من البدلة « الأولى » وقال الفراش لفراشي كما قال أولا ، فلما خرجت لبست ثيابي ورددت الحوائج والثياب ، فتركني ثلاثة أربعة أيام ثم عاد أدخلني الى الحمام وحملوا معي آلات فضة أفضل من « الأولى » ، وبدلة ثياب أفضل من « الأولى » ، فلما خرجت لبست ثيابي ورددت الجميع ، فلما حضرت عند الأمير قال لي : « يا ولدي » ، نفذت اليك ثيابا مالبستها ، وآلة الحمام ما قبلتها ، ورددتها ، اي شيء سبب هذا ؟ قلت : يا مولاي ، جئت برسالة السلطان في شغل ما انقضى ، أقبل ما تفضلت به وأرجع وما انقضى شغل السلطان فكأنني ماجئت الا في حاجتي ، قال : يا ولدي مارأيت عمارة بلادي وكثرة خيرها وبساتينها وكثرة فلاحيتها وعمارة ضياعها أتراني كنت أتلف هذا كله من أجل ثلاثين ألف دينار ؟ والله إن الذهب قد كيسته من يوم وصولك ، وانما انتظرت أن يتجاوز السلطان بلادي وتلحقه بالمال خوفا من أن استقبله بالذي طلب ، فيطلب مني اذا بنا من بلادي اضعافه ، فلا تشغل قلبك ، فشغلك قد انقضى ، ثم نفذ لي الثلاث بدلات ، التي كان نفذها لي ورددتها ، مع جميع حوائج الحمام التي نفذها لي في الثلاث بدلات ، فقبلتها ، ولما تجاوز السلطان بيار بكر ، أعطاني المال فحملته ولحقت به السلطان » .

وفي حسن السياسة ربح كثير من عمارة البلاد ، فمن ذلك ان أتاك زندي ، رحمه الله ، خطب بنت صاحب خلاط وقد مات أبوها وأمها مدبرة البلد ، ونفذ حسام الدولة بن دلاج خطبها لابنه ، وهو صاحب بدليس فسار أتاك بعسكر حسن الى خلاط على غير الطريق المسلوك لأجل درب بدليس فسلك فيها الجبال ، فكنا ننزل



بغير خيام ، وكل واحد في موضعه من الطريق حتى وصلنا خلاط  
فخيم أتابك عليها وبخلنا قلعتها وكتبنا المهر .

فلما انقضى الشغل أمر أتابك أن يأخذ صلاح الدين معظم العسكر  
ويسري الى بدليس يقاتلها فركبنا أول الليل وسرنا وأصبحنا على  
بدليس ، فخرج الينا حسام الدولة صاحبها ، فلقينا على فسحة من  
البلد ، وأنزل صلاح الدين في الميدان ، وحمل اليه الضيافة  
الحسنة ، وخدمه وشرب عنده في الميدان وقال : « يامولاي ، اي شيء  
ترسم ؟ فقد تعנית وتعبت في مجيئك » قال : « اتابك احذقه خطبتك  
للبنات التي كان خطبها ، وأنت بذلت لهم عشرة آلاف دينار نريدها  
مذك » قال : « السمع والطاعة » فعجل له بعض المال واستمهل  
بباقيه اياما عينا ، ورجعنا وبلده بحسن سياسته عامر ما دخل عليه  
خلل .

وهذا قريب مما جرى لنجم الدولة مالك بن سالم رحمه  
الله ( ٨١ ) وذلك ان جوسلين أغار على الرقة والقلعة فأخذ كل  
ما عليها وسبي وساق غنائم كثيرة ، ونزل مقابل القلعة وبينهم  
الفرات ، فركب نجم الدولة مالك في زورق ومعه ثلاثة أربعة من  
غلمانة وعبر الفرات الى جوسلين وبينهما معرفة قديمة ، ولماك عليه  
جميل ، وظن جوسلين أن في الزورق رسولا من مالك ، فجاءه واحد  
من الأفرنج وقال : « هذا مالك في الزورق » ، قال : « ماهر  
صحيح » ، فأتاه آخر قال : « نزل مالك من الزورق وهو جاءني  
يمشي » ، فقام جوسلين والتقاء وأكرمه ورد عليه جميع ما كان أخذه  
من الغنائم والسبي ، ولولا سياسة نجم الدولة كان خرب بلده .

اذا انقضت المدة لم تدفع الشجاعة ولا الشدة .

شاهدت يوما وقد زحف الينا عسكر الأفرنج يقاتلنا ، ومضى  
بعضهم مع طغديكين أتابك الى حصن الجسر يقاتله ، وكان أتابك

اجتمع هو وايلغازي بن أرتق و الأفرنج في افامية لمحاربة عساكر السلطان وكان وصل بها الى الشام اسباسلار برسق بن برسق ، وقد نزل حماة يوم الأحد تاسع عشر محرم سنة تسع وخمس مائة فأما نحن فقاتلونا بسا القرب من سـور المدينة ، فاستظهرنا عليهم ودفعناهم وانبسطنا معهم ، فشاهدت رجلاً من أصحابنا يقال له محمد ابن سرايا وهو شاب شديد أيد ، قد حمل عليه فارس من الأفرنج لعنه الله ، فطعنه في فخذه فنفذ القنطارية فيها ، فمسكها محمد وهي في فخذه ، وجعل الأفرنجي يجذبها ليأخذها ومحمد يجذبها ليأخذها فترجع في فخذه حتى قورت فخذه ، واستلب القنطارية بعد أن أتلف فخذه ، ومات بعد يومين ، رحمه الله .

ورأيت في ذلك اليوم ، وأنا في جانب الناس في القتال ، فارساً قد حمل على فارس منا طعن حصانه قتله ، وصاحبنا راجل في الأرض ولا أدري من هو لبعد ما بيننا ، فدفعت حصاني اليه خوفاً عليه من الأفرنجي الذي طعنه ، وقد بقيت القنطارية في الحصان وهو ميت قد خرجت مصارينه ، والأفرنجي قد اعتزل عنه غير بعيد وجذب سيفه ووقف مستقبلاً ، فلما وصلته وجدته ابن عمي ناصر الدولة كامل بن مقلد ، رحمه الله ، فـوقفت عليه وأخليت له ركابـي وقلت : « اركب » فلمـا ركب رددت رأس حصـاني الى المغرب ، والمدينة من شرقينا ، قـال لي : « الى أين تروح ؟ » قلت : « الى هذا الذي طعن حصانك ، فهو فرصة » فمد يده وقبض على عنان الحصان وقال : « ماتطاعن وعلى حصانك لا بسان ، اذا اوصلتني ارجع طاعنه » فمضيت اوصلته وعدت الى ذلك الكلب ، وقد نخل في أصحابه.

وشاهدت من لطف الله تعالى وحسن دفاعه أن الأفرنج ، لعنهم الله ، نزلوا علينا بالفارس والراجل ، وبيننا وبينهم العاصي وهو زائد زيادة عظيمة لا يمكنهم أن يجوزوا إلينا ، ولا نقدر نحن نجوز اليهم ، فنزلوا على الجبل بخيامهم ، ونزل منهم قوم الى البساتين

وهي من جانبهم ، هملوا خيلهم في القصيل وناموا ، فتجرد شباب من رحالة شيزر وخلعوا ثيابهم وأخذوا سيوفهم وسبحوا الى اولئك النيام ، فقتلوا بعضهم ، وتكاثروا على اصحابنا ، فرموا نفوسهم الى الماء وجازوا ، وعسكرا الفرنج قد ركب من الجبل مثل السيل ، ومن جانبهم مسجد يعرف بمسجد ابي المجد بن سمية فيه رجل يقال له حسن الزاهد ، وهو واقف على سطح يذوب في المسجد يصلي وعليه ثياب سود صوف - ونحن نراه ومالنا اليه سبيل ، وقد جاء الا فرنج فنزلوا على باب المسجد وصعدوا اليه ونحن نقول: لاحول ولا قوة الا بالله الساعة يقتلونه ، فلا والله ما قطع صلاته ولا زال من مكانه ، وعاد الا فرنج نزلوا وركبوا خيلهم وانصرفوا وهو واقف مكانه ، ولانذك ان الله سبحانه اعماهم عنه وستره عن ابصارهم ، فسبحان القادر الرحيم .

ومن الطاف الله تعالى ان ملك الروم لما نزل على شيزر في سنة اثنين وثلاثين وخمس مائة خرج من شيزر جماعة من الرجالة للقتال فاقتطعهم الروم فقتلوا واسروا بعضا في جملة من اسروا زاهد من بني كردوس من الصالحية ، من مولدي محمود بن صالح (٨٢) صاحب حلب ، فلما عاد الروم كان معه - - - - - مأسورا ، فوصل القسطنطينية ، فهو في بعض الايام فيها اذ لقيه انسان فقال: «أنت ابن كردوس؟» قال «نعم» قال «سر معي اوقفني على صاحبك» فسار معه حتى اراه صاحبه ، فقال له على ثمنه حتى تقرر بينه وبين الرومي مبلغ ارضاه فوزن له الثمن واعطى ابن كردوس نفقة وقال: «تبلى بها الى اهلك ، وامن في دعة الله تعالى ، فخرج من القسطنطينية وتوصل الى ان عاد الى شيزر ، وذلك من فرج الله تعالى وخفي لطفه ، ولا يدري من الذي شراه وأطلقه .

وقد جرى لي ما يشبه ذلك لما خرج علينا الا فرنج في طريق مصر وقتلوا عباس بن ابي الفتوح وابنه نصرا الكبير ، انهزمنا نحن الى جبل قريب منا ، فصعد الناس فيه رجالة يمشون يجرون خيلهم وأنا



على اكديش ولا استطيع المشي ، فصعدت وأنا راكب وسفوح ذلك  
الجبل كلها ذقارة وحصى كلما وطئة الفرس انهرت تحت  
قوائمه ، فضربت الاكديش ليطلع فما استطاع ، ونزل والحصى  
والذقارة تنزل به ، فترجلت عنه وأقمته ووقفت لا أقدر على  
المشي ، فنزل الي رجل من الجبل فمسك بيدي وبرذوني في يدي  
الأخرى حتى اطلعني ، ولا ، والله ، ما أدري من هو ولا عدت  
رأيته .

وقد كان في ذلك الوقت الصعب يمتنن فيه بيسير  
الأحسان ، ويطلب المكافأة عنه ، ولقد شربت من بعض الأتسراك  
شربة ماء اعطيته عنها بينارين ، وما زال بعد وصولنا دمشق  
يقتضيني حوائجه ويتوصل بي الى اغراضه لأجل تلك الشربة التي  
سقانيها ، وما كان ذلك الذي اعانني الا ملكا رحمني الله تعالى  
فأغاثني به .

ومن لطف الله تعالى ما حدثني به عبد الله المشرف قال «حدثت  
بحيزان ( ٨٣ ) قيدت وضيق علي ، فأنا في الحبس والموكلون على  
بابه فرأيت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في النوم فقال: «أقلع  
القيد وأخرج» فانتبهت جذبت القيد ، فخرج من رجلي ، وقمت الى  
الباب أريد افتحه ، فوجدته مفتوحا ، فتخطيت الرجال الموكلين الى  
مذفس في السور ما ظننت يدي تخرج منه ، فخرجت منه ، ووقعت  
على مزبلة ، فبقي فيها آثار وقوعي وأثار رجلي ، ونزلت في واد  
حول السور وبخلت مغارة في سفح الجبل من ذلك الجانب وأنا أقول  
في نفسي: الساعة يخرجون يرون أثري ويأخذوني ، فأرسل الله  
سبحانه ثلجا غطى ذلك الأثر ، وخرجوا يطوفون علي ، وأنا أراهم  
نهارهم ذلك ، فلما امسيت وأمنت الطلب خرجت من تلك المغارة  
وسبرت الى مأمني » ، كان هذا الرجل مشرفا على مطبخ صلاح  
الدين محمد بن أيوب اليغسانياتي رحمه الله .

ومن الناس من يقاتل كما كان الصحابة ، رضوان الله عليهم ، يقاتلون الجنة لا لرغبة ولا لسمعة

ومن ذلك أن ملك اللمان الافرنجي ، لعنة الله ، لما وصل الشام اجتمع اليه كل من بالشام من الافرنج ، وقصد دمشق ، فخرج عسكري دمشق واهلها لقتالهم وفي جملتهم الفقيه الفندلاوي والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولي ، رحمهما الله ، وكانا من خيار المسلمين ، فلما قاربوهم قال الفقيه إلى متى نحن وقوف؟ قال «سر على اسم الله تعالى » فتقدما قاتلا حتى قتلا رحمهما الله ، في مكان واحد .

ومن الناس من يقاتل للوفاء ، فمن ذلك ان رجلا من الاكراد يقال له فارس ، وكان كاسمه فارسا وأي فارس . فحضر ابي وعمي ، رحمهما الله ، وقعة كانت بينهما وبين سيف الدولة خالف ابن ملاعب عمل عليهم فيها وغدر بهم ، وقد حشد وجمع وهم غير متأهبين لما جرى ، وسبب ذلك انه راسلهم وقال: «نمضي الى اسفونا ( ٨٤ ) وفيها الافرنج نأخذها » فسبقه اصحابنا اليها وترجلوا وزحفوا الى الحصن ذقوبه ، وهم في القتال وابن ملاعب وصل ، فأخذ خيل من كان ترجل من اصحابنا ووقع القتال بينهم ، بعدما كان للافرنج ، واشتد بينهم القتال ، فقاتل فارس الكردي قتالا عظيما وجرح عدة جراح ، وما زال يقاتل ويجرح حتى اثنى بالجراح ، وانفصل القتال ، فاجتاز به ابي وعمي ، رحمهما الله ، وهو محمول بين الرجال فسوقفا عليه «وهنياء» بالسلامة . فقال «والله ما قاتلت أريد السلامة ، لكن لكم علي جميل وفضل كثير وما رأيتم في شدة مثل هذا اليوم ، فقلت «اقاتل بين ايديكم واجازيكم عن جميلكم وأقتل قدامكم».

وقضى الله سبحانه انه عوفي من تلك الجراح ومضى الى جيلة وفيها فخر الملك بن عمار وفي اللاذقية الافرنج ، فخرجت خيل من جيلة تريد الغارة على اللاذقية ، وخرجت خيل من اللاذقية تريد



الغارة على جبلة ، فنزل الفريقان في الطريق وبينهما رابية ، فطلع فارس من الأفرنج من جانبهم يكشف الرابية وطلع فارس الكردي من الجانب الآخر كشف لأصحابه ، ، فالتقى الفارسان على متن الرابية فحمل كل واحد منهما على صاحبه فاختلفا طعنتين فوقعا ميتين وبقيت الحصن تتصاول على الرابية ، والفارسان قتيلا .

وكان لفارس هذا عندنا ولد اسمه علان من الجند له الخيل الملاح والعدة الحسنة ، ولكن ما كان كأبيه ، فنزل علينا بذكري صاحب أنطاكية يوما وقاتلناه قبل ضرب الخيام ، وهذا علان بن فارس على حصان مليح باغز (٨٥) من أحسن الخيل ، وهو واقف على رفعة من الأرض ، فحمل عليه فارس من الأفرنج وهو كالغافل ، فطعن حصانه في رقبته نفذ القنطارية ، فشب الحصان رمى علان ، وعاد الأفرنجي ، والحصان معارضه ، والقنطارية في رقبته ، كأنه يجنبه ، يتمختر بغنيمة حسنة .

وعلى ذكر الخيل ففيها الصبور كالرجال وفيها الخوار ، فمن ذلك انه كان في جننا رجل كردي يقال له كامل المشطوب فيه الشجاعة واللين والخير ، رحمه الله ، وله حصان أدهم أصم مثل الجمل ، فالتقى هو وفارس من الأفرنج فطعن الأفرنجي حصانه في موضع القلابة فمالت رقبته من شدة الطعنة وخرجت القنطارية من أصل رقبة الحصان فضربت فخذ كامل المشطوب وخرجت من الجانب الآخر ، وما تززعزع الحصان من تلك الطعنة ، ولا فارسه ، فكنت أرى ذلك الجرح الذي في فخذيه بعد ما اندمل وختم وهو كأكبر ما يكون من الجراح ، وسلم الحصان وعاد حضر عليه القتال ، فالتقى هو وفارس من الأفرنج ، فطعن الحصان في جبهته خسفها ولم يتزعزع ، وسلم من تلك الطعنة الثانية ، فكانت بعد ان اختمت اذا اطبق الانسان كفه وانخلها في جبهة الحصان في موضع الجرح ، وسعها.

وكان من طريف ما جرى في ذلك الحصان أن أخي عز الدولة أبا

الحسن عليا رحمه الله ، اشتراه من كامل المشطوب ، وكان ثقیل العدو ، فاخرجه في ضمان قرية كانت بيننا وبين فارس من افرنج كفرطاب ، فبقي عنده سنة ثم مات ، فأرسل الينا يطلب ثمنه ، قلنا «اشتريته وركبته ، ومات عندك ، كيف تطلب ثمنه قال » انتم سقيتموه شيئا يموت منه بعد سنة « فعجبنا من جهله وسخافة عقله .

وجرح تحتي حصان على حمص شقت الطعنة قلبه وأصابه عنة سهام ، فاخرجني من المعركة ومنخرأه يدميان بسالدم كالفرلتين ، ( ٨٦ ) وما انكرت منه شيئا ، وبعد وصولي الى اصحابي مات .

وجرح تحتي حصان في بلد شيزر في حرب محمود بن قراجا ثلاثة جراح ، وأنا اقاتل عليه ، ولا اعلم ، والله انه قد جرح ، لاني ما انكرت منه شيئا .

وأما خورها وضعفها على الجراح ، فإن عسكر دمشق نزل على حماة ، وهي لصالح الدين محمد بن ايوب اليغسياني ودمشق لشهاب الدين محمود بن بوري بن طغديكين ، وأنا بها ، وزحفوا الينا في جمع كثير ، ووالي حماة شهاب الدين احمد بن صلاح الدين وهو على قل مجاهد ( ٨٧ ) فجاءه الحاجب غازي التلي فقال : « قد انتشرت الرجالة ، والخوذ تتلامع بين الخيام ، والساعة يحملون على الناس يهلكونهم » ، فقال « امض ربهـم » فقال : « والله ما يردهم الا انت او فلان » ، يعنيني ، فقال لي : تخرج تردهم ، فقلعت زربية كانت على غلام لي لبستها وخرجت رددت الناس بالدبوس ، وتحتي حصان أشقر من أجود الخيل واتلعا ، فلما رددت الناس زحفوا الينا ، وما برا من سور حماة فارس غيري ، منهم من دخل المدينة وايقنوا انهم مأخوذون ، ومنهم من هو مترجل في ركابي ، فاذا حملوا علينا اخرت الحصان بعنانه وأنا مستقبلهم ، وأذا عادوا مشيت خلفهم شبرة لضيق المجال

وازيحام الناس ، فضربت حصاني ذشابة في ساقه خمشته ، فوقع بي وقام ، ووقع ، وأنا أضربه حتى قال لي الرجال النين في ركابي «ادخل الى الباشورة (٨٨) اركب غيره» فقلت والله ما انزل عنه» فرأيت من ضعف ذلك الحصان ما لم اره من غيره.

ومن حسن صبر الخيل ان طراد بن وهيب الزميري حضر القتال بين بني زمير ، وقد قتلوا علي بن شمس الدولة سالم بن مالك والي الرقة وملكوها ، والحرب بينهم وبين اخيه شهاب الدين مالك بن شمس الدولة ، وتحت طراد بن وهيب حصان له من أجود الخيل له قيمة كبيرة ، فطعن في خاصرته ، فخرجت مصارينه ، فشدها طراد في السموط لا يدوسها فيقطعها ، وقاتل حتى انقضى القتال ، فدخل به الى الرقة ، فمات .

قلت اذكرني ذكر الخيل بأمر جرى لي مع صلاح الدين محمد بن ايوب اليغسياني ، رحمه الله ، وذلك ان ملك الأمراء اتابك زنكي ، رحمه الله ، نزل على دمشق في سنة ثلاثين وخمس مائة بأرض داريا وقد راسله صاحب بعلبك جمال الدين محمد بن بوري ابن طغديكين ، رحمه الله ، في الوصول اليه ، وخرج من بعلبك متوجها الى خدمة اتابك ، فبلغه أن عسكر دمشق خرج يريد أخذه ، فأمر صلاح الدين ان نركب للقائه ودفن الدمشقيين عنه ، وهو قد ركب ووقف عند خيمته ، فركبت في الوقت ، فقال : « كنت قد علمت بركوبي قلت : (لا والله ) ، قال : « الساعة نذنت اليك ، فركبت في الوقت ! قلت : « يا مولاي حصاني يأكل شعيره ، ويلجمه الركابي ويقعد وهو في يده على باب الخيمة ، وأنا ألبس عدتي وأتقلد سيفي وأنام ، فلما جاءني رسولك ما كان لي ما يعوقني » .

فوقف الى أن اجتمع عنده جماعة من العسكر ، وقال : « البسوا سلاحكم » ، وقد لبس أكثر الحاضرين وأنا الى جانبه ، ثم قال : « كم أقول لكم البسوا سلاحكم ؟ » قلت : « يا مولاي ، لا تكون



تعنيني ؟ قال : « نعم » ، قلت : « والله ما أقدر البس ، نحن في أول الليل ، وكذا اغندي فيه زريبتان مطبقتان إذا رأيت العدو لبسته » ، فسكت

وسرنا فصباحنا عند ضمير ، فقال لي : « ما ننزل نأكل شيئا ؟ فقد جعت من السهر » ؟ قلت : « الأمر لك » ، فنزلنا فما استقر على الأرض حتى قال : « أين كزاغندك فأمرت الغلام فأحضره ، وأخرجته من عيبته وأخرجت السكين فتقتته عند صدره ، وأظهرت جانب الزريبتين - وكان فيه زرية أفرنجية الى نيله وفوقها أخرى الى وسطه على كل زرية البطائن واللبد واللاسين ووبر الارنب ، فالتفت الى غلام له كلمه بالتركي ولا أدري ما يقول ، فاحضر بين يديه حصانا كميتا كان اعطاه اياه اتابك في تلك الايام كالصخرة الصماء قلت من قنة الجبل ، فقال : « هذا الحصان يصلح لهذا الكزاغند ، سلمه الى غلام فلان » ، فسلمه الى غلامي

قلت كان عمي عز الدين ، رحمه الله ، يتفقد مني حضور فكري في القتال ، ويمتحنني بالمسألة ، فنحن يوما في بعض الحرب التي كانت بيننا وبين صاحب حماة وقد حشد وجمع ووقف على ضيعة من ضياع شيزر يحرق وينهب ، فجرد عمي من العسكر نحو من ستين سبعين فارسا وقال لي « خذهم وسر اليهم » ، فمضينا نترامضهم والتقيننا بواد خيلهم فكسرناهم وطعنا فيهم وقلعناهم من موضعهم الذي كانوا عليه ، ودفنت فارسا من اصحابي الى عمي وابي ، رحمهما الله ، وهما واقفان ومعهما باقي العسكر وراجل كثير أقول لهما : « سيرا بالرجالة فقد كسرتهم » ، فسارا الي ، فلما قربا حملنا عليهم كسرناهم ، ورموا خيلهم في الساروت (٨٩) ، وعبروه سباحة وهو زائد ، ومضوا وعدنا بالنصر ، فقال لي عمي : أي شيء دفنت تقول لي ؟ قلت : « دفنت أقول لك تقدم بالرجالة فقد كسرناهم » ، فقال : « مع من دفنت

الي ؟» قلت : « مع رجب العبد » ، قال : « صدقت » ، ما أراك كنت إلا حاضر القلب ، ما أدهشك القتال .

ومرة أخرى اقتتلنا نحن وعسكر حماة ، وكان محمود بن قراجا قد استعان على قتالنا بعسكر أخيه خير خان بن قراجا صاحب حمص ، وكان قد ظهر لهم في ذلك الزمان حمل الرماح المؤلفة بوصل الرمح الى بعض رمح آخر بحيث يصير طوله عشرين ذراعا او ثمانية عشر ذراعا ، فوقف مقابلي موكب منهم ، وأنا في سرية نحو من خمسة عشر فارسا ، فحمل علينا منهم علوان العراقي ، وهو من فرسانهم وشجعانهم ، فلما بنا منا وما تززعنا رجع ورد رمحه الى خلفه ، فرأيت كالحبل مطروحا على الأرض لا يقدر يرفعه ، فأطلقت حصاني عليه ، فطعنته وقد وصل إلى أصحابه ، وعدت وراياتهم على رأسي ، فلقاهم أصحابي وفيهم أخي بهاء الدولة منذر ، رحمه الله ، فريهم وقد انقطع نصف يرقى ( ٩٠ ) في كزاغند علوان ، ونحن بالقرب من عمي ، وهو يراني ، فلما انفصل القتال قال لي عمي : « أين طعنت علوان العراقي ؟ » قلت : « ارت ظهره ، فمال الهواء بالبندق فوق الرمح في جانبه » .

قال : « صدقت ، ما كنت إلا حاضر القلب ذلك الوقت » .



### ( مع الأسود وسائر الحيوانات )

وما رأيت الوالد ، رحمه الله ، نهاني عن قتال ولا ركوب خطر مع ما كان يرى في وأرى من اشفاقه وإيثاره لي ، ولقد رأيت يوماً وكان عندنا بشير رهائن عن بغدوين ملك الأفرنج على قطعية قطعها لحسام الدين تمر تاش بن ايلغازي ، رحمه الله ، فرسان أفرنج وأرمن ، فلما وفوا ما عليهم وأرادوا الرجوع الى بلادهم نفذ خيرخان صاحب حمص خيلاً كمذوا لهم في ظاهر شيزر ، فلما توجه الرهائن خرجوا عليهم أخذوهم ، ووقع الصائح ، فركب عمي وأبي ، رحمهما الله ، ووقفوا ، وكل من يصل اليهما قد سيراه من خلفهم ، وجئت أنا فقال لي أبي: « اتبعهم بمن معك ، وأرموا أنفسكم عليهم ، واستخلصوا رهائنكم » فتبعتهم وأدركتهم بعد ركض أكثر النهار واستخلصت من كان معهم وأخذت بعض خيل حمص ، وعجبت من قوله: « ارموا نفوسكم عليهم ».

ومرة كنت معه ، رحمه الله ، وهو واقف في قاعة داره وإذا حية عظيمة قد اخرجت رأسها على أفريز رواق القنطرة التي في الدار ، فوقف يبصرها ، فحملت سلماً كان في جانب الدار أسندته تحت الحية وصعدت اليها ، وهو يراني فلا ينهاني ، واخرجت سكيناً صغيرة من سوطي ، وطرحتها على رقبة الحية وهي نائمة وبين وجهي وبينها دون الذراع ، وجعلت أحز رأسها ، وخرجت التفت على يدي ، الى أن قطعت رأسها وألقيتها الى الدار ، وهي ميتة .

بل رأيت ، رحمه الله ، وقد خرجنا يوماً لقتال أسد ظهر على الجسر فلما وصلناه حمل علينا من أجمة كان فيها ، فحمل على الخيل ، ثم وقف ، وأنا وأخي بهاء الدولة منذ ، رحمه الله ، بين

- ٥٦٦٣ -

الأسد وبين موكب فيه أبي وعمي ، رحمهما الله ، ومعهما جماعة من الجند ، والأسد قد ربض على حرف النهر يتضرب ب صدره على الأرض ويهدر ، فحملت عليه ، فصاح علي أبي ، رحمه الله « لا تستقبله ، يا مجذون ، فيأخذك ! » فطعنته . فلا والله ما تحرك من مكانه . ومات موضعه .

فما رأيته نهاني عن قتال غير ذلك اليوم .

خلق الله عز وجل خلقه أطوارا (٩١) مختلفي الخلق والطبائع : الأبيض والأسود والجميل والقبيح ، والطويل والقصير ، والقوي والضعيف ، والشجاع والجبان ، بمقتضى حكمته وعموم قدرته .

رأيت بعض أولاد الأمراء التركمان الذين كانوا في خدمة ملك الأمراء أتاك زندي ، رحمه الله ، وقد أصابته نشابة ما دخلت في جلده مقدار شعيرة فاسترخى وانحلت أعضاؤه وانقطع كلامه وغاب ذهنه ، وهو رجل مثل الأسد ، أجسم ما يكون من الرجال ، فأحضروا له الطبيب والجرائحي . فقال الطبيب : « ما به بأس ، بل متى ما جرح ثانية مات » . فهدأ وركب وتصرف كما كان ، ثم أصابته نشابة أخرى بعد مدة أحقر من « الأولى » وأقل نكاية ، فمات .

ورأيت ما يقارب ذلك أيضا ، كان عندنا بشيرز اخوان يقال لهما بنو مجاجو الواحد اسمه أبو المجد والآخر محاسن وهما ضمان رحاة الجسر بثمان مائة دينار ، وعند الرحا مذبح للغنم يذبح فيه جزارو البلد ويجتمع الزنابير على آثار الدم ، فاجتاز محاسن بن مجاجو يوما الى الرحا ، فأسعه زنبور ، فاندفع وانقطع كلامه وأشرف على الموت ، وبقي كذلك مدة ، ثم أفاق وانقطع عن الرحا مدة فعاتبه أخوه أبو المجد وقال له : « يا أخي ، ضمنا هذه الرحا بثمان مائة دينار ولا تشرف عليها ولا تبصرها؟ وغدا ينكسر علينا ضمانها ونموت في الحبس » ، فقال له محاسن : « أنت مقصودك ان

يأسعني زنبور أخـر فيقتلني . وأصـبح جـاء الى  
الرحا ، فأسعه ، زنبور ، فمات فأيسر الأشياء يقتل اذا فرغ  
الأجل ، والفأل موكل بالمنطق .

فمن ذلك أنه ظهر عندنا بأرض شيزر سبع ، فركبنا اليه فوجدنا  
غلاما للأمير اسمه شماس ، فقال له عمي : « أين الأسد ؟ »  
قال : « في تلك الحلفاء » قال : « سر قدامي اليها » . قال : « انت  
مقصودك ان يخرج الأسد يأخذني » ومشى قدامه ، فخرج الأسد كأنه  
مرسل الى شماس فأخذه ، فقتله دون الناس ، وقتل الأسد .

وشاهدت من الأسد ما لم أكن لأظنه ، ولا اعتقدت ان الأسد  
كالناس فيها الشـجاع وفيها الجبـان ، وذلك أن  
جوبان ( ٩٢ ) الخيل جاءنا يوما يركض وقال : « في أجمة تل التلول  
ثلاثة سباع » ، فركبنا فخرجنا اليها ، وإذا لبوة خلفها  
اسدان ، فدرنا في تلك الأجمة ، فخرجت علينا اللبوة ، فحملت على  
الناس ووقفت ، فحمل عليها أخي بهاء الدولة أبو المغيث  
مذقذ ، رحمه الله ، طعنها قتلها ، وتكسر رمحه فيها .

ورجعنا الى الأجمة ، فخرج علينا احد السبعين فـطرد  
الخيـل ، ووقفت أنا وأخي بهاء الدولة في طريقه عند عودته من طرد  
الخيـل ، فإن الأسد اذا خرج من موضع لا بد له من الرجوع اليه بلا  
شبهة ، وجعلنا اعجاز خيلنا اليه ، وردنا رماحنا نحوه ونحن  
نعتقد انه يقصدنا فنذشب الرماح فيه فنقتله ، فما راعنا الا وهو  
عابر علينا كالريح الى رجل من اصحابنا يقال له سعد الله  
الشيباني ، فضرب فرسه رماها ، فطعنته وسطت القنطارية فيه  
فمات مكانه .

ورجعنا الى الاسد الآخر ومعنا نحو من عشرين رجلا من  
الأرمن الأجناد رماة ، فخرج السبع الآخر وهو أعظمها خلقا  
يمشي ، وعارضه الأرمن بالذشاب ، وأنا معارض الأرمن انتظره

يحمل عليهم يأخذ واحدا منهم فأطعنه وهو يمشي ، وكالما وقعت فيه  
نشابة قد هدر ولوح بنذبه فأقول: « الساعة يحمل » ثم يعـود  
يمشي ، فما زال كذلك حتى وقع ميتا ، فرأيت من ذلك الأسد شيئا ما  
ظننته .

ثم شاهدت من الأسد أعجب من ذلك .

كان بمدينة دمشق جرو أسد قد رباه سباع معه حتى كبر وصار  
يطلب الخيل وتأذى الناس به ، ف قيل للأمير معين الدين ، رحمه  
الله ، وأنا عنده: « هذا السبع قد أذى الناس . وهو في  
الطريق » ، وكان على مصطبة بالقرب من دار معين الدين في النهار  
والليل ، فقال : « قولوا للسباع يجي به » . فقال للـخـوان  
سلار ( ٩٣ ) « أخرج من ذبائح المطبخ خروفا اتركه في قاعة الدار  
حتى نبصر كيف يكسره السبع » . فأخرج خـروفا الى قاعة  
الدار ، وبخل السباع ومعه السبع ، فساعة راه الخروف ، وقد  
ارسله السباع من السلسلة التي في رقبتـه ، حمل عليه  
فمنطحه ، فانهزم السبع وجعل يدور حول البركة والخروف خافه  
يطرده وينطحه ، ونحن قد غلبنا الضحك عليه ، فقال الأمير معين  
الدين ، رحمه الله : « ذا سبع منحوس » أخرجوه اذبحوه  
واسلخوه ، وهاتوا جلده . فذبحوه وسلخوه ، واعتق ذلك الخروف  
من الذبح .

ومن عجيب أمور السباع أن أسدا ظهر عندنا في أرض  
شيزر ، فخرجنا اليه ومعنا رجالة من أهل شيزر فيهم غلام  
للمعند ( ٩٤ ) الذي كان يطيعه أهل الجبل ويكاد ان يعبد ، ومع  
ذلك الغلام كلب له ، فخرج الأسد على الخيل ، فجالت قدماه  
جافلة ، وبخل في الرجالة ، فأخذ ذلك الغلام وبرك عليه ، فدوثب  
الكلب على ظهر الأسد ، فذفر عن الرجل وعاد الى الأجمة ، خرج  
الرجل الى بين يدي والدي ، رحمه الله ، يضحك وقال : « يا



- ٥٦٦٦ -

مولاي ، وحياتك ، ما جرحني ولا أذاني . وقتلوا الأسد ، وبخل  
الرجل فمات في تلك الليلة من غير جرح أصابه الا انقطع قلبه .  
فكنت أعجب من اقدام ذلك الكلب على الأسد ، وكل الحيوان يذفر  
من الأسد ويتجنبه .

ولقد رأيت رأس الأسد يحمل الى بعض دورنا فتري السنانير  
تهرب من تلك الدار وترمي نفوسها من السطوحات ، وما رأت  
الأسد قط ، وكنا نسلخ الأسد ونرميه من الحصن الى سدفع  
الباشورة فلا تقربه الكلاب ولا شيء من الطير ، واذا رأت الايقان  
الحم نزلت اليه ثم دنت منه صاحت وطارت ، وما أشبه هيبة  
الأسد على الحيوان بهيبة العقاب على الطير ، فان العقاب يبصره  
الفروج الذي مارأى العقاب قط فيصبح وينهزم ، هيبة القاها الله  
تعالى في قلوب الحيوان لهذين الحيوانين.

وعلى ذكر السباع كان عندنا أخوان من أصحابنا يقال لهما بنو  
الرعام رجالة يترددان من شيزر الى اللاذقية - واللاذقية لعمي عز  
الدولة أبي المرفع نصر ، وفيها أخوه عز الدين أبو العساكر  
سلطان ، رحمهما الله - بالكتب بينهما قالوا: «خرجنا من اللاذقية  
فأشرفنا من عقبة الميعة ، وهي عقبة عالية تشرف على ما تحتها من  
الوطا ، فرأينا السبع وهو رابض على نهر تحت العقبة ، فوقفنا  
مكاننا ما نجسر على النزول من خوف الأسد ، فرأينا رجلا قد  
أقبل ، فصحنا اليه ولوحنا بثيابنا إليه نحذره من الأسد فما  
سمعنا ، وأوتر قوسه وطرح فيه نشابة ومشى ، فراه الأسد فوثب  
إليه ، فضربه به ما أخطأ قلبه ، فقتله ، ومشى اليه فتمسم  
قتله ، وأخذ نشابته وجاء الى ذلك النهر فنزع زربوله وقلع ثيابه  
ونزل اغتسل في الماء ، ثم طلع لبس ثيابه ، ونحن نراه ، وجعل  
يذفض شعره ليكشفه من الماء ، ثم لبس فرقة زربوله واتكى على  
جنبه وطول في الاتكاء ، فقلنا: والله ما قصر ، ولكن على من  
يتيه؟ ، ونزلنا إليه وهو على حاله فوجدناه ميتا ما ندري ما  
أصابه ، فنزعنا فرقة الزربول من رجله وإذا فيه عقرب صغيرة قد



لسعته في ابهامه ، فمات لوقته ، فعجبا من ذلك الجبار الذي قتل الأسد وقتله عقرب مثل الاصبع ، فسبحان الله القادر النافذ المشيئة في الخلق

قلت: قاتلت السباع في عدة مواقف لا أحصيها ، وقتلت عدة منها ما شركني في قتلها احد ، سوى ما شاركني فيه غيري ، حتى خبرت منها وعرفت من قتالها ما لم يعرفه غيري ، فمن ذلك ان الأسد مثل سواه من البهائم يخاف ابن آدم ويهرب منه وفيه غفلة وبله ، ما لم يخرج فحينئذ هو الأسد ، وذلك الوقت يخاف منه ، وإذا خرج من غاب أو أجمه وحمل على الخيل فلا بد له من الرجوع الى الأجمة التي خرج منها ، ولو أن النيران في طريقه ، وكنت أنا قد عرفت هذا بالتجربة ، فمتى حمل على الخيل وقفت في طريق رجوعه ، قبل ان يجرح ، فإذا رجع تركته الى ان يتجاوزني وطعنته ، قتلته •

فأما النمر فقتالها أصعب من قتال الأسد لخفتها وبعد وثبتها ، وهي تدخل في المغارات والمجاحر كما تدخل الضباع ، والأسد ما تكون الا في الغابات والآجام ، وقد كان ظهر عندنا نمر في قرية يقال لها معرZF ( ٩٥ ) من أعمال شيزر ، فركب اليه عمي عز الدين ، رحمه الله ، وأرسل إلي فارسا وأنا راكب في شغل لي يقول: «الحقني الي معرZF» ، فلحقته وجئنا الى الموضع الذي زعموا ان النمر فيه ، فما رأيناه ، وكان هناك جب ، فنزلت عن حصاني ومعني قنطارية وجلست على فم الجب ، وهو قصير نحو القامة وفي جانبه خرق كالحجر . فحركت القنطارية في ذلك الخرق الذي في الجب فخرج النمر برأسه من ذلك الخرق ليأخذ القنطارية ، فلما علمنا انه في ذلك الموضع نزل معني بعض اصحابنا ، وصار بعضنا يحرك ذلك الموضع بالرمح ، فاذا خرج طعنه الآخر ، وكلما اراد الصعود من الجب او ثقلناه بالرمح ، حتى قتلناه ، وكان خلقة عظيمة ، إلا انه كان قد أكل من دواب القرية حتى عجز عن نفسه ، وهو دون سائر الحيوان يقفز الى فوق اربعين ذراعا •

وقد كان في كنيسة حناك (٩٦) طاقة في ارتفاع اربعين ذراعا ، فكان يأتيها نمر في الهاجرة يثب اليها ينام فيها الى آخر النهار ، ويثب منها ينزل ويمضي ، ومقطع حناك ذلك الوقت فارس افرنجي يقال له سير آدم من شياطين الافرنج ، فأخبروه خبر النمر فقال: «إذا رأيتموه أعلموني» فجاء النمر كعادته وثب الى تلك الطاقة ، فجاء بعض الفلاحين أخبر السير آدم ، فلبس درعه وركب حصانه وأخذ ترسه ورمحه وجاء الى الكنيسة وهي خراب ، إنما فيها حائط قائم فيه تلك الطاقة ، فلما رآه النمر وثب من الطاقة عليه ، وهو على حصانه فكسر ظهره وقتله ومضى. فكان فلاحو حناك يسمونه النمر المجاهد .

ومن خواص النمر انه اذا جرح الانسان وبالت عليه فأرة مات ، ولا ترتد الفأرة عن جريح النمر ، حتى أنه يعمل له سرير يجلس في الماء ويربط حوله السنابير خوفا عليه من الفأر .

والنمر لا يكاد يألف بالناس ولا يستأنس بهم ، وقد كنت مرة مجتازا بمدينة حيفا من الساحل ، وهي للافرنج ، فقال لي افرنجي منهم : «تشتري مني فهذا جيذا؟» قلت: «نعم» ، فجاءني بنمر قد رباه حتى صار في قد الكلب ، قلت: «لا» ما يصلح لي ، هذا نمر ما هو فهد فعجبت من أنسه وتصرفه مع الأفرنجي .

والفرق بين النمر والفهد أن وجه النمر طويل مثل وجه الكلب ، وعينه زرق ، والفهد وجهه مدور وعينه سود ، وقد كان بعض الحلبيين أخذ نمرًا وجاء به في عدل (٩٧) الى صاحب القدموس ، وهو ابيض بني محرز ، وهو يشرب ، ففتح العدل ، فخرج النمر على من في المجلس . فأما الأمير فكان عند طاقة في البرج نخل منها وغلق عليه الباب ، وجال النمر في البيت قتل بعضهم وجرح بعضهم الى أن قتلوه .

وسمعت وما رأيت أن في السباع الببر (٩٨) ، وماكنت أصدق

- ٥٦٦٩ -

ذلك ، فحدثني الشيخ الامام حجة الدين أبو هاشم محمد بن محمد ابن ظفر ، رحمه الله ، قال: « سافرت من المغرب ومعني غلام شيخ كان لوالدي قد سافر وجرب الأمور ، ففرغ الماء الذي معنا وعطشنا وليس معنا ثالث ، إنما نحن أنا وهو على نجيبين ، فقصدنا ماء في طريقنا فوجدنا عليه الببر وهو نائم فاعتزلنا عنه ، ونزل صاحبي عن جملة وأعطاني زمامه وأخذ سيفه وترسه وقربة معنا وقال لي: احتفظ برأس النجيب ، ومشى الى الماء ، فلما رآه الببر قام ووثب مستقبلة حتى تجاوزه . ثم صاح فثارت اليه مجريات له عدوا لحقوه . وما عارضنا ولا أذانا ، فشربنا وأسقينا ثم مضينا . »

وهكذا حدثني ، رحمه الله ، وكان من خيار المسلمين في بيته وعلمه . ( ٩٩ )

### ( تجارب حربية )

ومن عجيب الآجال لما نزل الروم الى شيزر سنة اثنتين وثلاثين وخمسة مائة نصبوا عليها مجانيق هائلة جاءت معهم من بلادهم ترمي الثقل ، وتبلغ حجرها ما لا تبلغه الذشابة ، وترمي الحجر عشرين وخمسة وعشرين رطلا ، ولقد رموا مرة دار صاحب لي يقال له يوسف بن أبي الغريب ، رحمه الله ، بفلت فوق (١٠٠) فهدمت علوها وسفلها بحجر واحد ، وكان على برج في دار الأمير ، قنطارية فيها راية منصوبة ، وطريق الناس في الحصن من تحتها ، ف ضرب القنطارية حجر المنجنيق كسرها من نصفها ، وانقلب كسرها الذي فيه السنان تنكس ووقع الى الطريق ، ورجل من أصحابنا عابر ، فوق السنان من ذلك العلو وفيه نصف القنطارية في ترقوته خرج الى الأرض وقتله .

وحدثني خطيخ مملوك لوالدي ، رحمه الله تعالى ، قال : « كنا في حصار الروم جلوسا في دهليز الحصن بعدنا وسيوفنا فإذا شيخ قد جاءنا يعدو وقال : « يا مسلمين الحريم! بخل الروم معنا » فأسخنا سيوفنا وخرجنا وجنناهم قد طلعوا من ثغرة في السور ثغرتها المجانيق . ف ضربناهم بالسيوف حتى أخرجناهم ، وخرجنا خلفهم حتى أوصلناهم إلى أصحابهم ، وعنا فتفرقنا ، وبقيت أنا وذلك الشيخ الذي استفزعنا ، فوقف وأدار وجهه الى الحائط يريق الماء ، فأعرضت عنه ، فسمعت وجبة ، فالتفت وإذا الشيخ قد ضربت رأسه حجر المنجنيق كسرتة والصقته بالحائط ، ومخه قد سال على الحائط ، فحملته وصلينا عليه ودفناه في مكانه ، رحمه الله »

وضربت حجر المنجنيق رجلا من أصحابنا كسرت رجله ، فحملوه



الى بين يدي عمي وهو جالس في دهليز الحصن ، فقال: «هاتوا  
المجبر » ، وكان بشيزر رجل صانع يقال له يحيى صانع في  
التجبير ، فحضر وجلس يجبر رجله وهو في سترة خارج باب  
الحصن ، فضربت الرجل المكسور حجر في رأسه طيرته ، فدخل  
المجبر الى الدهليز فقال عمي : «ما اسرع ما جبرته »! ، قال: «يا  
مولاي ، جاءتته حجر ثانية أغنته عن التجبير».

### قصد الفرنج دمشق

ومن نفاذ المشيئة في الآجال والأعمار أن الافرنج ، خذلهم  
الله ، أجمع رأيهم على أن يقصدوا دمشق ويأخذوها ، فاجتمع  
منهم خلق كثير . وسار اليهم صاحب الرها وتل باشر وصاحب  
أنطاكية ، فنزل صاحب أنطاكية على شيزر في طريقه الى  
دمشق ، وقد تباعوا بينهم دور دمشق وحماماتها وقياسيرها  
واشترأها البرجاسية ووزنوا لهم أثمانها وما عندهم شك في فتحها  
وملكها ، وكفر طاب اذ ذاك لصاحب أنطاكية ، فجرد من عسكره  
مائة فارس انتخبهم وأمرهم بالمقام بكفرطاب مقابل  
حماة ، فلما سار الى دمشق اجتمع من بالشام من المسلمين لقصد  
كفرطاب ، وأنفذوا رجلا من أصحابنا يقال له قنيب بن  
مالك ، فجس لهم كفرطاب في الليل ، فوصلها دارها وعاد وقال:  
«ابشروا بالغنيمة والسلامة»..

فسار المسلمون اليهم فالتقوا على بتكين ، فنصر الله سبحانه  
الاسلام وقتلوا الافرنج جميعهم ، وكان قنيب الذي جس لهم  
كفرطاب قد رأى في خندقها دواب كثيرة ، فلما ظفروا بالافرنج  
وقتلوهم طمع في اخذ تلك الدواب التي في الخندق ورجا ان يفوز  
بالغنيمة وحده ، فمضى يركض الى الخندق ، فرمى عليه رجل من  
الافرنج من الحصن حجرا فقتله ، وكانت له عندنا والدة عجوز كبيرة  
تندب في مأتمنا ثم تندب ولدها ، فكانت اذا ندبت على ابنها قنيب



تتدفق ثدياها باللبن حتى تغرق ثيابها ، فاذا فرغت من نديها عليه  
وسكنت لوعتها عادت ثدياها كالجلتين ما فيهما قطرة  
لبن ، فسبحان من اشرب القلوب الحنية على الاولاد .

ولما قيل لصاحب انطاكية وهو على دمشق: « قد قتل المسلمون  
اصحابك » ، قال: « ما هو صحيح ، قد تركت بكفرطاب مائة فارس  
تلتقي المسلمين كلهم » .

وقضى الله سبحانه أن المسلمين بدمشق نصروا على  
الافرنج ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأخذوا جميع دوابهم ، فرحلوا  
عن دمشق أسوأ رحيل وأذله ، والحمد لله رب العالمين .

ومن عجيب ما جرى في تلك الواقعة بالافرنج انه كان في عسكر  
حماة اخوان كربيان اسم الواحد بدر واسم الآخر عناز ، وكان هذا  
عناز ضعيف النظر ، فلما كسر الافرنج وقتلوا قطعوا رؤوسهم  
وشدوها في سموط خيلهم ، وقطع عناز رأسا وشده في  
سموطه ، فراه ، قوم من عسكر حماة فقالوا له: « يا عناز ، اي شيء  
هذا الرأس معك ؟ » قال: « سبحانه الله لما جرى بيني وبينه حتى  
قتله » ، قالوا له: « يا رجل ، هذا رأس أخيك بدر! » فنظره  
وتأمله ، فإذا هو رأس أخيه ، فاستحيى من الناس وخرج من  
حماة ، فما ندري اين قصد ولا عنا سمعنا له خبرا ، وكان أخوه  
بدر قتل في تلك الواقعة قتله الافرنج ، خذلهم الله تعالى .

اذكرني ضرب حجر المنجنيق رأس ذلك الشيخ رحمه الله ، ضرب  
السيوف الماضية ، فمن ذلك أن رجلا من اصحابنا يقال له همام  
الحاج التقى هو ورجل من الاسماعيلية ، لما عملوا على حصن  
شيزر ، في رواق في دار عمي ، رحمه الله ، وفي يد الاسماعيلي  
سكين والحاج في يده سيف ، فهجم عليه الباطني بالسكين ، فضربه  
همام بالسيف فوق عينيه فقطع قحف رأسه ووقع مخه على الأرض  
فانبسط عليها وتطاير ، فوضع همام السيف من يده وتقيأ ما في

بطنه لما لحقه من نظر ذلك المخ من الغثيان ، ولقيني في ذلك اليوم واحد منهم في يده سيخ وفي يدي سيف لي فهجم علي بالسيف فضربته في وسط ساعده ، والسيف في يده قبضته ونصله لاصق بساعده ، فقطع قد أربع أصابع من نصل السيف وقطع الساعد من نصفه ، فأبانه ، وبقي أثر قم السيف في حد السيف ، فرأه صانع عندنا فقال: « انا أخرج هذا الثلم منه » ، قلت: « دعه كما هو ، فهو أحسن ما فيه » وهو الى الآن اذا رآه الانسان علم انه اثر سكين

ولهذا السيف خبر انا ذاكره

كان للوالد ، رحمه الله ركابي يقال له جامع فسأغار الفرنج علينا ، فلبس الوالد كزا غنده وخرج من داره ليركب ، فما وجد حصانه ، فوقف ساعة ينتظره ، فوصل جامع الركابي بالحصان ، وقد ابطل ، فضربه الوالد بهذا السيف وهو في غمده متقلد به ، فقطع الجهاز والنعل الفضة وبشتا (١٠) كان على الركابي وصوفية وعظم مرفقة ، فرميت يده \* فكان رحمه الله يقوم به وبأولاده بعد ذلك الضربة ، وكان السيف يسمى الجامعي باسم ذلك الركابي .

ومن ضربات السيوف المذكورة أن أربعة أخوة من أنساب الأمير افتخار الدولة أبي القتوح بن عمرون صاحب حصن أبو قبيس صعدوا اليه الحصن وهو نائم أو ثقوه بالجراح ، وما معه في الحصن غير ابنه ، ثم خرجوا وهم يظنون أنهم قد قتلوه يريدون ابنه ، وكان هذا افتخار الدولة قد آتاه الله من القوة أمرا عظيما ، فقام من فراشه عريانا ، وسيفه معلق في البيت معه ، فأخذه وخرج اليهم ، فلقى واحد منهم وهو مقدمهم وشجاعهم ، فضربه افتخار الدولة بالسيف وقفز من مقابله خوفا من ان يصل اليه بسكين كانت في يده ، ثم التفت اليه فوجده ملقى قد قتله بتلك الضربة ، وصار الى الآخر ضربة قتله.

وانهزم الاثنان الباقيان ، فرميا انفسهما من الحصن ، فمات احدهما ونجا الآخر .

وأتانا الخبر إلى شيزر . فذفنتنا من هنا بالسلامة . وطلعنا بعد ثلاثة أيام إلى حصن أبو قبيس لعيادته ، فان اخته كانت عند عمي عز الدين وله منها أولاد ، فحدثنا حديثه وكيف كان أمره ، ثم قال « متن كدفي يحكني ، وما أصل اليه ، ودعا غلاما له ليبصر ذلك الموضع أي شيء قرصه فيه ، فنظر فاذا هو جرح وفيه رأس دشن ( ١٠٢ ) قد اندكر في ظهره ، وما معه منه علم ولا أحس به ، فلما قاح حكه .

وكان من قوة هذا الرجل أنه كان يمسك رسغ رجل البغل ويضرب البغل فلا يقدر يخلص رجله من يده ، ويأخذ المسمار البيطارى بين أصابعه ويذفه في دف خشب البلوط ، وكان أكله مثل قوته لابل أعظم .

قد ذكرت شيئا من أفعال الرجال ، وسأذكر شيئا من أفعال النساء ، بعد بساط أقدمه .

وذلك أن انطاكية كانت لشیطان من الافرنج يقال له روجار ، فمضى يحج إلى البيت المقدس ، وصاحب البيت المقدس بغدوين الرويس وهو رجل شيخ ، وروجار شاب ، فقال لبغدوين « اجعل بيني وبينك شرطا ، إن مت قبلك كانت انطاكية لك ، وإن مت قبلي كان البيت المقدس لي » ، فتعاقدا وتواثقا على ذلك .

وقدر الله تعالى أن نجم الدين ايلغازي بن أرتق ، رحمه الله ، أقي روجار بدانيث يوم الخميس خامس جمادى الاولى سنة ثلاث عشرة وخمس مائة فقتله وقتل جميع عسكره ، ولم يدخل انطاكية منهم إلا دون العشرين رجلا . وسار بغدوين إلى انطاكية فتسلمها .

وضرب مع نجم الدين مصافا بعد أربعين يوما ، وكان إيلغازي اذا شرب النبيذ يخمر عشرين يوما ، فشرب بعد كسر الافرنج وقتلهم وبخل في الخمار فما أفاق حتى وصل الملك بغدوين الرويس إلى أنطاكية بعسكره .

فكان المصاف الثاني بينهما على السواء ، كسر بعض الفرنج بعض المسلمين ، وكسر بعض المسلمين بعض الفرنج ، وقتل من هؤلاء وهؤلاء جماعة ، وأسر المسلمون روبرت صاحب صهيون وبلاطنس ( ١٠٣ ) وتلك الناحية ، وكان صديقا لاتابك طغديكين صاحب دمشق ذلك الوقت ، وكان مع نجم الدين إيلغازي لما اجتمع بالافرنج في أفامية حين وصل عساكر الشرق مع برسق بن برسق ، فقال هذا روبرت الابرس لاتابك طغديكين : « ما أدري بأي شيء أضيفك ، ولكن قد ابحتك بلادي ، انفذ خيلك تغير عليها وتأخذ كلما وجدوه ، بس لايسبوا ولا يقتلوا ، الدواب والمال والغلة لهم يأخذون ذلك مباحا لهم » ، فلما أسر روبرت ، وأتابك طغديكين حاضر المصاف في معونة ايلغازي ، قطع روبرت على نفسه عشرة آلاف دينار فقال إيلغازي : « امضوا به إلى اتابك لعله يفرغه فيزيدينا في القطيعة » ، فمضوا به وأتابك في خيمته يشرب ، فلما راه مقبلا قام شمر أنيال قبائه في البند وأخذ سيفه وخرج إليه ضرب رقبتة ، فنفذ إليه إيلغازي يعتب عليه وقال : « نحن محتاجون الى دينار واحد للتركمان ، وهذا كان قد قطع على نفسه عشرة آلاف دينار نفذته إليك تفرغه لعله يزيدينا في القطيعة ، قتلته ! » قال : « انا ما أحسن افزع الا كذا »

ثم ملك بغدونين الرويس أنطاكية . وكان لأبي وعمي ، رحمهما الله ، عليه جميل كبير حيث كان أسره نور الدولة بك ، رحمه الله ، وصار بعد قتل بك الى حسام الدين تمرقاش بن إيلغازي ، فحمله إلينا إلى شيزر ليتوسط أبي وعمي رحمهما الله بيعه ، فأحسننا إليه . فلما ملك كانت لصاحب أنطاكية علينا قطعية سامحنا بها . وصار أمرنا في أنطاكية نافذا .



فهو فيما هو فيه ، وعنده رسول من أصحابنا ، إذ وصل مـركب الى السويدية فيه صبي عليه اخلاق ، فحضر عنده وعرفه انه ابن بيموند ، فسلم انطاكية إليه وخرج منها ضرب خيمه في ظاهرها ، فحلف لنا رـسـمــــة ولنا الذي كان عنده أنه - يعني الملك بغدوين - اشترى عليك خيله تلك الليلة من السوق ، وأهراء انطاكية ملأى من الغلة . ورجع بغدوين الى القدس .

وخرج على الناس من ذلك الشيطان ابن بيموند بلية عظيمة ، فنزل علينا يوما من الايام بعسكره ، فضرب خيامه ، ونحن قد ركبنا مقابلهم ، فما خرج إلينا منهم أحد ونزلوا في خيامهم ، ونحن ركاب على شرف نبصرهم ، وبيننا وبينهم العاصي ، فنزل من بيننا ابن عمي ليث الدولة يحيى بن مالك بن حميد ، رحمه الله ، يسير الى العاصي ، فظنناه يسقي فرسه ، فخاض الماء وعبر وسار نحو موكب للأفرنج واقف بالقرب من خيامهم ، فلما بنا منهم نزل اليه فارس واحد ، فحمل كل واحد منهما على صاحبه ، وراغ كل واحد منهما عن طعنة الآخر ، فتسرعنا أنا وأمثالي من الأسباب ذلك الوقت إليهما ، ونزل الموكب وركب ابن بيموند وعسكره وجاؤوا كالسيل ، وصاحبنا قد طعنت فرسه ، فالتقت أوائل خيلنا وأوائل خيلهم . وفي اجنادنا رجل كردي يقال له ميكائيل قد جاء في أوائل خيلهم منهزما ، وخلفه فارس أفرنجي قد لزه ، والكردي بين يديه ضجيج وصياح عال ، فلقيته ، فمال عن ذلك الفارس الكردي وزل عن طريقي وقصد خيلا لنا في جماعة على الماء واقفين مما يلينا ، وأنا خلفه أجهد أن يلحقه حصاني فاطعنه ، فلا يلحقه ، ولا الأفرنجي يلتفت إلي إلا يريد تلك الخيل المجتمعة الى ان وصل الى خيلنا ، وأنا تابعه . فطعن أصحابي حصانه طعنة أوثقت وأصحابه في إثره في جمع ما لنا بهم قوة ، فرجع الفارس وحصانه في آخر رمقه التقاهم فربهم جميعهم ، وعاد ، وهم معه ، وكان الفارس ابن بيموند « صاحب انطاكية وهو صبي قد امتلأ قلبه من الرعب ، ولو ترك أصحابه هزمونا إلى أن يدخلونا المدينة .



كل ذلك وأمة عجوز يقال لها بريكة مملوكة لرجل كردي من أصحابنا يقال له علي بن محبوب واقفة بين الخيل على شط النهر في يدها شربة تستقي بها وتسقي الناس ، وأكثر أصحابنا الذين كانوا على الشرف لما رأوا الأفرنج مقبلين في ذلك الجمع اندفعوا نحو المدينة وتلك الشيطانة واقفة لا يرونها ذلك الأمر العظيم .

وأنا ذاكر شيئاً من أمر هذه بريكة ، وإن لم يكن موضعه ، لكن الحديث شجون كان مولاهما علي يتسلى ولا يشرب الخمر ، فقال لوالدي يوماً « والله ، يا أمير ، ما استحل أكل من الديوان ولا أكل إلا من كسب بريكة » ، وهو الجاهل يظن أن ذلك السحت الحرام أحل من الديوان الذي هو مستأجر به .

وكانت هذه الامة لها ولد اسمه نصر رجل كبير ، وكبلاً في ضيعة للوالد ، رحمه الله ، وهو رجل يقال له بقية بن الاصير .

حدثني قال : « دخلت في الليل إلى البلد أريد الدخول إلى داري في شغل لي ، فلما بذوت من البلد رأيت بين المقابر في ضوء القمر شخصاً ما هو آدمي ولا هو وحش ، فوقفت عنه وتهيبة ، ثم قلت في نفسي : « ما أنا بقية ! ما هذا الخوف من واحد ؟ » فوضعت سيفي ودرقتي والحربة التي معي ومشيت قليلاً قليلاً ، وأنا اسمع لذلك الشخص زجلاً وصوتاً ، فلما قربت منه وثبت عليه وفي يدي دشني فقبضته ، وإذا بها بريكة مكشوفة الرأس قد دفشت شعرها وهي راكبة قسبة تصهل بين المقابر وتجدول ، قلت : « ويحك ! أي شيء تعملين في هذا الوقت هاهنا ؟ » قالت : « أسحر » قلت : « قبحك الله وقبح سحرك وصنعتك من بين الصنائع ! »

اذكرني قوة نفس هذه الكلبة بأمور جرت للنساء في الوقعة التي كانت بيننا وبين الاسماعيلية ، وإن لم تكن سواء

لقي في ذلك اليوم مقدم القوم علوان بن حراز ابن عمي سنان

الدولة شبيب بن حامد بن حميد ، رحمه الله في الحصن ، وهو تربي ولدتي ولدت أنا وهو في يوم واحد يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربع مائة إلا أنه ما باشر الحرب حتى ذلك اليوم ، وأنا كنت قطبها ، فأراد علوان اصطناعه .

فقال له : « ارجع الى بيتك ، احمل منه ما تقدر عليه ورح لا تقتل ، فالحصن قد ملكناه » ، فرجع الى الدار وقال : « من كان له شيء يعطيني إياه - يقول ذلك لعمته ونساء عمه - فكل منهم اعطاه شيئاً ، فهو في ذلك وإذا انسان قد دخل الدار عليه زربية وخوذة ومعه سيف وترس ، فلما رآه أيقن بالموت ، فوضع الخوذة ، وإذا هي أم ابن عمه ليث الدولة يحيى ، رحمه الله ، فقالت : « أي شيء تريد تعمل ؟ » قال : « أخذ ما قدرت عليه ، وأنزل من الحصن بحبل ، وأعيش في الدنيا » ، قالت : « بدس ما تفعل ، تخلي بنات عمك وأهلك للحلاجين وتروح ؟ أي عيش يكون عيشك إذا افتضحت في أهلك وانهزمت عنهم ؟ اخرج قاتل عن أهلك حتى تقتل بينهم ، فعل الله بك وفعل » ، ومنعته ، رحمه الله ، من الهرب . وكان من الفرسان المعدوبين بعد ذلك .

وفي ذلك اليوم فرقت والدتي ، رحمه الله ، سيوفي وكزاغنداتي ، وجاءت إلى أخت لي كبيرة السن ، وقالت : « البسي خفك وإزارك » فلبست وأخذتها الى روشن في داري يشرف على الوادي من الشرق اجلستها عليه وجلست إلى باب الروشن ، ونصرنا الله سبحانه عليهم ، وجئت إلى داري اطلب شيئاً من سلاحي ما وجدت إلا جهازات السيوف وعيب الكزاغندات ، قلت : « يا أمي ، أين سلاحي ؟ » قالت : « يا بني ، أعطيت السلاح لمن يقاتل عنا . وما ظننتك سالماً » . قلت : « فأختي أي شيء تعمل هاهنا ؟ » قالت : « يا بني ، اجلستها على الروشن وجلست برا منها ، إذا رأيت الباطنية قد وصلوا إلينا دفعتها رميتها إلى الوادي فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة » ، فشكرتها على ذلك

وشكرتها الاخت وجزتها خيرا ، فهذه النخوة أشد من نخوات الرجال .

وتلثمت في ذلك اليوم عجوز من جواري جدي الأمير أبي الحسن علي ، رحمه الله ، يقال لها فتون . فأخذت سيفاً وخرجت إلى القتال ، وما زالت كذلك حتى صعدنا وتكاثرنا عليهم .

وما ينكر للنساء الكرام الانفة والنخوة والاصابة في الرأي .

ولقد خرجت يوما من الأيام مع الوالد ، رحمه الله ، إلى الصيد ، وكان مشغوفاً بالصيد عنده من البزاة والشواهين والصدقور والفهود والكلاب الزغارية ما لا يكاد يجتمع عند غيره ، ويركب في أربعين فارساً من أولاده ومماليكه كل منهم خبير بالصيد عارف بالقنص ، وله بشير متصيدان : يوماً يركب إلى غربي البلد إلى أزوار وأنهار فيتصيد الدراج وطير الماء والارانب والغزلان ويقتل الخنازير ، ويوماً يركب إلى الجبل قبلي البلد يتصيد الحجل والارانب ، فنحن في الجبل يوماً وقد حانت صلاة العصر فنزل ونزلنا نصلي فرادى ، وإذا غلام قد جاء يركض قال : « هذا الأسد » ، فسلمت قبل الوالد ، رحمه الله ، لكيلا يمنعني من قتال الأسد ، وركبت ومعي رمحي فحملت عليه ، فاستقبلني وهدر ، فحاص بي الحصان ووقع الرمح من يدي لذقله وطردني شوطاً جيداً ، ثم رجع إلى سفح الجبل وقف عليه وهو من أعظم السباع كأنه قنطرة ، جائع ، وكلمنا ندونا منه نزل من الجبل طرد الخيل وعاد إلى مكانه . وما ينزل نزلة إلا يؤثر في أصحابنا .

ولقد رأيته ركب مع رجل من غلمان عمي يقال له سبتكين غرزة على وركي حصانه وخرق بمخالبه ثيابه ورائاته وعاد إلى الجبل ، فما كان لي فيه حيلة إلا أن صعدت فوقه في سفح الجبل ، ثم حدرت حصاني عليه فطعنته دفعت الرمح فيه وتركته في جانبه ، فتقلب إلى أسفل الجبل والرمح فيه ، فمات الأسد ، وانكسر الرمح ، والوالد ،

رحمه الله واقف يرانا ومعه أولاد أخيه عز الدين يبصرون ما يجري ، وهم صبيان .

وحملنا الاسد وبخلنا البلد العشاء ، واذا جدتي لأبي ، رحمها الله ، قد جاءتني في الليل وبين يديها شمعة - وهي عجوز كبيرة قد قاربت من العمر مائة سنة - فما شككت انها قد جاءت تهنئني بالسلامة وتعرفني مسرتها بما فعلت ، فلاقيتها وقبلت يدها فقالت لي بغیظ وغضب : « يا بني ، ايش يحملك على هذه المصائب التي تخاطر فيها بنفسك وحصانك وتكسر سلاحك ، ويزداد قلب عمك منك وحشة وندفورا ؟ » قلت « يا ستي ، إنما اخاطر بنفسي في هذا ومثله لا تقرب إلى قلب عمي » ، قالت : « لا والله ، ما يقربك هذا منه وإنه يزيدك منه بعدا ويزيده منك وحشة وندفورا » ، فعلمت أنها ، رحمها الله ، نصحتني في قولها وصدقتنني ، ولعمري إنهن أمهات الرجال .

ولقد كانت هذه العجوز ، رحمها الله ، من صالحى المسلمين من الدين والذمة والصدوم والصلاة على أجمل طريقة ، ولقد حضرتها ليلة النصف من شعبان وهي تصلي عند والدي ، وكان رحمه الله ، من أحسن احسن من يتلو كتاب الله تعالى ، ووالدته تصلي بصلاته ، فأشفق عليها فقال : « يا أمي لو جلست صليت من قعود » ، قالت : « يا بني ، بقي لي من العمر ما أعيش إلى ليلة مثل هذه الليلة ؟ لا والله ، ما اجلس » . وكان الوالد قد بلغ السبعين سنة وهي قد شارفت المائة سنة ، رحمها الله .

وشاهدت من نخوات النساء عجبا ، وهو أن رجلا من أصحاب خلف بن ملاعب يقال له علي عبد بن أبي الرياء كان قد رزقه الله تعالى من النظر ما رزق زرقاء اليمامة ، فكان ينهض مع ابن ملاعب يبصر القوافل على مسيرة يوم كامل .

ولقد حدثني رجل من رفاقه يقال له سالم العجائزي ، انتقل إلى



خدمة والذي بعد ما قتل خلف بن ملاعب قال : « نهضنا يوما وأرسلنا عليا عبد بن أبي الريداء بكرة يدبب لنا ( ١٠٤ ) ، فجاءنا وقال : « ابشروا بالغنيمة ! هذه قافلة كثيرة مقبلة ، فنظرنا ما رأينا شيئا ، فقلنا : « ما نرى قافلة ولا غيرها ، قال : « والله ، إني لأرى القافلة وقدامها فرسان مجنبان ينفضان معارفهما ، فأقمنا في الكمين إلى العصر ، فوصلتنا القافلة والفرسان المجنبان قدامها فخرجنا أخذنا القافلة » .

وحدثني سالم العجائزي قال : « نهضنا يوما وصعد علي عبد ابن أبي الريداء يدبب لنا ، فنام ومادري إلا أخذه تركي من سرية أترك ناهضه وقالوا : « أي شيء أنت ؟ » قال : « أنا رجل صعلوك قد اكريت جملي لرجل من التجار في القافلة ، أعطني يدك أنك تعطيني جملي حتى ادلكم على القافلة ، فأعطاه مقدمهم يده ، فمشى بين أيديهم إلى أن أوصلهم إلينا إلى الكمين ، فخرجنا عليهم أخذناهم ، وتعلق هو بالذي كان بين يديه أخذ فرسه وعدته ، وغنمنا منهم غنيمة حسنة » .

فلما قتل ابن ملاعب انتقل علي عبد بن أبي الريداء إلى خدمة توفيل الافرنجي صاحب كفرطاب ، فكان ينهض بالافرنج إلى المسلمين يغنمهم ويبالغ في أذى المسلمين وأخذ مالهم وسفك دمهم حتى قطع سبل المسافرين ، وله امرأة معه بكفرطاب تحت يدي الافرنج تذكر عليه فعله وتنهاه فلا ينتهي ، فنفذت أحضرت نسيبا لها من بعض الضياع ، وأظنه أخاها ، وأخفته في البيت إلى الليل ، واجتمعت هي وهو على زوجها علي عبد بن أبي الريداء قتلاه ، واحتملا بجميع مالها .

وأصبحت عندنا بشيزر ، وقالت : « غضبت للمسلمين مما كان يفعل بهم هذا الكافر » ، فأراحت الناس من هذا الشيطان ، ورعينا لها ما فعلت وكانت عندنا في الكرامة والاحترام .



وكان في أمراء مصر رجل يقال له بدي الصليحي في وجهه ضربتان الواحدة من حاجبه الأيمن إلى حد شعر رأسه ، فسأله عنهما فقال . « كنت انهض وأنا شاب من عسقلان ، وأنا راجل ، فنهضت يوما إلى طريق بيت المقدس أريد حجاج الافرنج ، فصادفنا قوما منهم ، فلقيت رجلا معه قنطارية وخلفه امرأته معها كوز خشب فيه ماء . فطعني الرجل هذه الطعنة الواحدة وضربته قتلته فمشيت إلي امرأته وضربتني بالكوز الخشب في وجهي جرحتني هذا الجرح الآخر فوسما وجهي .

ومن إقدام النساء أن جماعة من الافرنج الحجاج حجوا وعادوا الى ريفية ، وكانت ذلك الوقت لهم ، وخرجوا منها يريدون أفامية ، فتأهوا في الليل وجاءوا الى شيزر وهي اذناك بغير سور ، فدخلوا المدينة وهم في نحو من سبع مائة ثمان مائة رجال ونساء وصبيان ، وكان عسكر شيزر قد خرج مع عمي عز الدين أبي العساكر سلطان وفخر الدين أبي كامل شافع ، رحمهما الله ، ليلاقيا عروسين قد تزوجاهما من بني الصوفي الحلبيين أختين ووالدي رحمه الله في الحصن ، فخرج رجل من المدينة في شغل له في الليل فرأى أفرنجيا ، فعاد أخذ سيفه وخرج قتله ، ووقع الضياح في البلد ، وخرج الناس فقتلوههم وغنموا ما كان معهم من النساء والصبيان والفضة والبهاائم .

وفي شيزر امرأة من نساء اصحابنا يقال لها نضرة بنت بوز رماط خرجت مع الناس أخذت أفرنجيا أدخلته بيتها ، وخرجت أخذت آخر أدخلته بيتها ، وعادت خرجت أخذت آخر ، فاجتمع عندها ثلاثة من الافرنج ، فاخذت ما كان معهم وما صلح لها من سلبهم وخرجت دعت قوما من جيرانها قتلوههم .

ووصل عمالي والعسكر في الليل ، وقد كان انهزم من الافرنج ناس وتبعهم رجال من شيزر فقتلوههم في ظاهر البلد ، فصارت

- ٥٦٨٣ -

الخيـل تعثر في الليل في القتلـى ، ولا يدرون بماذا تعثر ، حتى ترجـل أحدهم وأبصر القتلـى في الظلام ، فـهالهم ذلك واعتقدوا أن البلد قد كبس .

وكانت غنيمة ساقها الله عز وجل إلى الناس ، فصار إلى دار والدي ، رحمه الله ، عدة من الجواري من سبيهم ، وهم ، لعنهم الله ، جذس ملعون لا يـألفون لغير جنسهم ، فرأى منهم جارية مليحة شابة فقال لقهرمانـة داره : « ابخلي هذه الحمام ، واصلحي كسوتها ، واعلمي شغلها للسفر » ، ففعلت ، وسلمها إلى بعض خدامه وسيرها إلى الأمير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك صاحب قلعة جعبر ، وكان صديقه ، وكتب إليه يقول : « غـذمنا من الافرنج غنيمة قد نفذت لك سهما منها » ، فوافقته وأعجبته واتخذها لنفسه ، فولدت له ولدا سماه بدران فجعله أبوه ولي عهده ، وكبر ومات والده ، وتولى بدران البلد والرعية وأمه الأمرة الناهية ، فواعدت قوما وتدلّت من القلعة بحبل ومضى بها أولئك الى سروج ، وهي إذ ذاك للافرنج ، فتزوجت بافرنجي اسكاف وابنها صاحب قلعة جعبر .

وكان في أولئك الذين صاروا الى دار والدي امرأة عجوز ومعها بنت امرأة شابة حسنة الخلقة وابن مشد ، فاسلم الابن وحسن اسلامه فيما يرى من صلاته وصومه ، وتعلم الترقيم من مرخم كان يرخم دار والدي ، فلما طال مقامه زوجته الوالد بامرأة من قوم صالحين ، وقام له بكل ما احتاجه لعرسه وبيته ، فرزق منها ولدين وكبرا وصار لكل واحد منهما خمس ست سنين ، والغلام راوول أبوهما مسرور بهما ، فأخذهما وامهما وما في بيته وأصبح باقامية عند الافرنج ، وتنصر هو وولاده بعد الاسلام والصلاة والدين ، قاله تعالى يطهر الدنيا منهم .

### ( طبائع الافرنج و اخلاقهم )

سبحان الخالق الباري ، إذا خبر الانسان أمور الافرنج سبى الله تعالى و قدسه ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير ، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل ، وسأذكر شيئاً من أمورهم وعجائب عقولهم .

كان في عسكر الملك فلك بن فلك فارس محتشم أفرنجي قد وصل من بلادهم يحج ويعود ، فأدس بي وصار ملازمي يدعوني « أخي » وبيننا المودة والمعاشرة ، فلما عزم على التوجه في البحر الى بلاده قال لي : « يا أخي ، أنا سائر الى بلادتي ، وأريدك تنفذ معي ابذك ، وكان ابني معي ، وهو ابن أربع عشرة سنة ، إلى بلادتي يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفرسية ، وإذا رجع كان مثل رجل عاقل » ، فطرق سمعي كلام ما يخرج من رأس عاقل ، فإن ابني لو أسر ما بلغ به الاسر أكثر من رواحه إلى بلاد الافرنج ، فقلت : « وحياتك ، هذا الذي كان في نفسي ، لكن منعني من ذلك ان جدته تحبه وما تركته يخرج معي حتى استحلقتني أني أردته إليها » ، قال : « وأمك تعيش ؟ » قلت : « نعم » قال : « لا تخالفها »

ومن عجيب طبهم ان صاحب المنيطرة ( ١٠٥ ) كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه ، فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت ، فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له : « ما أسرع ما داويت المرضى ! » قال : « أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف . فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت ، وحميت المرأة ورطب مزاجها . فجاءهم طبيب أفرنجي فقال لهم : « هذا ما يعرف شيء يداويهم » وقال للفارس : « أيما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ » قال : « أعيش برجل واحدة » قال : « احضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً » . فحضر الفارس والفأس ، وأنا حاضر ، فحط

ساقه على قرمة خشب وقال للفارس : أضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها . فضربه ، وأنا أراه ، ضربة واحدة ما انقطعت ، وضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ، ومات من ساعته ، وأبصر المرأة فقال : « هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها » فحلقوه ، وعادت تأكل من مآكلهم الذوم والخردل ، فزاد بها الذشاف ، فقال : الشيطان قد دخل في رأسها ، فأخذ موسى وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح ، فماتت في وقتها ، فقلت لهم : بقي لكم إلي حاجة ؟ قالوا : « لا » فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه .

وقد شاهدت من طبهم خلاف ذلك ، كان للملك خازن من فرسانهم يقال له برناد ، لعنه الله ، من ألعي الافرنج وأرجسهم ، فرمحه حصان في ساقه فعملت عليه رجله وفتحت في أربعة عشر موضعا ، والجراح كلما ختم موضع فتح موضع ، وأنا أدعو بهلاكه ، فجاءه طبيب أفرنجي فزال عنه تلك المراهم وجعل يغسلها بالخل الحاذق ، فختمت تلك الجراح وبرأ وقام مثل الشيطان .

ومن عجيب طبهم أنه كان عندنا بشيزر صانع يقال له أبو الفتح ، له ولد قد طلع في رقبتة خنازير ، وكلما ختم موضع فتح موضع ، فدخل انطاكية في شغل له وابنه معه ، فراه رجل أفرنجي فساله عنه فقال : « هو ولدي » ، قال : « تحلف لي بدينك إن وصفت لك دواء يبرئه لا تأخذ من أحد تدأويه به أجرة حتى أصف لك دواء يبرئه ؟ » فحلف . فقال : « تأخذ له اشنانا غير مطحون تحرقه وتربيته بالزيت والخل الحاذق وتدأويه به حتى يأكل الموضع ، ثم خذ الرصاص المحرق وربه بالسمن ، ثم داوه به فهو يبرئه » ، فداواه بذلك فبرأ ، وختمت تلك الجراح . وعاد إلى ما كان عليه من الصحة .

وقد داويت بهذا الدواء من طلع فيه هذا الداء فنذعه وأزال ما كان يشكوه .



فكل من هو قريب العهد بالبلاد الافرنجية أجفى أخلاقا من الذين  
قد تبدلوا وعاشروا المسلمين .

فمن جفاء أخلاقهم ، قبحهم الله ، أنني كنت إذا زرت البيت  
المقدس ، دخلت الى المسجد الاقصى وفي جانبه مسجد صغير قد جعله  
الافرنج كنيسة ، فكنت اذا دخلت المسجد الاقصى وفيه الداوية ، وهم  
اصدقائي يخلون لي ذاك المسجد الصغير اصلي فيه ، فدخلته يوما  
فكبرت

ووقفت في الصلاة . فهجم علي واحد من الافرنج مسكني ورد وجهي  
إلى الشرق وقال : « كذا صل ! » فتبادر قوم من الداوية أخذوه  
أخرجوه عني ، وعدت أنا الى الصلاة ، فاغترفهم وعاد هجم علي  
ذاك بعينه ورد وجهي الى الشرق وقال : « كذا صل ! » ، فعاد  
الداوية دخلوا إليه وأخرجوه ، واعتذروا إلي ، وقالوا : « هذا غريب  
وصل من بلاد الافرنج في هذه الايام ، وما رأى من يصلي إلى غير  
الشرق » ، فقلت : « حسبي من الصلاة ! » فخرجت فكنت أعجب من  
ذلك الشيطان وتغيير وجهه ورعدته وما لحقه من نظر الصلاة إلى  
القبلة .

ورأيت واحدا منهم جاء إلى الامير معين الدين ، رحمه الله ،  
وهو في الصخرة فقال : « تريد تبصر الله صغيرا ؟ » قال :  
« نعم » ، فمشى بين أيدينا حتى أرانا صورة مريم والمسيح عليه  
السلام صغير في حجرها ، فقال : « هذا الله صغير » ، تعالى الله  
عما يقول الكافرون علوا كبيرا .

وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة ، يكون الرجل منهم يمشي  
هو وامراته يلقيه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ،  
والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فاذا طولت عليه  
خلاها مع المتحدث ومضى .

ومما شاهدت من ذلك أني كنت اذا جئت الى نابلس أنزل في دار



رجل يقال له معز، داره عمارة المسلمين لها طاقات تفتح الى الطريق ، ويقابلها من جانب الطريق الاخر دار لرجل افرنجي يبيع الخمر للتجار يأخذ في قنينة من النبيذ وينادي عليه ويقول : « فلان التاجر قد فتح بتيه ( ١٠٦ ) من هذا الخمر . من اراد منها شيئاً فهو في موضع كذا وكذا » ، واجرته عن ندائه النبيذ الذي في تلك القنينة ، فجاء يوماً ووجد رجلاً مع امرأته في الفراش فقال له : « أي شيء ادخلك إلى عند امرأتي ؟ » قال : « كنت تعباً دخلت استريح » ، قال : « فكيف دخلت الى فراشي ؟ » قال : « وجدت فراشاً مفروشا نمت فيه » ، قال : « والمرأة نائمة معك ؟ » ، قال : « الفراش لها ، كنت أقدر أمنعها من فراشها ؟ » قال : « وحق بيني ، إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت » ، فكان هذا ذكيره ومبلغ غيرته

ومن ذلك أنه كان عندنا رجل حمامي يقال له سالم من أهل المعرة في حمام لوالدي ، رحمه الله ، قال : « فتحت حماماً في المعرة أتعيش فيها ، فدخل اليها فارس منهم ، وهم يذكرون على من يشد في وسطه المنزر في الحمام ، فمد يده فجذب منزري من وسطي رماه ، فرأني ، وأنا قريب عهد بخلق عانتي ، فقال : « سالم ، فتقربت منه ، فمد يده على عانتي وقال : سالم ، جيد ! وحق بيني اعمل لي كذا » ، واستلقى على ظهره وله مثل لحيته في ذلك الموضع ، فحلقته فمر يده عليه فاستوطأه ( ١٠٧ ) فقال : « سالم ، بحق بيذك اعمل للداما » - والداما بلسانهم الست - يعني امرأته ، وقال لغلام له : « قل للداما تجيء ، فمضى الغلام أحضرها وأدخلها ، فاستلقت على ظهرها وقال : « اعمل كما عملت لي فحلق ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني ، فشكرني ووهبني حق خدمتي » .

فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم : ما فيهم غيرة ولا نخوة ، وفيهم الشجاعة العظيمة ، وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة من سوء الاحدوثة .

ومما يقارب هذا أنني دخلت الحمام بمدينة صور فجلست في خلوة

فيها ، فقال لي بعض غلماني في الحمام : « معنا امرأة » ، فلما خرجت جلست على المصاطب وإذا التي كانت في الحمام قد خرجت وهي مقابلي قد لبست ثيابها وهي واقفة مع أبيها ولم اتحقق أنها امرأة ، فقلت لواحد من أصحابي : « بالله أبصر هذه امرأة هي ؟ » وأنا اقصد أن يسأل عنها ، فمضى ، وأنا أراه ، رفع نيلها وطلع فيها ، فالتفت إلي أبوها وقال : « هذه ابنتي ، ماتت أمها وما لها من يغسل رأسها ، فأدخلتها معي الحمام غسلت رأسها » ، قلت : « جيد عملت ، هذا لك فيه ثواب » .

ومن عجيب طبهم ما حدثنا به كليام دبور صاحب طبرية ، وكان مقدما فيهم ، واتفق أنه رافق الأمير معين الدين ، رحمه الله ، من عكا الى طبرية وأنا معه ، فحدثنا في الطريق قال : « كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت ، فجئنا الى قس كبير من قسوسنا قلنا : تجيء معنا حتى تبصر الفارس فلانا ؟ قال : « نعم »

ومشى معنا ، ونحن نتحقق أنه إذا حط يده عليه عوفي ، فلما رآه قال : « اعطوني شمعا ، فأحضرنا له قليل من الشمع ، فلينه وعمله مثل عقد الاصبع ، وعمل كل واحدة في جانب أنفه ، فمات الفارس . فقلنا له : « قد مات » قال : « نعم ، كان يتعذب سددت أنفه حتى يموت ويستريح » .

دع ذا وعد القوم في هرم

نرجع من حديث مجاريهم :

حضرت بطبرية في عيد من أعيادهم ، وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح وقد خرج معهم عجوزان فانيتان أوقفوهما في رأس الميدان وتركوا في رأسه الآخر خنزيرا سمطوه وطرحوه على صخرة ، وسابقوا بين العجوزين ومع كل واحدة منهن سرية من الخيالة يشدون منها ، والعجائز يقمن ويقعن على كل خطوة ، وهن

يضحكون ، حتى سبقت واحدة منهم ، فأخذت ذلك الخنزير في سبقها .

وشهدت يوما بنابلس وقد احضروا اثنين للمبارزة ، وكان سبب ذلك ان حرامية من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس فاتهموا بها رجلا من الفلاحين ، وقالوا : « هو دل الحرامية على الضيعة » ، فهرب . قذفه الملك فقبض أولاده ، فعاد إليه وقال : « انصفني ، أنا أبارز الذي قال عني أنني دالت الحرامية على القرية » ، فقال الملك لصاحب القرية المقطع : « أحضر من يبارزه » ، فمضى الى قريته وفيها رجل حداد فأخذه ، وقال له : « تبارز » اشفاقا من المقطع على فلاحيه لا يقتل منهم واحد فتخرب فلاحته ، فشاهدت هذا الحداد ، وهو شاب قوي إلا أنه قد انقطع ، يمشي ويجلي و يطلب ما يشربه ، وذلك الآخر الذي طلب البراز شيخ إلا أنه قوي النفس يزجر وهو غير محتفل بالمبارزة ، فجاء البسكند ( ١٠٨ ) وهو شحنة البلد ، فأعطى كل واحد منهما العصا والترس ، وجعل الناس حولهم حلقة •

والتقيا فكان الشيخ يلز ذلك الحداد ، وهو يتأخر حتى يلجئه الى الحلقة ، ثم يعود الى الوسط ، وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم ، فطال الامر بينهما والبسكند يستعجلهما وهو يقول بالعجلة ، ونفخ الحداد إيمانه بضرب المطرقة ، واعى ذلك الشيخ ، فضربه الحداد ، فوقع ووقعت عصاه تحت ظهره ، فبرك عليه الحداد يداخل اصابعه في عينيه ولا يتمكن من كثرة الدم من عينيه ، ثم قام عنه وضرب رأسه بالعصا حتى قتله ، فطرحوا في رقبتة في الوقت حبلا وجروه شذقوه ، وجاء صاحب الحداد أعطاه غفارته وأركبه خلفه وأخذه وانصرف . وهذا من جملة فقههم وحكمهم لعنهم الله

ومضيت مرة مع الأمير معين الدين ، رحمه الله ، إلى القدس ، فنزلنا نابلس ، فخرج إلى عنده رجل أعمى ، وهو شاب عليه ملبوس جيد مسلم ، وحمل له فاكهة وسأله في أن يأذن له في الوصول إلى

- ٥٦٩٠ -

خدمته إلى دمشق ، ففعل ، وسألت عنه فخبرت أن أمه كانت متزوجة لرجل أفرنجي فقتلته ، وكان ابنها يحتال على حجاجهم ويتعاون هو وأمه على قتلهم ، فاتهموه بذلك وعملوا له حكم الأفرنج . جالسوا بتيه عظيمة وملأوها ماء ، وعرضوا عليها دف خشب ، وكتفوا ذلك المتهم وربطوا في كتافه حبلا ورموه في البتية ، فإن كان برياً غاص في الماء فرفعوه بذلك الحبل لايموت في الماء ، وإن كان له الذنب ما يغوص في الماء ، فحرص ذلك لما رموه في الماء أن يغوص ، فما قدر ، فوجب عليه حكمهم ، لعنهم الله ، فكملوه .

ثم إن الرجل وصل إلى دمشق فأجرى له الأمير معين الدين ، رحمه الله ، ما يحتاجه ، وقال لبعض غلمانه : « تمضي به إلى برهان الدين البلخي ، رحمه الله ، تقول له : تأمر من يقرىء هذا القرآن ، وشيئاً من الفقه » ، فقال له ذلك الأعمى : « النصر والغلب ، ما كان هذا ظني » ، قال : « وما ظننت بي » قال : « تعطيني الحصان والبغلة والسلاح وتجعلني فارساً » ، قال : « ما اعتقدت أن أعمى يصير من الفرسان » .

ومن الأفرنج قوم قد تبدلوا وعاشروا المسلمين فهم أصلح من القريبى العهد ببلاهم ، ولكنهم شاذ لا يقاس عليه .

فمن ذلك أننى نفذت صاحباً إلى أنطاكية في شغل ، وكان بها الرئيس تادرس بن الصفي وبيني وبينه صداقة ، وهو نافذ الحكم في أنطاكية ، فقال لصاحبي يوماً : « قد دعاني صديق لي من الأفرنج ، تجيء معي حتى ترى زيهم » ، قال : « فمضيت معه فجئنا إلى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا في أول خروج الأفرنج ، وقد اعتفى من الديوان والخدمة ، وله بأنطاكية ملك يعيش منه ، فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة . ورأني متوقفاً عن الأكل ، فقال : كل طيب النفس ، فأنا ما أكل من طعام الأفرنج ، ولي طبابخات مصريات ما أكل إلا من طبيخن . ولا يدخل داري لحم خنزير ، فأكلت وأنا محترز وانصرفنا .



- ٥٦٩١ -

فانا بعد مجتازا في السوق وامرأة افرنجية تعلقت بي وهي تبربر  
بلسانهم وما أدري ما تقول ، فاجتمع علي خلق من الافرنج ، فايقنت  
بالهلاك ، وإذا ذلك الفارس قد أقبل فرأني ، فجاء فقال لتلك المرأة :  
« ما لك ولهذا المسلم ؟ » قالت : « هذا قتل أخى عرس وكان هذا  
عرس فارسا بافامية قتله بعض جند حماة . فصاح عليها وقال :  
« هذا رجل برجاسي - اي تاجر - لا يقاتل ولا يحضر القتال ،  
وصاح على أولئك المجتمعين ، فتفرقوا وأخذ بيدي ومضى ، فكان  
تأثير تلك المؤكلة خلاصي من القتل » .



## من عجائب القلوب

ومن عجائب القلوب أن الانسان يخوض الغمرات ويركب الاخطار ولا يرتاع قلبه من ذلك ، ويخاف ما لا يخاف منه الصبيان ولا الذسوان .

ولقد رأيت عمي عز الدين أبا العساكر سلطان ، رحمه الله ، وهو من أشجع أهله له المواقف المشهورة والطعنات المذكورة ، وهو إذا رأى الفأرة تغيرت صورة وجهه ولحقه كالزمع من نظرها ، وقام من الموضع الذي يراها فيه .

وكان في غلمانة رجل شجاع معروف بالشجاعة والاقدام اسمه صندوق ، يفزع من الحية حتى يخرج من عقله ، فقال له والدي ، رحمه الله ، وهو واقف بين يدي عمي : « يا صندوق ، أنت رجل جيد معروف بالشجاعة ما تستحي تفزع من الحية ؟ » قال : « يا مولاي ، وأي شيء في هذا من العجب ؟ في حمص رجل شجاع بطل من الابطال يفزع من الفأرة ويموت » - يعني مولاه - فقال له عمي ، رحمه الله : « قبحك الله يا كذا كذا »

ورأيت مملوكا لوالدي ، رحمه الله ، يقال له أولؤ ، وكان رجلا جيدا مقداما ، وقد خرجت ليلة من شيزر ومعها بغال كثيرة وبهائم أريد أحمل عليها من الجبل خشبا قد قطعت هناك لنا عورة لي ، فسرنا من ظاهر شيزر ونحن نظن أن الصبح قد دنا ، فوصلنا إلى قرية يقال لها دبين ( ١٠٩ ) وما تنصف الليل ، فقلت : « انزلوا ما ندخل الجبل في الليل »

فلما نزلنا واستقررنا سمعنا صهيل حصان ، فقلنا . « الافرنج ! » فركبنا في الظلام وأنا أحدث نفسي أنني اطعن واحدا منهم وأخذ حصانه ويأخذ دوابنا الرجال الذين مع الدواب ،

فقلت لأولئ وثلاثة من الغلمان : « تقدمونا ، اكشفوا هذا الصهيل » ، فتقدموا يركضون ، فلقوا أولئك وهم في جمع وسواد كثير ، فسبق اليهم أولئ وقال : « تكلموا ، والا اقتلكم كلكم » ، وهو رام جيد ، فعرفوا صوته وقالوا « حاجب أولئ ؟ » قال : « نعم » ، وإذا هم عسكر حماة مع الأمير سيف الدين سوار ( ١١٠ ) رحمه الله ، قد أغاروا على بلاد الفرنج وعادوا ، فكان هذا اقدامه على ذلك الجمع ، وإذا رأى في بيته حية خرج منهزما وقال لامراته : دونك والحية ، فتقوم إليها تقتلها .

والمحارب ، ولو أنه الاسد ، أتلفه وأعجزه اليسير من العوائد ، كما أصابني على حمص ، جرحت وقتل حصاني ، وضربت خمسين سيفاً - كل ذلك لنفاذ المشيئة ، ثم لتواني الركابي في تركيب عنان اللجام ، فإنه عقده في الباشات ( ١١١ ) لم يشقه فلما جذبته أريد الخروج من بينهم انحل العنان من عقده في الباشات ، فنالني مانالني .

وقد كان صاح الصائح يوما بشيزر من القبلة ، فلبسنا وفزعنا ، فكان الصائح كذابا ، فرحل أبي وعمي ، رحمهما الله ، ووقفت بعدهما ، فوقع الصائح من الشمال من جانب الفرنج ، فركضت حصاني إلى الصائح ، فرأيت الناس في المخاض يركب بعضهم بعضا وقالوا : « الفرنج ! » فعبرت المخاض وقتلت للناس : « لا بأس عليكم ، أنا دونكم ! » ، ثم طلعت أركض إلى راييه القرافطه ، وإذا الخيل مقبلة في جمع كثير ، وقد تقدم منهم فارس لابس زردية وخوذة ، وقد دنا مني ، فقصدته استفرص بعده من أصحابه ، واستقبلني ، فحين حركت حصاني إليه انقطع ركابي وما بقي لي مندوحة عن لقائه فقامت إليه بلا ركاب ، فلما تدانينا ولم يبق غير الطعن سلم علي وخدمني وإذا هو السلار عمر خال السلار زين الدين اسماعيل بن عمر بن بختيار ، وكان نهض مع عسكر حماة إلى بلد كفر طاب ، فخرج عليهم الاقـرنج فعادوا الى شـيزر منهزمين ، وتقدمهم الامير سوار ، رحمه الله .

- ٥٦٩٤ -

فسبيل الرجل المحارب يتفقد عدة حصانه ، فان أيسر الأشياء وأقلها يؤذي ويهلك ، كل ذلك مقرون بما تجري به الاقدار والاقضية .

وقد شهدت قتال الأسد في مواقف لا أحصيها ، وقتلت عدة منها لم يشركني أحد في قتلها ، فما نالني من شيء منها أذى .

وخرجت يوما مع والدي ، رحمه الله ، إلى الصيد في جبل قريب من البلد نصيد منه الجبل بالبزاة ، ويكون الوالد ونحن معه والبازيارية على الجبل وبعض الغلمان والبازيارية أسفل من الجبل للتخليص من البزاة والوقوف على الذبيح ، فقامت لنا ضبعة فدخلت مغارة ، وفي تلك المغارة محجر دخلت فيه ، فصحت بسلام لي ركابي اسمه يوسف خلع ثيابه واخذ سكينه ودخل في ذلك المحجر ، وأنا في يدي قنطرية مستقبل الموضع إذا خرجت طعنتها ، فصاح الغلام : « اليكم قد خرجت ! » فطعنتها أخطأتها لأن الضبعة رقيقة الحجم ، فصاح الغلام « عندي ضبعة أخرى ! » فخرجت في إثرها ، فقامت وقفت في باب المغارة وهي ضيقة الباب متعلية قدر قائمتين انظر ما يعمل اصحابنا الذين في الوطا بالضباع التي نزلت اليهم ، فخرجت ضبعة ثالثة ، وأنا مشغول بالنظر إلى الاوائل ، فندستني ( ١١٢ ) رمتني من باب المغارة الى القرارة التي تحته فكانت تكسرني ، فتأنيت بضبعة وما تأنيت بالسباع فسبحان مقدر الاقدار ومسبب الاسباب.

وشاهدت من ضعف نفوس بعض الرجال وخورهم ما لا كنت أظنه بالنساء ، فمن ذلك أنني كنت يوما على باب دار والدي ، رحمه الله ، وأنا صبي عمري دون العشر سنين ، فلطم غلام لوالدي اسمه محمد العجمي صبيبا من خدام الدار ، فانهزم منه وجساء تعلق بذيبي ، فلحقه وهو ماسك بذيبي فلطمه ، فضربته بقضيب كان في يدي فدفعني ، فجذبت من وسطي سكيناً ضربته بها فوقع في برزه الايسر ، فوقع ، وجاءنا غلام كبير لوالدي يقال له القائد اسد فوقف

عليه ونظر الجرح واذا تنفس طلع منه الدم مثل فواقع الماء ، فاصفر وارتمع ووقع مغشياً عليه ، فحمل الى داره وكان يسكن معنا في الحصن على تلك الحال ، فما افاق من غشيته إلى آخر النهار ، وقد مات المجروح وقبر .

ومما يقارب ذلك : كان يزورنا إلى شيزر رجل من أهل حلب فيه فضل وأدب يلعب بالشطرنج طبقة ، ويلعب بها غائباً ، يقال له أبو المرجى سالم بن قانت ، رحمه الله ، فكان يقيم عندنا السنة والأكثر والأقل ، فربما مرض فيصف له الطبيب الفصاد ، فاذا حضر الفاصد تغير لونه وارتمع ، فاذا فصد غشي عليه فلا يزال في غشيه حتى يشد فصاه ثم يفيق .

ومما يضاد ذلك أنه كان في أصحابنا من بني كنانة رجل أسود يقال له علي بن فرج طلعت في رجله حبة فتخبثت ، وتناثرت أصابعه وانتنت رجله ، فقال له الجرائحي : « مالرجلك إلا القطع ، وإلا تلفت » ، فحصل عنده مذارا وجعل يذشر ساقه حتى يغلبه فيض الدم ويغشى عليه ، فاذا هو افاق عاد إلى نشرها حتى قطعها من نصف ساقه ، وداوها فبرأت .

وكان ، رحمه الله ، من أجلة الرجال وأقواهم ، فكان يركب في سرجه بركاب واحد ، وفي الجانب الآخر سير تكون فيه ركبتة ، ويحضر القتال ويطاعن الفرنج وهو على تلك الحال ، وكنت أراه ، رحمه الله ، لا يستطيع رجل يشابكه ولا يقابضه ، وكان خفيف الروح مع قوته وشجاعته .

فأصبح يوماً من الأيام ، وهو وبذو كنانة يسكنون حصننا حصن الجسر ، أرسل إلى رجال من وجوه بني كنانة فقال : « اليوم يوم مطير ، وعندي فضلة نبيذ ومأكول تتفضلون علي بالحضور لذشب » ، فاجتمعوا عنده ، فجلس في باب البيت وقال : « هل فيكم من يقدر يخرج من الباب إن لم أشأ ؟ » يشير إلى قوته ، قالوا : « لا



والله » ، قال : « هذا يوم مطير ، وما أصبح في داري دقيق ولا خبز ولا نبيذ ، وما فيكم إلا من في داره ما يحتاجه ليومه ، أنفذوا إلى دوركم أحضروا طعامكم ونبيذكم ، والبيت من عندي ، ونجتمع اليوم نشرب ونتحدث » ، قالوا كلهم : « نعم ما رأيت يا أبا الحسن ، وأنفذوا أحضروا ما في دورهم من طعام وشراب وقضوا نهارهم عنده ، وكان رجلا محترما ، فتعالى من خلق الخلق أطوارا ، أين جلد هذا وقوة نفسه من خور أولئك وضعف نفوسهم ؟ .

وقريب من هذا أن رجلا من بني كنانة حدثني بحصن الجسر أن رجلا في الحصن استسقى فشق بطنه فبرئ ، وعاد صحيحا كما كان ، فقلت أريد أبصره واستخبره ، وكان الذي حدثني رجلا من بني كنانة يقال له أحمد بن معبد بن أحمد ، فأحضر ذلك الرجل عندي ، فاستخبرته عن حاله وكيف فعل بنفسه فقال : « أنا رجل صعلوك وحيد استسقى جوفي ، وكبرت حتى عجزت عن التصرف ، وتبرمت بالحياة ، فأخذت موسى وضربت به فوق سرتي في عرض جوفي ، شققته ، فخرج منه قدر طباختين ماء - يعني قدرين - وما زال الماء يفر منه حتى ضمير جوفي ، فخيطنه وداويت الجرح فبرا ، فزال ما كان بي » ، وأراني موضع الشق في جوفه أطول من شبر ، ولا شبهة إن هذا الرجل كان له في الأرض رزق يستوفيه .

والا فقد رأيت من استشفى وفصد الطبيب جوفه فخرج منه من الماء كما خرج من الذي بزل نفسه ، إلا أنه مات من ذلك الفصد ، لكن الأجل حصن حصين .

النصر في الحرب من الله تبارك وتعالى لا بترتيب وتدبير ولا بكثرة نفير ولا نصير ، وقد كنت إذا بعثني عمي ، رحمه الله ، لقتال أتراك أو أفرنج أقول له : « يا مولاي ، أمرني بما أتدبر به إذا لقيت العدو » ، فيقول : « يا بني ، الحرب تدبر نفسها » ، وصدق .

وكان أمرني أن أخذ امرأته وأولاده خاتون بنت تاج الدولة تتش



والعسكر وأمضى أوصلهم إلى حصن مصياث ، وهو إذا ذاك له ،  
وكان يشفق عليهم من حر شيزر ، فركبت وركب أبي وعمي ،  
رحمهما الله ، معنا إلى بعض الطريق ، وعادا وليس معهما الا  
المماليك الصغار لجر الجناثب وحمل السلاح ، والعسكر كله معي ،  
فلما قربا من المدينة سمعا طبل الجسر يضرب ، فقالا : « شيء قد  
جرى في الجسر » فدفعا خيلهما تناقلا ونخبا (١١٣) الى الجسر ، وكان  
بيننا وبين الافرنج ، لعنهم الله ، هدنة ، فنفذوا من كشف لهم  
مخاضة يعبرون منها الى مدينة الجسر ، وهي في جزيرة لا يعبر اليها  
الا من جسر معقود بالحجر والكلس لا يصل الافرنج إليه ، فدلهم ذلك  
الجاسوس على مخاضة ، فركبوا جميعهم من أفامية فأصبحوا إلى  
ذلك الموضع الذي دلهم عليه ، عبروا الماء وملكوا المدينة ونهبوا  
وسبوا وقتلوا ، ونفذوا بعض السبي والنهب إلى أفامية وملكوا  
الدور ، وعلم كل واحد منهم صليبه على دار وركز عليها رايته .

فلما أشرف أبي وعمي ، رحمهما الله ، على الحصن كبر أهل  
الحصن وصاحوا ، فالتقى الله سبحانه على الافرنج الرعب  
والخذلان ، فذهلوا عن الموضع الذي عبروا منه ، ورموا خيلهم ،  
وهم بدروعهم عليها ، في غير مخاض ، فغرق منهم جماعة كثيرة ،  
كان الفارس يغوص في الماء فيسقط عن سرجه ويرسب في الماء  
ويطلع الحصان ، ومضى من سلم منهم منهزمين لا يلاوي بعضهم على  
بعض ، وهم في جمع كثير ، وأبي وعمي معهما عشرة ممالك  
صبيان .

فاقام عمي بالجسر ورجع أبي إلى شيزر ، وأوصلت أنا وأولاد  
عمي إلى مصياث وعدت من يومي وصلت العشاء ، فأخبرت بما  
جرى ، فحضرت عند والدي ، رحمه الله ، وشاورته في أن أمضي إلى  
عمي إلى حصن الجسر ، قال : تصل في الليل ، وهم نيام . ولكن سر  
اليهم من بكرة . فأصبحت سرت وحضرت عنده . وركبنا وقفنا  
على ذلك الموضع الذي غرق فيه الافرنج .

ونزل إليه جماعة من السباح فأخرجوا جماعة من فرسانهم  
وتى ، فقلت لعمي : « يامولاي ، ما نقطع رؤوسهم ونذفنها الى  
شيزر ؟ » ، قال : « افعل » .

فقطعنا منهم نحو من العشرين رأسا ، فكان الدم يسيل منهم  
كأنهم قد قتلوا تلك الساعة ، ولهم يوم وليلة ، وأظن الماء حفظ فيهم  
دمهم \* .

وغنم الناس منهم سلاحا كثيرا من الزريات والسيفوف  
والقنطاريات والخوذ والكاسات الزرد ، ورأيت رجلا من فلاحى  
الجسر ، قد حضر عند عمي ويده تحت ثيابه ، فقال له عمي يمزح  
معه : « أي شيء اعزلت لي من الغنيمة ؟ » قال : « اعزلت لك حصانا  
بعده وزربيته وترسا وسيفا » ، ومضى أحضر الجميع ، فأخذ عمي  
العدة وأعطاه الحصان وقال : « اي شيء بيدك ؟ » قال : « يامولاي ،  
تقابضت أنا والافرنجي وما معي عدة ولا سيف فرميته واكمت وجهه  
وعليه اللثام الزرد حتى اسكرته ، واخذت سيفه قتلته به ، وتهرا  
الجلد الذي على عقد اصابعي ، وورمت يدي فما تدفعني » ، وأظهر  
لنا يده وهي كما قال قد انكشفت عظام اصابعه .

وكان في جند الجسر رجل كردي يقال له أبو الجيش له بنت  
اسمها رفول قد سباهها الافرنج ، وهو قد توسوس عليها يقول لكل  
من لقيه : « سبيت رفول ! » فخرجنا من الغدنسير على النهر ، فرأينا  
في جانب الماء سوادا ، فقلنا لبعض الغلمان : « اسبح ابصر ما هذا  
السواد » ، فمضى إليه فاذا ذلك السواد رفول عليها ثوب ازرق وقد  
رمت نفسها من على فرس الافرنجي الذي أخذها فغرقت ، وعلق  
ثوبها في شجرة صفصاف .

فسكنت لوعة أبيها أبي الجيش ، فكانت الصيحة التي وقعت في  
الافرنج وهزيمتهم وهلاكهم من لطف الله عز وجل لا بقوة  
ولا بعسكر ، فتبارك الله القادر على ما يشاء .

وقد يكون الترهيب في بعض الاوقات نافعا في الحرب .

من ذلك أن أتاك ، وصل الشام وأنا معه في سنة تسع وعشرين وخمس مائة ، وسار قاصدا دمشق ، فلما نزلنا القטיפفة قال لي صلاح الدين رحمه الله : اركب وتقدمنا الى الفستقية ( ١١٤ ) . أقم على الطريق لا يهرب أحد من العسكر الى دمشق . فتقدمت وفتت ساعة ، وإذا صلاح الدين قد أتى في قلة من أصحابه ، فرأينا في عذراء بخانا ، فأرسل خيلا تبصر ما هو البخان ، فإذا هم قوم من عسكر دمشق يحرقون التبن الذي في عذراء ، فانهزموا ، فتبعهم صلاح الدين ونحن معه لعل في ثلاثين أربعين فارسا فوصلنا القصير وإذا عسكر دمشق جميعه في القصير قاطع الجسر ، ونحن عند الخان ، فوقفنا مستترين بالخان ويخرج منا خمسة ستة فوارس حتى يبصرهم عسكر دمشق ويعودون الى خلف الخان نوهمهم أن لنا كميننا .

ونفذ صلاح الدين فارسا إلى أتاك يعرفه بما نحن فيه ، فرأينا نحو من عشرة فوارس مقبلين إلينا مسرعين ، والعسكر خلفهم متتابع ، فوصلونا وإذا هو أتاك قد تقدم ، والعسكر في إثره ، فأذكر على صلاح الدين فعله وقال : « تسرعت الى باب دمشق بثلاثين فارسا لتكسر ناموسي » ، ولامه ، وهم يتكلمون بالتركي ولا أدري ما يقولون .

فلما وصلنا أوائل العسكر قلت لصلاح الدين : « عن أمرك أخذ هؤلاء النين قد وصلوا ، وأعبر إلى خيل دمشق الواقعة مقابلنا أقلعهم » ، قال : « لا ، كذا وكذا ممن ينصح في خدمة هذا ، ما تسمع أي شيء قد عمل بي ؟ » .

ولولا لطف الله تعالى ثم ذلك الترهيب والتخيل كانوا قلعونا . وجرى لي مثل ذلك وقد سرت مع عمي ، رحمه الله ، من شيزر نريد كفر طاب ، ومعنا خلق من الفلاحين والصعاليك لنهب ما على

كفرطاب من غلة وقطن ، فانتشر الناس في النهب وخيل كفرطاب قد ركبت ووقفت عند البلد ، ونحن بينهم وبين الناس المنتشرين في الزرع والقطن ، وإذا فارس من أصحابنا يركض من الطلائع قال : « جاءت خيل أفامية » ، فقال عمي : « تقف أنت مقابل خيل كفرطاب ، وأسير أنا بالعسكر ألقى خيل أفامية » ، فوقفت في عشرة فوارس في شجر الزيتون متوارين ، ويخرج منا ثلاثة أربعة يخيلون للفرنجة ويعودون إلى شجر الزيتون ، والافرنج يعتقدون أننا في جماعة فهم يجتمعون ويصيحون ويدفعون خيلهم إلى أن يقربوا منا ونحن لا نتزعزع فيرجعوا ، فما زلنا كذلك حتى عاد عمي وانهزم الافرنج الذين جاؤوا من أفامية .

فقال له بعض غلمانه : « يامـولاي ، ترى ما فعل - يعني - تخلف عذك وما سار معك للقضاء خيل أفامية » ، فقال له عمي : « لولا وقوفه في عشرة فوارس مقابل خيل كفرطاب وراجلها ، كانوا أخذوا هذا العالم كله » .

فكان الترهيب والتخييل للافرنج في ذلك الوقت أدفع من قتالهم لأننا كنا في قلة وهم في جمع كثير .

وجرى لي مثل ذلك بدمشق ، كنت يوما مع الأمير معين الدين ، رحمه الله ، فأتاه فارس فقال : « قد أخذ الحرامية قافلة في العقبة حاملة خام » ، فقال لي : « نركب اليهم ؟ » قلت : « الأمر لك ، أمر الشاوشية تستركب العسكر معك » ، قال : « أي شيء حاجتنا إلى العسكر ؟ » قلت : « وما يضرنا من ركوبهم ؟ » ، قال : « ما نحتاجهم » ، وكان ، رحمه الله ، من أشجع الفرسان ، ولكن قوة النفس في بعض المواضع تفريط ومضرة .

فركبنا في نحو من عشرين فارسا فلما أن ضحونا نفذ فارسين كذا ، وفارسين كذا ، وفارسين كذا ، وفارسا كذا يكشفون الطرقات ، وشرنا نحن في قلة فحانت صلاة العصر ، فقال لفلان



لي : « ياسونج ، اشرف مغربا إلى ما نصلي » ، فما سلمنا إلا والغلام يركض ، قال : « هذه الرجالة ، وعلى رؤوسهم شقاق الخام ، في الوادي » ، فقال معين الدين ، رحمه الله : « اركبوا » ، قلت : « أمهل علينا نلبس كزاغنداتنا ، فاذا رايناهم رميناهم برؤوس الخيل ، وطعنناهم فما يدرون كثيرا نحن أو قليل » . قال : « إذا وصلنا إليهم لبسنا » .

وركب وسرنا اليهم ، فلقناهم في وادي حلبون وهو واد ضيق لعل ما بين الجبلين خمسة أذرع ، والجبال من جانبيه وعرة رفيعة ، وطريقه ضيقة إنما يمشي فيها فارس خلف فارس ، وهم في سبعين رجلا بالقسي والنشاب .

فلما وصلناهم كان غلماننا خلفنا بسلاحنا لا يصلون إلينا وأولئك قوم منهم في الوادي ومنهم قوم في سفح الجبل ، فظننت أن النين في الوادي من أصحابنا فلاحى الضياع قد فزعوا خلفهم ، والنين في سفح الجبل هم الحرامية ، فجذبت سيفي وحملت على النين في السفح . فلما طلع الحصان في ذلك الوعر إلا بأخر روجه ، فلما صرت اليهم وحصاني قد وقف ما بقي يندفع استوفى واحد منهم نشابته في فوقه ليضربني . فصحت عليه وتهددته ، فمسك يده عني ، وعدت انزلت الحصان وما اصدق اخلص منهم .

وطلع الأمير معين الدين إلى أعلى الجبل يظن أن هناك من الفلاحين من يستنفذهم ، وصاح إلي من أعلى الجبل « لاتفارقهم حتى أعود » وتوارى عنا ، فرجعت إلى النين في الوادي وقد علمت أنهم من الحرامية فحملت عليهم وحدي لضيق المكان فانهزموا ، ورموا ما كان معهم من الخام ، وخلصت منهم بهيمنتين كانتا معهم عليهما خام أيضا ، وطلعا إلى مغارة في سفح الجبل ونحن نراهم وما لنا إليهم سبيل .



وعاد الأمير معين الدين ، رحمه الله ، آخر النهار وما وجد من يستنفره .

ولو كان معنا العسكر كنا ضربنا رقابهم واستخلصنا كل ما معهم .

وقد جرى لي مرة أخرى مثل هذا ، والسبب فيه نفاذ المشيئة ، ثم قلة المخبرة بالحرب ، وذلك أننا سرنا مع الأمير قطب الدين خسرو ابن تلّيل من حماة نريد دمشق إلى خدمة الملك العادل نور الدين ، رحمه الله ، فوصلنا إلى حمص . فلما عزم على الرحيل على طريق بعلبك قلت له : « انا أتقدم أبصر كنيسة تغنايل إلى حين تصل » ، قال : « افعل » .

فركبت ومضيت . فأنا في الكنيسة جاءني فارس من عنده يقول : « قد خرجت رجالة حرامية على قافلة أخذوها ، فاركب والقني إلى الجبل » ، فركبت ولقيته ، فصعدنا في الجبل فرأينا الحرامية في واد تحتنا ، والجبل الذي نحن عليه محيط بذلك الوادي ، فقال له بعض أصحابه : « ننزل إليهم ؟ » قلت : « لا تفعل ، ندور على الجبل ونصير فوق رؤوسهم نحول بينهم وبين طريقهم إلى المغرب ، ونأخذهم » ، وكانوا من بلاد الأفرنج ، فقال آخر : « إلى ما ندور على الجبل ، نكون قد وصلنا إليهم وأخذناهم » ، فنزلنا ، فلما رأنا الحرامية صعدوا في الجبل ، فقال لي : « اصعد إليهم » ، فحرصت على الطلوع ، فما قدرت .

وكان على الجبل منا خيالة ستة سبعة . فترجلوا إليهم ، وجاءوا يقودون خيلهم معهم ، وأولئك في جماعة ، فحملوا على أصحابنا فقتلوا منهم فارسين ، وأخذوا حصانينهما وحصانا آخر ، وسلم صاحبه ، ونزلوا من جانب الجبل الآخر بالغنيمة ، وعدنا نحن وقد قتل منا فارسان وأخذ منا ثلاثة حصن والقافلة ، فهذا تقرير لقلة المخبرة بالحرب .

فأما التغرير في الاقدام فما هو الزهد في الحياة ، وإنما سببه أن الرجل إذا عرف بالاقدام ووسم باسم الشجاعة وحضر القتال طالبتة همته بفعل ما يذكر به ويعجز عنه سواء ، وخافت نفسه الموت وركوب الخطر ، فتكاد تغلبه وتصنه عما يريد يفعله ، حتى يضطرها ويحملها على مكروهاها ، فيعتريه الزممع وتغير اللون لذلك ، فإذا نخل في الحرب بطل روعه وسكن جأشه .

واقـد حضرت حصار حصن الصور ( ١١٥ ) مع ملك الامراء اتابك زنكي ، رحمه الله - وقد تقدم شيء من ذكره - وكان للامير فخر الدين قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن ارتق رحمه الله . وكان مشحونا بالرجال الجرخیة ، وذلك بعد كسرتة على آمد ، فأول ما ضربت الخيام نفذ رجلا من أصحابه صاح تحت الحصن : « يا جماعة الجرخیة ، يقول لكم اتابك : ونعمة السلطان لئن قتل من أصحابي رجل واحد بنشابكم لأقطعن أيديكم » ، ونصب على الحصن المجانيق .

فهدمت جانبا منه وما بلغ الهدم منه بحيث تطلع اليه الرجال ، فجاء رجل من جندارية اتابك من أهل حلب يقال له ابن العريق ، طلع في تلك الثغرة وضاربهم ، بسيفه فجرحوه عنة جراح ورموه من البرج الى الخندق ، وتكاثر الناس عليهم في تلك الثغرة فملكوا الحصن ، وطلع نواب اتابك إليه فأخذ مفاتيحه ففـنـها الى حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي بن ارتق ، واعطاه الحصن .

واتفق أن نشابة جرخ ضربت رجلا من الخراسانية في ركبته قطعت الفلانة التي على مفصل الركبة ، فمات .

فأول ما ملك اتابك الحصن استدعى الجرخیة ، وهم تسعة نفر ، فجاؤوا وقسيهم موتورة على أكتافهم ، فأمر بحز إبهاماتهم من زنوبهم ، فاسترخت أيديهم وتلفت .

وأما ابن العريق فداوى جراحه وبرأ بعد أن شارب الموت ، وكان رجلا شجاعا يحمل نفسه على الاخطار .

ورأيت مثل ذلك وقد نزل أتابك على حصن البارعية ( ١١٦ ) وحوله صفا صخر لا تنضرب عليه الخيام ، فنزل أتابك في الوطا ووكل به الامراء بالذوبة ، فركب إليه أتابك يوما والذوبة للامير أبي بكر الديبسي وما معه أهبة القتال ، فوقف أتابك وقال لأبي بكر : « تقدم قاتلهم » . فزحف بأصحابه وهم أعراء ، وخرج اليهم الرجال من الحصن ، فتقدم رجل من أصحابه يقال له مزيد لم يكن قبل ذلك من المشهورين بالقتال والشجاعة ، فقاتل قتالا عظيما وضرب فيهم بسيفه وفرق جمعهم ، وجرح عنة جراح ، فرأيته قد حملوه الى العسكر وهو في آخر رمقه ، ثم عوفي ، وقدمه أبو بكر الديبسي وخلع عليه وجعله من جملة جناريتة .

كان أتابك يقول لي : « ثلاثة غلمان : أحدهم يخاف الله تعالى ، وما يخافني - يعني زين الدين علي كوجك ، رحمه الله - والآخر يخافني وما يخاف الله تعالى يعني نصير الدين جقر ، رحمه الله ، والآخر ما يخاف الله ولا يخافني - يعني صلاح الدين محمد بن ايوب اليغسياني ، رحمه الله -

وشهدت منه ، تجاوز الله عنه ، ما يحقق قول أتابك ، وذلك أنا زحفنا يوما إلى حمص وقد اصاب الأرض في الليل مطر عظيم حتى ما بقيت الخيل تتصرف من ثقل الأرض بالوجل ، والرجالة يتناوشون ، وصلاح الدين واقف وأنا معه ، ونحن نرى الرجالة بين أيدينا ، فعدا واحد من الرجالة إلى رجالة حمص اختلط بهم ، وصلاح الدين يراه ، فقال لواحد من أصحابه : « هات ذاك الرجل الذي كان إلى جانبه » ، فمضى أحضره ، فقال له : « من هذا الذي كان انهزم من جانبك وبخل إلى حمص ؟ » قال : « والله ، يامولاي ، ما أعرفه » ، قال : « وسطوه » ، قلت : « يامولاي تعتقله وتكشف عن ذلك الرجل ، فإن كان يعرفه أو متبه بنسب ضربت

رقبته ، وإلا ترى فيه رأيك » ، فكأنه جنح الى قولي ، فقال غلام له من خافه : « يهرب واحد يؤخذ الذي كان جانبه تضرب رقبته اويوسط » ، فاحذقه كلامه وقال : « وسطوه » ، فرفسوه كجاري العانة ووسطوه ، وما له ننب إلا اللجاج وقلة مراقبة الله تعالى .

وحضرته مرة أخرى بعد ما وصلنا من مصاف بغداد ، واتابك يجتهد يظهر تجلدا وقوة وقد أمر صلاح الدين بالسير الى الامير قفجاق يكبسه ، فسرنا من الموصل ستة أيام ونحن في غاية الضعف ، فوصلنا موضعه وجدناه قد تعلق في جبال كوهستان ، فنزلنا على حصن يقال له ماسر ، ونزلنا عليه طلوع الشمس ، وامرأة طلعت من الحصن قالت : « معكم خام ؟ » قلنا : « أي وقت هذا للبيع والشراء ؟ » ، قالت : « نريد الخام نكفذك به ، فإلى خمسة أيام تموتون كلكم » ، تريد أن ذلك الموضع وخم .

فنزل ورتب الزحف إلى الحصن من بكرة وأمر الذقابين يبدلون تحت برج من تلك البراج ، والحصن كله معمور بالطين ، والرجال الذين فيه من الفلاحين ، فزحفنا اليه وطلعنا إلى تلة ، ونقّب الخراسانية برجا فوق وعليه اثنان . أما الواحد فمات وأما الآخر فأخذه اصحابنا وجاؤوا به الى صلاح الدين ، قال : « وسطوه » ، قلت : « يامولاي ، هذا شهر رمضان ، وهذا رجل مسلم لا تتخذ أثمه » ، قال : « وسطوه حتى يسلموا الحصن » قلت : « يامولاي ، الحصن الساعة تملكه » ، قال « وسطوه » ، ولج فيه فوسطوه ، وأخذنا الحصن في ساعتنا تلك ، فجاء الى الباب يريد قوما من أصحابه ومضى نزل في خيمته لحظة بقدر ما تفرق العسكر الذي كان معه ، ثم ركب وقال لي : « اركب » . فركبنا وطلعنا الى الحصن . فجلس وأحضر ناطور الحصن يعرفه بما فيه ، وأحضر بين يديه نساء وصبياناً نصارى ويهود .

فحضرت عجوز كربية ، فقالت لذلك الناطور : « رأيت ابني فلانا ؟ » ، قال : قتل، ضربته نشابة ، قالت : « فابني فلان ؟ » قال :



وسطه الأمير ، فصاحت وكشفت رأسها وشعرها كالقطننة المندوفة ، فقال لها الناطور : « اسكتي لأجل الأمير » قالت : « وأي شيء بقي الأمير يعمل بي ، كان لي ولدان قتلهما » ، فدفعوها .

ومضى الناطور فأحضر شيخا كبيرا مليح الشسبة يمشي على عصاتين سلم على صلاح الدين ، قال : « أي شيء هو هذا الشيخ ؟ » ، قال « إمام الحصن » ، قال : « تقدم يا شيخ تقدم » فتقدم ، حتى جلس بين يديه ، فمد يده قبض لحيته وأخرج سكينه مشدودة في بند قبائه وقطع لحيته من حكمته ، فبقيت في يده مثل البرجم ( ١١٧ ) فقال له ذلك الشيخ : « يامولاي ، بأي شيء استوجبت ان تفعل بي هذا الفعل ؟ » ، قال : « بعصيانك على السلطان ، قال : « والله ، ما علمت بوصولكم حتى جاء الناطور الساعة أعلمني واستدعاني » .

ثم رحلنا نزلنا على حصن آخر للأمير قفجاق يقال له الكرخيني ( ١١٨ ) . أخذناه فوجدوا فيه خزانه ملأى بثياب خام مخططة صدقة لفقراء مكة ، وسبى من كان في الحصن من النصاري واليهود المعاهدين ، ونهب ما فيهما نهب الروم . قاله سبحانه يتجاوز عنه . أقف من هذا الفضل عند هذا الحد متمثلا بقولي :

دع ذكر من قتل الهوى فحديثهم  
فينا يشيب ذكره المولود ( ١١٩ )

وأعود إلى ذكر شيء مما جرى لنا والاسماعيلية في حصن شيزر اجتاز في ذلك اليوم ابن عم لي يقال له ابو عبد الله بن هاشم رحمه الله فرأى رجلا من الباطنية في برج من دار عمي معه سيفه وترسه ، والباب مفتوح وبرأ منه خلق كثير من أصحابنا ومايجسر أحد يدخل اليه ، فقال ابن عمي لواحد من أولئك الوقوف : « أدخل اليه » فدخل اليه ، فما أمهله الباطني ان ضربه فجرحه ، فخرج وهو مجروح ، فقال لآخر : « أدخل اليه » فدخل اليه ، فضربه



الباطني فجرحه وخرج كما خرج صاحبه ، فقال ابن عمي : « يارئيس جواد أدخل اليه » فقال له الباطني : « يامؤاجر ( ١٢٠ ) أنت ليش ماتدخل ؟ تدخل الى الناس وأنت واقف ، أدخل حتى تبصر » فدخل اليه الرئيس جواد فقتله ، وهذا الجواد حكم في الثقاف ، رجل شجاع ثقاف .

ومامر عليه الا اعوام قليلة حتى رأيت بدمشق سنة أربع وثلاثين وخمس مائة وهو علاف يبيع الشعير والتبن ، وقد كبر حتى صار كالشن البالي يعجز عن دفع الفأر عن علافه ، فما بال الرجال ؟ فكنت أتعجب من أول أمره ، عندما صار اليه أخـر أمره ، وما حال من حاله طول عمره .

ولم أدر أن داء الكبر عام ، يعدي كل من أغلفه الحمام ، فلما توقلت ذروة التسعين ، وأبلاني مر الأيام والسنين ، صرت كجواد العلاف ، لا الجواد المتلاف ، ولصقت من الضعف بالأرض ، وبخل من الكبر بعضي في بعض ، حتى أنكرت نفسي ، وتحسرت على أمسي ، وقلت في وصف حالي :

لما بلغت من الحياة الى مدى  
قد كنت أهواه تمنيت الردا

لم يبق طول العمر مني منة

القي بها صرف الزمان اذا اعتدا

ضعفت قواي وخانني الثقـتان  
من بصري وسمعي حين شارفت المدا

فاذا نهضت حسبت أني حامل  
جبلا وأمشي ان مشيت مقيدا

- ٥٧٠٨ -

وأدب في كفي العصا وعهدتها  
في الحرب تحمل اسمرا ومهندا

وأبيت في لين المهاد مسهدا  
قلقا كأنتني افترشت الجلمدا

والمرء يذكس في الحياة وبينما  
بلغ الكمال وتم عاد كما بدا ( ١٢١ )

وأنا القاتل بمصر أذم من العيش الراحة والدعة وماكان أعجل  
تقضيه وأسرعه :

أنظر الى صرف دهري كيف عوبني  
بعد المشيب سوى عاداتي الاول

وفي تغاير صرف الدهر معتبر  
واي حال على الأيام لم تحل

قد كنت مسعر حرب كلما خمدت  
ذكيته باقتداح البيض في القل

همي منازلة الاقران احسبهم  
فراؤسي فهم مني على وجل

أمضي على الهول من ليل وأهجم من  
سيل وأقدم في الهيجاء من أجل

فصرت كالغاة المكسال مضجعتها  
لى الحشايا وراء السجف والكل

- ٥٧٠٩ -

قد كنت أعفن من طول الثواء كما  
يصدى المهند طول اللبث في الخلال

أروح بعد دروع الحرب في حال  
من الد بيقى فبؤسا لي وللحال

وما الرفاهة من رامي ولا أربي  
ولا التنعيم من شأني ولا شغلي

ولست أرضى بلوغ المجد في رقه ولا  
العلى دون حطم البيض والأسل ( ١٢٢ )

وكننت أظن أن الزمان لا يبلى جديده ، ولا يهي شديده ، وأني اذا  
عدت الى الشام وجدت به أيامي كعهدي ، وماغيرها الزمان  
بعدي ، فلما عدت كذبتني وعود المطامع ، وكان ذلك الظن كالسراب  
اللامع ، اللهم غفرا هذه جملة اعتراضية عرضت ، ونفثه هم اقضت  
ثم انقضت أعود الى المهم ، وأدع تعسف الليل المدلهم ، لو صفت  
القلوب من كدر الذنوب ، وفوضت الى عالم الغيوب ، علمت أن  
ركوب اخطار الحروب ، لا ينقص مدة الاجل المكتوب .

فإنني رأيت يوم تقاتلنا نحن والاسماعيلية في حصن شيزر معتبر  
يوضح للشجاع العاقل ، والجبان الجاهل ، أن العمر موقت  
مقدر ، لا يتقدم أجله ولا يتأخر ، وذلك أننا بعد فراغنا ذلك اليوم من  
القتال ، صاح انسان من جانب الحصن : « الرجال ! » وعندي  
جماعة من أصحابي معهم سلاحهم ، فبادرنا الى الذي  
صاح ، فقلنا : « مالك ؟ » فقال : « حس الرجال هاهنا » فجئنا الى  
اصطبل خال مظلم ، فدخلناه فوجدنا فيه رجلين معهم  
سلاحهما ، فقتلناهما ، ووجدنا رجلا من أصحابنا مقتولا ، وهو  
على شيء ، فرفعناه وجدنا تحته رجلا من الباطنية قد تسجى ورفع

المقتول على صدره ، فحملنا صاحبنا وقتلنا الذي كان تحته ووضعنا صاحبنا في الجامع بالقرب من ذلك المكان وفيه جراح عظيمة ، ولانشك أنه ميت لايتحرك ويتنفس ، وأنا والله كنت أحرك رأسه على بلاط الجامع برجلي ، ولانشك أنه ميت كان المسكين اجتاز بذلك الاصطبل فسمع حسا ، فادخل رأسه ليحقق السماع ، فجذبه واحد منهم وضربوه بالسكاكين حتى ظنوا أنه قد مات ، فقضى الله سبحانه ان خيطة تلك الجراح في رقبتة وفي جسمه وعوفي وعاد من الصحة الى ماكان عليه ، فتبارك الله مقدر الأقدار وموقت الآجال والأعمار .

وشاهدت مايقارب ذلك وهو أن الأفرنج ، لعنهم الله ، اغاروا علينا ثلاث الليل الآخر ، فركبنا نريد نتبعهم ، فمنعنا عمي عز الدين ، رحمه الله من اتباعهم وقال : « هذه مكيدة ، والاغارة ماتكون بالليل » ، وخرج من البلد رجاله خلفهم ما علمنا بهم ، فوقع الأفرنج ببعضهم عند رجوعهم قتلوهم وسلم بعضهم .

وأصبحت أنا واقفا في بندر قنين قرية عند المدينة ، فرأيت ثلاثة شخوص مقبلة : أما اثنان فكانا الناس ، وأما الأوسط فما وجهه كوجوه الناس ، فلما ندوا منا وإذا الوسيطاني منهم قد ضربه أفرنجي بسيف في وسط انفه فقطع وجهه الى انفيه ، وقد استرخى نصف وجهه صار على صدره وبين النصفين من وجهه فتح قريب من شبر وهو يمشي بين رجلين ، فدخل البلد وخاط الجرائحي وجهه وداواه ، فالتحم ذلك الجرح ، وعوفي وعاد الى ماكان عليه الى أن مات على فراشه ، كان يبيع الدواب ويسمى ابن غازي المشطوب ، وانما سمي المشطوب بتلك الضربة ، فلا يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخطر ، ولا يؤخره شدة الحذر ، ففي بقائي أوضح معتبر ، فكم لقيت من الأهوال ، وتقدمت المخاوف والأخطار ، ولاقيت الفرسان ، وقتلت الأسود ، وضربت بالسيوف ، وطعنت بالرماح ، وجرحت بالسهام والجروح - وأنا من الأجل في حصن حصين - الى أن بلغت تمام التسعين ، فرأيت

- ٥٧١١ -

الصحة والبقاء ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « كفى بالصحة  
داء » فاعقت النجاة من تلك الأهوال ، وما هو أصعب من القتل  
والقتال ، وكان الهلاك في كنة الجيش ، أسهل من تكاليف  
العيش ، استرجعت مني الأيام بطول الحياة ، سائر محبوب  
الذات ، وشاب كدر النكد ، صفو العيش الرغد ، فأنا كما قلت :

مع الثمانين عاث الدهر في جلدي  
وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي

إذا كتبت بخطي جد مضطرب  
كخط مرتعش الكفين مرتعد

فأعجب لضعف يدي عن حملها قلما  
من بعد حطم القنا في لبة الأسد

وان مشيت وفي كفي العصا ثقلت  
رجلي أخوض الوحل في الجلد

فقل لمن يتمنى طول مدته  
هذي عواقب طول العمر والمدة ( ١٢٣ )

ضعفت القوة ووهت ، وتقضت بلهنية العيش وانتهت ، ونكسني  
التعمير بين الأنام ، وإلى الخمول يؤول تسعر الظلام ، حتى  
أصبحت كما قلت :

تناستني الآجال حتى كأني  
دريئة سفر بالفلاة حسير

ولما تدع مني الثمانون مئة  
كأني إذا رمت القيام كسير



- ٥٧١٢ -

أؤدي صلاتي قاعدا وسجودها  
علي إذا رمت السجود عسير

وقد انذرتني هذه الحال أنني  
كنت رحلة مني وحان مسير ( ١٢٤ )

أعجزني وهن السنين ، عن خدمة السلاطين ، فهجرت مغشى  
أبوابهم ، وقطعت أسبابي من أسبابهم ، واستقلت من  
خدمتهم ، ورددت عليهم ماخولوني من نعمهم ، لعلمي أن ضعف  
الهرم ، لا يقوى على تكاليف الخدم ، وأن سوق الشيخ الكبير ،  
لا ينفق على الأمير ، ولزمت داري ، وجعلت الخمول  
شعاري ، ورضيت نفسي بالانفراد في الغربية ، ومفارقة الأوطان  
والترربة ، إلى أن تسكن نفارتها عن مرارتها وصبرت صبرا لا سير  
على قدمه ، والظمان ذي الغلة عن ورده ، فناداني إليه مكاتبة مولانا  
الملك الناصر صلاح الدنيا والدين ، سلطان الاسلام  
والمسلمين ، جامع كلمة الايمان ، قانع عبدة الصلبان ، رافع علم  
العدل والاحسان ، محيي دولة أمير المؤمنين أبو المظفر يوسف بن  
أيوب ، جمل الله الاسلام والمسلمين بطول بقائه ، وأيدهم بماضي  
سيوفه وأرائه ، وأضفى عليهم وارث ظله ، كما أضفى لهم من  
الأكدار موارد فضله ، وأنفذ في البسيطة عالي أوامرهم  
ونواهيهم ، وحكم صوارمه في أعناق أعاليه ، برحمة

نقبت عني في البلاد ودوني الحزن والسهل ، بمضيعة من الأرض  
لامال لدي ولأهل فاستنقذني من أنياب الذوائب برأيه  
الجميل ، وحملني إلى باب العالي بانعامه الغامر الجزيل ، وجبر  
ماهاضه الزمان مني ، ونفق على كرمه ماكسد على من سواه من  
علو سسني ، فغمرني برغائب الرغائب ، وانهبني من  
أنعامه أهني المواهب ، حتى رعى لي بفائض الكرم ، ما أسلفت  
سواه من الخدم ، فهو يعتد لي بذلك ويرعاه ، رعاية من كآنه

- ٥٧١٣ -

شاهده وراه ، فعطاياه تطرقني وأنا راقد ، وتسري إلي وأنا  
محتسب قاعد ، فأنا من انعامه كل يوم في مزيد ، واكرام كـتـكرمة  
الأهل ، وأنا أقـل العبيد ، أمنني جميل رأيه حـادث  
الحادثات ، وأخلف لي انعامه ماسـلبه الزمان بـالذـكبات  
المجـدات ، وأفاض علي من نوافل فضله بعد تأدية فرضه وسنته  
مايعجز الاغناق عن حمل أيسر منته ، ولم يبق لي جوده أملا أرجو  
نيله ، أقضي زماني بالدعاء له نهاره وليله ، والرحمة التي تدارك بها  
العباد ، وأحيي ببركاتها البلاد ، والسلطان الذي أحيى سنة  
الخلافة الراشدين ، وأقام عمود الدولة والدين ، والبحر الذي  
لاينضب لكثرة الواردين مأؤه ، والجواد الذي لاينقطع من تتابع  
الوافدين عطاؤه ، فلا زالت الأمة من سيوفه في حمى منيع ، ومن  
انعامه في ربيع مريع ، ومن عدله في أنوار تـكـشف عنهم ظلم  
المظالم ، وتكف بسطة يد المعتدي الغانم ، ومن دولته القاهرة في ظل  
وارق ، وفي صعود متتابع أنف في أثر سالف ، وماتعاقب الليل  
والنهار ، ودار الفلك الدوار :

دعوت وقد أمن الحافظان

وذو العرش ممن دعاه قريب

وقد قال سبحانه للعباد

سلوني فاني سميع مجيب ( ١٢٥ )

والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد وعلى آله  
اجمعين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

## الباب الثاني

### نكت ونوادر



## الباب الثاني

### نكت ونوادر

( وما بكم من نعمة فمن الله ) ( ١٢٦ )  
فصل

قال أسامه بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن مذقذ ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين : هذه طرف أخبار حضرت بعضها وحدثني بعضها من أثق به جعلتها الحاقا في الكتاب ، اذ ليست مما قصدت ذكره فيما تقدم ، وابدأت منها بأخبار الصالحين ، رضي الله عنهم أجمعين .

حدثني الشيخ الإمام الخطيب سراج الدين أبو طاهر ابراهيم بن الحسين بن ابراهيم خطيب مدينة اسعرد ( ١٢٧ ) بها في ذي القعدة سنة اثنتين وستين وخمس مائة : قال حدثني ابو الفرج البغدادي ( ١٢٨ ) قال : « شهدت مجلس الشيخ الامام ابي عبد الله محمد البصري ببغداد وحضرته امرأة ، فقالت : ياسيدي اذك كنت ممن شهد في صداقي ، وقد فقدت كتاب المهر ، واسألك أن تتفضل علي تقيم الشهادة بمجلس الحكم ، فقال : ما أفعل حتى تأتيني بحلاوة ، فوَقفت المرأة وهي تـظن أنه يـمـزج بقوله ، فقال : لا تـطـلبي ، لا أمضي معك الا أن تـأتيني بالحلاوة ، فمضت ثم عادت فأخرجت من جيبها من تحت الازار قرطاسا فيه حلاوة يابسة ، فتعجب أصحابه من طلبه الحلاوة مع زهده وتعففه ، فأخذ القرطاس وفتحه ورمى بالحلاوة قطعة قطعة حتى فرغ القرطاس ، ونظره فاذا هو كتاب صداق المرأة الذي فقدته ، فقال : خذي صداقك ، فهذا هو فاستعظم من حضره ذلك ، فقال : كلوا الحلال وقد فعلتم ذلك وأكثر منه . »



حدثني الشيخ أبو القاسم الخضر بن مسلم بن قاسم الحموي بها يوم الاثنين سلخ ذي الحجة سنة سبعين وخمس مائة قال : قدم علينا رجل شريف من أهل الكوفة فحدثنا ، قال : حدثني أبي قال : كنت أدخل على قاضي القضاة الشامي الحموي فيكرمني ويجلني فقال لي يوما : « أنا أحب أهل الكوفة لشخص واحد منهم ، كنت بحماة وأنا شاب وقد توفي بها عبد الله بن ميمون الحموي ، رحمه الله ، فقالوا : أوص ، فقال : « إذا أنا مت وفرغتم من جهازي أخرجوني إلى الصحراء ويطلع إنسان على الراية التي تشرف على المقابر ، وينادي : يا عبد الله بن القيس مات عبد الله بن ميمون ، فاحضره وصل عليه » فلما مات فعلاوا ما أمرهم به ، فاقبل رجل عليه ثوب خام ومئزر صوف من الجانب الذي نادى منه المنادي ، وجاء حتى صلى عليه ، والناس قد بهتوا لا يكلمونه ، فلما فرغ من الصلاة انصرف راجعا من حيث جاء ، فتلاوموا إذ لم يتمسكوا به ويسألونه فسعوا في أثره ، ففاتهم ولم يكلمهم كلمة واحدة .

وقد حضرت ما يقارب ذلك في حصن كيفا ، وكان في مسجد الخضر رجل يعرف بمحمد السماع له زاوية إلى جانب المسجد يخرج وقت الصلاة يصلي جماعة ، ويعود إلى زاويته ، وهو رجل من الأولياء ، فحضرت به - وهو - بالقرب من منزلي - الوفاة ، فقال : « كنت أشتي على الله تعالى أن يحضرني شخي محمد البستي » فما جمع له جهاز غسله وكفنه إلا وشيخه محمد البستي عنده ، فتولى غسله وخرج خلفه تقدمنا صلى عليه ، ثم نزل في زاويته فأقام بها ليلة وهو يزورني وأنا أزوره ، وكان رحمه الله ، عالما زاهدا مارأيت ولا سمعت بمثله ، كان يصوم الدهر ولا يشرب ماء ولا يأكل خبزا ولا شيئا من الحبوب ، إنما يفطر على رمانتين أو عذقود عنب أو تفاحتين ، ويأكل في الشهر مرة أو مرتين لقيمات من لحم مقلي ، فقلت له يوما : « يا شيخ أبا عبد الله ، كيف وقع لك أن

لاتأكل خبزاً ولا تشرب ماء وأنت صائم أبدا؟» قال: «صمت وطويت فوجدتني أقوى على ذلك، فطويت ثلاثاً وقلت: اجعل ما أكله كالميتة التي تحل للمضطر بعد ثلاث، فوجدتني أقوى على ذلك فتركت الأكل وشرب الماء، فألفت النفس ذلك، وسكنت إليه فاستمررت على ماأنا عليه».

وكان بعض أكابر حصن كيفا قديماً عمل للشيخ زاوية في بستان جعله له، فحضر عندي في أول شهر رمضان وقال: «قد جئت مودعاً» قلت: «والزاوية التي قـــــــدت أعدت لك والبستان؟» قال: «يا أخي، مالي حاجة فيهما، ولا أقيم» وودعني ومضى، رحمه الله، وذلك سنة سبعين وخمس مائة.

وحدثني الشيخ أبو القاسم الخضر بن مسلم بن قسيم الحموي بحماسة في التأريخ المتقدم، أن رجلاً كان يعمل في بستان لحمد بن مسعر، رحمه الله، أتى أهله وهم جلوس على أبواب دورهم بالمعرة، فقــــال: «ســــمعت الساعة عجباً!» قالوا: «وما هو؟» قال: «مر بي رجل معه ركوة طلب مني فيها ماء فأعطيته فجدد وضوءه، وأعطيته خيارتين فأبى أن يأخذهما، فقلت: ان هذا البستان نصفه لي بحق عملي، ولحمد ابن مسعر نصفه بــــالملك» فقــــال: «أحــــج العام؟» قلت: «نعم» قال: «البارحة بعد انصرفنا من الوقفة مات وصلينا عليه» فخرجوا في أثره ليستفهموا منه فأروه على بعد لا يمكنهم لحاقه، فعادوا وورخوا الحديث فكان الأمر كما قال.

حدثني الأجل شهاب الدين أبو الفتح المظفر بن أسعد بن مسعود ابن بختكين بن سبكتكين مولى معز الدولة ابن بويه بالموصل في ثامن عشر شهر رمضان سنة خمس وستين وخمس مائة قال: «زار المقتفي بأمر الله أمير المؤمنين، رحمه الله، مسجد صندوباء بظاهر الأنبار على الفرات الغربي، ومعه الوزير وأنا

حاضر ، فدخل المسجد وهو يعرف بمسجد أمير المؤمنين علي ، رضوان الله عليه ، وعليه ثوب دمياطي وهو متقلدا سيفاً حليته حديد لا يدري أنه أمير المؤمنين إلا من يعرفه ، فجعل قيم المسجد يدعو للوزير ، فقال الوزير : « ويحك ! ادع لأمير المؤمنين ، فقال له المقتفي رحمه الله : سله عما يذفع ، قل له : ما كان من المرض الذي كان في وجهه ، فإني رأيته في أيام مولانا المستظهر ، رحمه الله ، وبه مرض في وجهه » وكان في وجهه سلعة قد غطت أكثر وجهه فاذا أراد الأكل سدها بمنديل حتى يصل الطعام إلى فمه ؟ فقال القيم : كنت كما تعلم ، وأن أتردد إلى هذا المسجد من الأنبار ، فإني إنسان فقال : لو كنت تتردد إلى فلان - يعني مقدم الأنبار - كما تتردد إلى هذا المسجد لاستدعي لك طبيباً يزيل هذا المرض من وجهك ، فخامر قلبي من قوله شيء ضاق له صدري ، فذمت تلك الليلة فرأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه وهو في المسجد يقول : ما هذه الخضرة ؟ - يعني خضرة في الأرض - فشكوت إليه ما بي ، فأعرض عني ، ثم راجعته وشكوت إليه ما قاله لي ذاك الرجل فقال : أنت ممن يريد العاجلة ثم استيقظت والسلعة مطروحة إلى جانبي وقد زال ما كان بي ، فقال المقتفي ، رحمه الله : صدق ثم قال لي : تحدث معه وأبصر ما يلتمسه واكتب به توقيعا وأحضره لأعلم عليه ، فتحدثت معه ، فقال : « أنا صاحب عائلة وبنات ، وأريد في كل شهر ثلاثة دنانير » فكتبت عنه مطالعة وعذونها الخادم : قيم مسجد علي ، فوقع عليها بما طلب وقال لي : امض ثبتها في الديوان ، فمضيت ولم أقرأ منها سوى : يوقع له بذلك » وكان الرسم أن يكتب لصاحب المطالعة توقيع ويؤخذ منه ما فيه خط أمير المؤمنين ، فلما فتحها الكاتب لينقلها وجد تحت « قيم مسجد علي » بخط المقتفي أمير المؤمنين - صلوات الله عليه : ولو كان طلب أكثر من ذلك لوقع له به »

وحدثني القاضي الامام مجد الدين أبو سليمان داود بن محمد بن الحسن بن خالد الخالدي ، رحمه الله ، بظاهر حصن كيفا يوم

- ٥٧٢٠ -

الخميس ثاني وعشرين ربيع الأول سنة ست وستين وخمس مائة  
عن من حدثه ان شيخا استأذن على خواجا بزرگ ( ١٢٩ ) رحمه  
الله ، فلما دخل عليه رآه شيخا مهيبا بهيا فقال : « من أين  
الشيخ ؟ » قال : « من غربة » قال : « ألك حاجة ؟ » قال : « أنا رسول  
رسول الله صلى الله عليه وسلم » لم الى ملك  
شاه » قال : « يا شيخ ، اي شيء هذا الحديث ؟ » قال : « إن  
أوصلتني اليه بلغته الرسالة ، والا فأنا لأزول حتى اجتمع به  
وأبلغه مامعي » فدخل خواجا بزرگ على السلطان فأعلمه بما قاله  
الشيخ فقال : « أحضروه » فلما حضر قدم للسلطان مسواكا  
ومشطا وقال له : « أنا رجل لي بنات ، وأنا فقير لا أقدر على  
جهازهن وتزويجهن ، وكل ليلة أدعو الله تعالى أن يرزقني  
ما أجهزهن به ، فذمت ليلة الجمعة من شهر كذا ودعوت الله سبحانه  
بمعاونتي عليهن ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرى  
النائم فقال لي : « أنت تدعو الله تعالى أن يرزقك ما تجهز به  
بناتك ؟ » قلت : نعم يا رسول الله ، فقال : امض الى فلان  
- وسماه - فمر ملك شاه - يعني السلطان - وقل له : قال لك  
رسول الله صلى الله عليه وسلم جهز بناتي ، فقلت : يا رسول  
الله ، إن طلب مني علامة ما أقول له ؟ قال : قل له بعلامة أذك كل  
ليلة عند الذوم تقرأ سورة تبارك » فلما سمع ذلك السلطان  
فقال : هذه علامة صحيحة ، وما أطلع عليها غير الله تبارك  
وتعالى ، فان مؤدبي أمرني أن أقرأها كل ليلة عند الذوم ، وأنا  
أفعل ذلك » ثم أمر له بكل ما طلبه لتجهيز بناته وأجرل عطيته  
وصرفه .

ويشبه هذا الحديث ما سمعته عن أبي عبد الله محمد بن فاذك  
المقريء قال : كنت أقرأ يوما على أبي بكر بن مجاهد رحمه الله  
المقريء ببغداد ، اذ ورد عليه شيخ عليه عمامة رثة وطيلسان وثياب  
رثة ، وكان ابن مجاهد يعرف الشيخ فقال له : ايش كان من خبر  
الصبية ؟ قال : « يا أبا بكر جاءتني البارحة ابنة ثلاثة فطلبت مني  
أهلي دانقا يشترون به سمنا وعسلا يحذكونها به فلم أقدر



عليه ، فبت مهموما ، فرأت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فيما يرى النائم ، فقال : لا تغتم ولا تحزن ، وإذا كان غدا فادخل علي علي بن عيسى وزير الخليفة فأقره مني السلام وقل له : بعلامة اذك صليت علي عند قبوري أربعة آلاف مرة ادفع لي مائة دينار عينا »

فقال ابو بكر بن مجاهد : يا أبا عبد الله في هذا فائدة ، وقطع علي القراءة وأخذ بيد الشيخ وقام فدخل به علي بن عيسى ، فرأى علي بن عيسى مع ابن مجاهد شيئا لم يعرفه فقال : من أين لك يا أبا بكر هذا ؟ فقال يدنيه الوزير ويسمع منه كلامه ، فأدناه وقال : ما خطبك يا شيخ ؟ فقال الشيخ : ان ابا بكر ابن مجاهد يعلم أن لي ابنتين ، والبارحة جاءتني ثالثة ، فطلبت مني أهلي دنانير يشترون به عسلا وسمنا يحذكونها به ، فلم أقدر عليه ، فبت البارحة وأنا مهموم ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول : لا تغتم ولا تحزن ، إذا كان غدا فادخل علي علي بن عيسى وأقره مني السلام وقل له : بعلامة اذك صليت علي عند قبوري أربعة آلاف مرة ادفع لي مائة دينار عينا ، قال ابن مجاهد : فاغرورقت عينا علي بن عيسى بالدموع ، ثم قال : صدق الله ورسوله وصدقت أيها الرجل ، هذا شيء ما كان علم به الا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، يا غلام هات الكيس ، فأحضره بين يديه ، فضرب بيده اليه فأخرج منه مائة دينار ، وقال : هذه المائة التي قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه مائة أخرى للبشارة ، وهذه مائة أخرى هدية منا لك ، فخرج الرجل من عنده ، وفي كفة ثلاثمائة دينار »

وحدثني القائد الحاج أبو علي في شهر رمضان في سنة ثمان وستين وخمس مائة بحصن كيفما قال : « كنت بالموصل جالسا في دكان محمد بن علي بن مامة ، فاجتاز بنا رجل فقاعي (١٣٠) ضخم

غليظ الساقين فدعاه محمد وقال : يا عبد علي بالله حدث فلانا حديثك قال : أنا رجل أبيع الفقاع كما ترى ، فبت ليلة اربعاء وأنا



صحيح فانتبهت وقد انحل وسطي فلا أقدر على الحركة ويبست  
رجلاي ودقتا ، حتى بقيت الجلد والعظم فكنت أزحف الى وراء زين  
الدين علي كوجك رحمه الله ، فأمر بحملي الى داره  
فحملت ، وأحضر الأطباء وقال : أريد أن تـداووا  
هذا ، فقالوا : نعم نداويه ان شاء الله ، ثم اخذوا مسمارا فاحموه  
ثم كوووا به رجلي فما حسست به ، فقالوا لزين الدين : ما نقدر على  
دواء هذا ولا فيه حيلة ، فوهب لي دينارين وحمارا ، فبقي الحمار  
عندي نحوا من شهر ومات ، فعدت قعدت في طريقه ، فوهب لي  
حمارا آخر فمات ، ووهب لي حمارا ثالثا فمات ، فعدت الى  
سؤالي ، فقال لواحد من أصحابه : اخرج بهذا فارمه في  
الخندق ، فقلت له : بالله ارمني على وركي فاني ما أحس فيها بما  
يكون ، فقال : ما أرميك الا على رأسك ، فاذا رسول زين الدين  
رحمه الله قد جاءني فربني اليه - وكان الذي قاله من رمي  
مزاها - فلما أحضروني بين يديه أعطاني أربعة دنانير وحمارا .  
فبقيت على ما أنا عليه الى ليلة رأيت فيها فيما يرى النائم كأن  
رجلا وقف علي : وقال : قم ، قلت : من أنت ؟ قال : أنا علي بن  
أبي طالب ، فقممت ووقفت ، فأذنبته امرأتي وقلت : ويحك ، قد  
أبصرت كذا وكذا ، فقالت : هأنت قائم ، فمشيت على رجلي وزال  
ما كان بي ، ورجعت كما تراني ، فمضيت الى عند زين الدين الأمير  
علي كوجك رحمه الله فقصصت عليه منامي ورأني قد زال ماراه  
بي ، فأعطاني عشرة دنانير »

#### فسبحان الشافي المعافي

حدثني الشيخ الحافظ أبو الخطاب عمر بن محمد بن عبد الله بن  
معمر العلوي بدمشق أوائل سنة اثنتين وسبعين وخمس مائة  
قال : حكى لي رجل ببغداد عن القاضي أبي بكر محمد بن عبد الباقي  
ابن محمد الأنصاري الفرضي ، المعروف بقاضي المارستان ، أنه  
قال : « لما حججت ، بينا أطوف بالبيت اذ وجدت عقدا من اللؤلؤ  
فشددته في طرف احرامي ، فبعد ساعة سمعت انسانا ينشده في

- ٥٧٢٣ -

الحرم وقد جعل لمن يراه عليه عشرين ديناراً ، فسأله علامة ماضع له فأخبرني ، فسلمته اليه ، فقال لي : « تجيء معي الى منزلي لأدفع اليك ما جعلته لك » فقلت : مالي حاجة الى ذلك ، وما دفعته اليك بسبب الجعالة ، وأنا من الله بخير كثير ، فقال : « ولم تدفعه الا لله عز وجل ؟ » فقلت : « نعم » فقال : « استقبل بنا الكعبة وأمن على دعائي » فاستقبلنا الكعبة فقال : « اللهم اغفر له وارزقني مكافأته » ثم ودعني ومضي .

ثم اتفق انني سافرت من مكة الى ديار مصر ، فركبت في البحر متوجها الى المغرب ، فأتخذت الروم المركب وأسرت فيمـن أسر ، فوقع في نصيب بعض القسوس ، فلم ازل أخدمه الى أن دنت وفاته ، فأوصى باطلاقي .

فخرجت من بلد الروم فصرت الى بعض بلاد المغرب ، فجلست اكتب على دكان خباز وكان ذلك الخباز يعمل بعض تناء ذلك المدينة ( ١٣١ ) فلما كان في رأس الشهر جاء غلام ذلك الثاني الى الخباز فقال « سيدي يدعوك لتحاسبه » فاستصحبني معه ومضينا اليه فحاسبه على رقاعه ، فلما رأى معرفتي في الحساب وخطي طلبني من الخباز فغير ثيابي وسلم الي جباية ملكة وكانت له نعمة ضخمة ، وأخلى لي بيتاً في جانب داره .

فلما مضت مديدة قال لي : « يا أبا بكر ما رأيك في التزويج ؟ » قلت : « ياسيدي انا لا أطيق نفقة نفسي ، فكيف أطيق النفقة على زوجة ؟ » قال : « أنا أقوم عنك بالمهر والمسكن والكسوة وجميع ما يلزمك » فقلت : « الأمر لك » فقال : « يا ولدي ان هذه الزوجة فيها عيوب شتى - ولم يترك شيئاً من العيب في الخلقة من رأسها الى قدمها الا ذكره لي ، وأنا أقول : « رضيت - وباطني في ذلك كظاهري ، فقال لي : « الزوجة ابنتي » وأحضر جماعة وعقد العقد .

- ٥٧٢٤ -

فلما كان بعد أيام قال لي : « تهيأ لدخول بيتك ، ثم أمر لي بكسوة فاخرة ودخلت الى دار فيها التجميل والآلات ، ثم أجالست في المرتبة ، وأخرجت العروس تحت النمط فقامت لتلقيها ، فلما كشفت النمط رأيت صورة مارأيت في الدنيا أجمل منها ، فهربت من الدار خارجا ، فلقيني الشيخ وسألني عن سبب هجري ، فقلت : « إن الزوجة ماهي التي ذكرت لي فيها من العيوب مذكرت » فتبسم وقال : يا ولدي هي زوجتك ، وليس لي ولد سواها ، وانما ذكرت لك مذكرت لئلا تستقل ماتراه ، فعدت وجليت علي .

فلما كان من الغد جعلت أتأمل ماعليها من الحلي والجوهر الفاخر ، فرأيت من جملة ماعليها العقد الذي وجدته بمكة ، فعجبت من ذلك ، واستغرقني الفكر فيه ، فلما خرجت من البناء استدعاني وسألني عن حالي وقال : « جدع الحلال انف الغيرة » فشكرته على ما فعله معي ، ثم استولى علي الفكر في العقد ووصله اليه ، فقال لي : « فيم تفكر ؟ » فقلت : « في العقد الفلاني ، فاني حججت في السنة الفلانية فوجدته في الحرم أو عقدا يشبهه ، فصاح وقــــال : « أنت الذي رددت علي العقــــد ؟ » قلت : « أنا ذاك » فقال : « أبشر ، فإن الله قد غفر لي ولك ، فاني دعوت الله سبحانه في تلك الساعة أن يغفر لي ولك وأن يرزقني مكافأتك ، وقد سلمت اليك مالي وولدي وما أظن أجلي الا وقد قرب » ثم أوصى الي ومات بعد مديدة قريبة رحمه الله .

## الشفاء بطرق غريبة

وحدثني الأمير سيف الدولة زنكي بن قراجا ، رحمه الله ، قال : « دعانا شاهنشاه بحلب - وهو زوج أخته - فلما اجتمعنا عنده نفقنا الى صاحب لنا كنا نعاشره وننادمه خفيف الروح طيب العشرة فاستدعينا ، فحضر ، فعرضنا عليه الشرب فقال : « أنا محتم أمرني الطبيب بالحمية أياما حتى تشق هذه السلعة ، وكان في مؤخر رقبتة سلعة كبيرة ، فقلنا : « وافقنا اليوم وتكون الحمية من غد » ففعل وشرب معنا الى آخر النهار ، فطلبنا من شاهنشاه شيئا نأكله ، فقال : « ما عندي شيء فلاججناه حتى أجابنا الى أن يحضر لنا بيضا نأكله على المذقل ، فأحضر البيض ، وأحضرنا صحننا وكسرنا البيض وأفرغنا ما فيه في الصحن ، ووضعنا المذقل على المذقل ليحمى ، فأشرت الى ذلك الرجل الذي في رقبتة السلعة أن يشرب البيض ، فرفع الصحن على فمه ليشر ببعضه فانساب جميع ما في الصحن في حلقه فشربه ، وقلنا لصاحب الدار : عوضنا عن البيض ، فقال : والله ما أفعل ، فشربنا ، ثم افترقنا .

فانا في السحر في فراشي والباب يقرع ، فخرجت جارية تنظر من الباب ، فاذا هو صديقنا ذلك ، فقلت أحضره فجاءني وأنا في الفراش وقال : « يا مولاي ، تلك السلعة التي كانت في رقبتني ذهبت ، وما بقي لها أثر ، فنظرت موضعها فاذا هو كغيره من جوانب رقبتة ، فقلت : « أي شيء أذهبها ؟ » قال : « الله سبحانه ، وما عرفت أنني استعملت شيئا ما كنت استعمله غير شربي لذلك البيض النقي » فسبحان القادر المبلي المعافي .

وكان عندنا في شيزر اخوان اسم الأكبر مظفر والآخر مالك بن عياض من أهل كفر طاب ، وهما تاجران يسافران الى بغداد وغيرها من البلاد ، ومظفر أدركه قيلة عظيمة فهو منها في



تعب ، فسار في قافلة على السماوة الى بغداد ، فنزلت القافلة بحي من احياء العرب ، فضيفوهم بطيور طبخوها لهم ، فتعشوا وناموا ، فانتبه انبه رفيقه الذي في جانبه وقال له : « أنا نائم أو مستيقظ ؟ » قال : « مستيقظ لو كنت نائما ما تحدثت » قال : « ذلك القيلة قد نهدت وما بقي لها أثر » فنظر فانا هو قد عاد كغيره الى الصحة .

فلما اصبحوا سألوا العرب الذين أضافوهم أي شيء أطعموهم ، قالوا : « نزلتم بنا ودوابنا عازبة ، فخرجنا أخذنا فراخ غربان طبخناها لكم » فلما وصلوا بغداد دخلوا المارستان وحكوا للمتولي المارستان حكايته ، فنفذ حصل فراخ غربان وأطعمها لمن به هذا المرض ، فلم تدفعه ولا أثرت فيه ، فقال : « ذلك الفراخ التي أكلها كان زقها أبوها أفاعي فلذلك كان دفعها » .

ومما يشاكل ذلك ان رجلا أتى المختار بن بطلان ( ١٣٢ ) الطبيب المشهور بالمعرفة والعلم والتقدم في صغنة الطب ، وهو في دكانه بحلب ، فشكا اليه مرضه فراه قد استحکم به الاستسقاء وكبر بطنه ، ودقت رقبته ، وتغيرت سحنته ، فقال له : « يا ولدي ، مالي والله فيك حيلة ، ولا بقي الطب ينجع فيك » فانصرف .

ثم بعد مدة اجتاز به وهو في دكانه وقد زال عنه ما كان به من المرض ، وضمير جوفه وحسنت حاله ، فدعاه ابن بطلان فقال : « ما أنت الذي حَصَرْت عني من مدة وبك الاستسقاء وقد كبر بطنك ودقت رقبته » ، وقلت لك : « مالي فيك حيلة ؟ » قال : « بلى » قال : « فبماذا تداويت حتى زال ما كان بك ؟ » قال : « والله ما تداويت بشيء ، أنا رجل صعلوك مالي شيء ولا لي من يدور بي سوى والدتي عجوز ضعيفة كان لها في نين خل ، فكانت كل يوم تطعمني منه بخبز » ، فقال له ابن بطلان : « بقي من الخل شيء ؟ » قال : « نعم » قال : « امش معي ارني »



البن الذي فيه الخل « فمشى بين يديه الى بيته أوقفه على بن الخل ، فافرج ابن بطلان ماكان فيه من الخل فوجد في اسفله افعيين قد تهراتا فقال له : « يا بني ماكان يقدر يدا ويك بخل فيه افعيان حتى تبرأ الا الله عز وجل »

وكان لهذا ابن بطلان اصابات عجيبة في الطب فمن ذلك أن رجلا أتاه ، وهو في دكانه بحلب ، والرجل قد انقطع كلامه فلا يكاد يفهم منه اذا تكلم ، فقال له : « ماصنعتك ؟ » قال : « أنا مغربل » فقال : « احضر لي نصفا رطل خل حادق » فأحضره ، فقال : « اشربه » ، فشربه وجلس لحظة فذره القى ، فتقيأ طينا كثيرا في ذلك الخل ، فاندفع حلقه واستوى كلامه ، فقال ابن بطلان لابنه وتلاميذه : « لاتداوا بهذا الدواء أحدا فتقتلوه ، هذا كان قد علق بالمريء من غبار الغريلة تراب ماكان يخرج الا الخل » .

وكان ابن بطلان ملازما لخدمة جدي الأكبر ابي المتوج مقلد بن نصر بن منذر فظهر في جدي ابي الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منذر ، رحمه الله ، وضع وهو صبي صغير ، فأقلق ذلك أباه وأشفق عليه من البرص ، فأحضر ابن بطلان وقال له : « ابصر ماقد ظهر في جسم علي » ، فنظره وقال : « اريد خمس مائة دينار حتى اداويه وأذهب هذا عنه » ، فقال له جدي : « لو كنت داويت عليا ماكنت رضيت لك بخمسة مائة دينار » فلما رأى الغضب من جدي ، قال : « يامولاي ، أنا خادمك وعبدك وفي فضلك ، ماقلت ماقلت الا على سبيل المزح ، وهذا الذي بعلي بهق الشباب ، واذا أدرك زال عنه ، فلا تحمل منه هما ، ولا يقول لك سواي : « أنا اداويه ويتسوق عليك ، فهذا يزول عند بلوغه » فكان كما قال .

وكان في حلب امرأة من وجوه نساء حلب ، يقال لها برة لحقها برد في رأسها ، فكانت تعمل عليه القطن العتيق والقلنوسة والمخملة والمنابيل حتى تصير كأن على رأسها عمامة كبيرة وهي تستغيث من

البرد ، فأحضرت ابن بطلان وشكت اليه مرضها فقال : « حصلي في غد خمسين مثقالا من كافور رياحي عارية أو مكري من بعض الطيبين ، فهو يعود اليه بأسره » ، فحصلت له الكافور ، ثم أصبحلقى كل ما على رأسها وحشا شعرها بذلك الكافور ، ورد على رأسها ما كان عليه من الدثار وهي تستغيث من البرد ، فنامت لحظة وانتبهت تشكو الحر والكرب في رأسها ، فألقى عنها شيئا شيئا مما كان على رأسها حتى بقي على رأسها قناع واحد ، ثم نفّض شعرها من ذلك الكافور ، ونهب عنها البرد وصارت تتقنع بقناع واحد .

وقد جرى لي بشيزر ما يقارب ذلك ، لحقني برد عظيم وقشعريرة من غير حمى وعلي الثياب الكثيرة والفرو ، ومتى تحركت في جلوسي ارتعلت وقام شعر بدني وتجمعت ، فأحضرت الشيخ أبا الوفاء تميما الطبيب فشكوت اليه ما أجد ، فقال : « احضروا لي بطيخة هندي » فـأحضرت فـكسرها وقال لي : « كل منها ما استطعت » قلت : « يا حكيم أنا في الموت من البرد ، والزمان بارد ، كيف أكل هذه مع بردها ؟ » قال : « كل كما أقول لك » فأكلت : فما انتهى أكلها منها حتى عرقت وزال ما كنت أجده من البرد ، فقال لي : « الذي كان بك من غلبة الصفراء ما كان من برد حقيقي » .

وقد تقدم ذكر شيء من غريب الأحلام ، وقد أوردت في كتابي المترجم ب « كتاب النوم والأحلام » من ذكر النوم والأحلام ، وما قيل فيه وفي أوقات الرؤيا وفي أقوال العلماء فيها ، واستشهدت على أقوالهم بما ورد فيها من أشعار العرب ، ووسعت الشرح ، وأشبعته في المعنى ، فما حاجة الى ذكر شيء منه ها هنا ، لكنني ذكرت هذا الخبر واستظرفته .

كان لجدي سيد الملك أبي الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ، رحمه الله ، جارية يقال لها لؤلؤة ربت والذي مجد الدين أبا

- ٥٧٢٩ -

سلامة مرشد بن علي ، رحمه الله ، فلما كبر وانتقل عن دار والده انتقلت معه . فرزقني ، فربتني تلك العجوز الى ان كبرت وتزوجت وانتقلت من دار والدي ، رحمه الله ، فانتقلت معي ، ورزقت الاولاد فربتهم ، وكانت ، رحمها الله ، من النساء الصالحات صوامه قوامه . وكان يلحقها القولنج وقتا بعد وقت ، فلحقها يوما من الايام واشتد بها حتى غاب ذهنها ، وآيسوها ، فبقيت كذلك يومين وليلتين ، ثم افاقت فقالت : « لا اله الا الله ، ما أعجب ماكنت فيه ، لقيت أمواتنا جميعهم وحدثوني بالعجائب وقالوا لي في جملة ما قالوا : « إن هذا القولنج ما يعود يلحقك » ، فعاشت بعد ذلك المدة الطويلة لم يلحقها قولنج .

وعاشت حتى قاربت المائة سنة ، وكانت محافظة لصلواتها ، رحمها الله . فدخلت اليها في بيت أفردته لها من داري وبين يديها طست وهي تغسل منيلا للصلوات ، فقلت : « ما هذا يا أمي؟ » قالت : « يا بني ، قد مسكو هذا المنديل وايديهم ذفرة من الجبن ، وكلما غسلته قد فاحت منه رائحة الجبن » ، قلت « اريني الصابونة التي تغسلين بها » . فأخرجتها من المنديل فاذا هي قطعة جبن ، وهي تظن أنها صابون ، وكلما عركت ذلك المنديل بالجبن قد فاحت روائحه ، قلت : « يا أمي ، هذه جبنه ! ما هي صابونة » ، فنظرتها وقالت : « صدقت ، يا بني ، ما ظننتها الا صابونا » . فتبارك الله اصدق القائلين : « ومن نعمه نذكسه في الخلق » (١٣٣)

الاطالة تجلب الملالة ، والحوادث والطوارئ اكثر من ان تحصر ، والرغبة الى الله ، عز وجل في الاستر فيما بقي من الحياة ، والرحمة والرضوان عند موافاة الوفاة ، فانه سبحانه اكرم مسؤول ، وأقرب مأمول .

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وعلى آله وسلامه .

## الباب الثالث

### أخبار الصيد





## الباب الثالث

### أخبار الصيد

توكلت على الله تعالى

والله مني جانب لا اضيعه

واللهو مني والبطالة جانب

قد ذكرت من أحوال الحرب ، وما شاهدته من الوقعات والمصافات  
والأخطار ما حضرني ذكره ولم يذسنه الزمان ومره ، فان العمر  
طال ولزمت الانفراد والاعتزال ، والذسيان من ارث متقادم من أبينا  
آدم ، عليه السلام .

وأنا ذاكر فصلا فيما حضرته وشاهدته من الصيد والقنص  
والجوارح فمن ذلك ما حضرته بشيزر في صدر العمر ، ومن ذلك ما  
حضرته مع ملك الأمراء أتاك زنكي بن أوق سذقر ، رحمه الله  
تعالى ، ومن ذلك ما حضرته بدمشق مع شهاب الدين محمود بن تاج  
الماوك ، رحمه الله ، ومن ذلك ما حضرته بمصر ، ومن ذلك ما  
حضرته مع الملك العادل نور الدين أبي المظفر محمود بن أتاك  
زنكي ، رحمه الله ، ومن ذلك ما حضرته ببنار بكر مع الأمير فخر  
الدين قرا أرسلان بن داود بن أرتق ، رحمه الله .

فأما ما كان بشيزر فكان مع الوالد ، رحمه الله ، وكان مشغوفاً  
بالصيد لهجا به وبجميع الجوارح ، وما يستكثر ما يغرمه عليه  
لفرجته ، فإنه كان نزهته ، فليس له شغل سوى الحرب وجهاد

الأفرنج ونسخ كتاب الله ، عز وجل عند فراغه من أشغال أصحابه ، وهو رحمه الله ، صائم الدهر مواظب على تلاوة القرآن ، فكان الصيد كما جاء في الخبر «روحوا القلوب تعسي الذكر» ، فما رأيت قط مثل صيده وترتيبه .

وقد شاهدت صيد ملك الأمراء أتابك زنكي ، رحمه الله ، وكان له الجوارح الكثيرة ، فرأيته ونحن نسير على الأنهار فيتقدم البازدارية بالبزاة ترميها على طيور الماء وتدق الطبول كجاري العادة فتتصيد منها ما تصيد وتخطيء ما تخطيء ، ووراءهم الشواهين الكوهية (١٢٤) على أيدي البازدارية ، فإذا اصطادت البزاة وأخطأت أرسلوا الشواهين الكوهية على الطيور وقد ابعدت دشت خيز (١٢٥) ، فتلحق وتصيد ، وترسل على الحجل فتلحق الحجل في طلوعها في سفح الجبل فتصيد ، فأنها من سرعة الطيران على صفة عجيبة .

وشاهدته يوما ونحن في المغرقة بظاهر الموصل نسير في باننجان وبين يدي أتابك بازيار على يده باشق ، فطار ذكر دراج فأرسله عليه فأخذه ونزل ، فلما صار في الأرض فرط الدراج من كفه وطار ، فلما إرتفع انتقل الباز من الأرض أخذه ونزل وقد ثبته .

ورأيته وهو في صيد الوحش دفعات ، إذا اجتمعت الحلاقة واجتمع فيه الوحش لا يقدر أحد يخل الحلاقة ، وإذا خرج من الوحش شيء رموه ، وكان من أرمى الناس ، فكان إذا دنا منه الغزال رماه ، فنراه كأنه قد عثر فيقع ويذبح ، وكان أول غزال يضربه في كل صيد أحضره ، ينفذه لي مع غلام من غلمانه وأنا معه .

وشاهدته وقد اجتمعت الحلاقة ونحن في أرض نصيبين على الهرماس (١٣٦) ، وقد ضربوا الخيام ، فوصل الوحش إلى الخيام ، فخرج الغلمان بالعصي والعمد ف ضربوا منها شيئا

- ٥٧٣٤ -

كثيرا ، واجتمع في الحلقة نيب فوثب في وسطها على غزال أخذه  
وبرك عليه ، فقتل وهو عليه .

وشاهدته يوما ونحن بسنجار وقد جاءه فارس من أصحابه فقال:  
«هاهنا ضيعة نائمة!» فسار ونحن معه الى واد هناك ، والضيعة  
نائمة على صخرة في سفح الوادي ، فترجل أتابك ومشى حتى وقف  
مقابلها وضربها بذشابة رماها إلى أسفل الوادي ، ونزلوا جاؤوا  
بها إلى بين يديه وهي ميتة .

ورأيته أيضا بظاهر سنجار وقد جلوا أرنب ، فأمر فاستدارت  
الخيول حولها ، وأمر غلاما خلفه يحمل الوشق كما يحمل  
الفهد ، فتقدم أرسله على الأرنب ، فدخلت بين قوائم الخيل ، وما  
تمكن منها ، وما كنت رأيت الوشق قبل ذلك يصيد .

ورأيت الصيد بدمشق أيام شهاب الدين محمود بن تاج الملوک  
للطير والغزلان وحمير الوحش واليحامير ، فرأيته يوما وقد خرجنا  
الى شعراء بانياس وفي الأرض عشب عظيم ، فتصيدنا كثيرا من  
اليحامير ، وضربت الخيام حلقة ونزلنا ، فقام من وسط الحلقة  
يحمور كان نائما في العشب فأخذ في وسط الخيام .

ورأيت ونحن عائدون رجلا قد رأى سنجابا في شجرة ، فأعلم به  
شهاب الدين ، فجاء وقف تحته ورماه مرتين أو ثلاثا فما  
أصابه . فتركه وسار شبه المغتاط الذي لم يصبه ، فرأيت رجلا من  
الأتراك جاء رماه فوسط الذشابة فيه ، فاسترخت يداه وبقي متعلقا  
برجليه والذشابة فيه حتى هزوا الشجرة فوقه ، ولو كانت تلك  
الذشابة في ابن آدم كان مات لوقته ، فسبحان خالق الخلق .

ورأيت الصيد بمصر كان الحافظ لدين الله عبد المجيد أبي  
الميمون ، رحمه الله ، جوارح كثيرة من البزاة والصقور  
والشواهين البحرية ، فكان لهم زمام يخرج بهم في الجمعة

- ٥٧٣٥ -

يومين ، وأكثرهم رجالة على ايديهم الجوارح ، فكنت اركب يوم  
خروجهم الى الصيد لا تفرج بنظر صيدهم ، فمضى الزمام الى  
الحافظ وقال له: «إن الضيف فلانا يخرج معنا»؟ كأنه يستطلع  
أمره في ذلك ، فقال :«اخرج معه يتفرج على الجوارح ».

فخرجنا يوما ومع بعض البازيارية باز مقرنص بيت أحمر(١٣٧)  
العينين ، فرأينا كراكي ، فقال له الزمام: «تقدم ارم عليها الباز  
الأحمر العينين» ، فتقدم رماه ، وطارت الكراكي فلحق منها واحدا  
على بعد منا فحطه ، فقلت للغلام لي على حصان جيد : « ادفع  
الحصان اليه وانزل اغرز منقار الكركي في الارض واكتفه واترك  
رجليه تحت رجلك الى أن نصلك » فمضى وعمل ما قلت له ، ووصل  
البازيار ذبح الكركي واشبع الباز .

فلما دخل الزمام حدث الحافظ بما جرى ، وما قتلته  
لغلام ، وقال : «يا مولانا ، حديثه حديث صياد» ، قال :« وأي  
شيء شغل هذا إلا القتال والصيد؟»

وكان معهم صدقور يرسلونها على البلاشيب وهي طائفة ، فاذا  
رأى البلاشوب الصدقر دار وارتفع ، والصدقور يدور في جانب آخر حتى  
يرتفع على البلاشوب ، ثم ينقلب عليه يأخذه .

وفي تلك البلاد طيور يسمونها البج مثل النحام يصيدونها  
أيضا ، وطيور الماء في مقطعات النيل سهلة الصيد ، والغزال عندهم  
قليل ، بل في تلك البلاد بقر بني اسرائيل وهي بقر صدفر قرونها مثل  
قرون البقر وهي اصغر من البقر تعدو عدوا عظيما ، وتخرج لهم من  
النيل دابة يسمونها فرس البحر مثل البقرة الصغيرة وعيناها  
صغيرتان وهي جرداء مثل الجاموس . لها أنياب طوال في فكها  
الاسفل ، وفي فكها الأعلى خرووق لأنيابها تخرج رؤوسها من تحت  
عينها . وصياحها مثل صياح الخنزير . ولا تبرح في بركة فيها ماء  
وتأكل الخبز والحشيش والشعير(١٣٨) .



وكننت قد مضيت مع الأمير معين الدين ، رحمه الله ، الى عكا الى عند ملك الافرنج فلك بن فلك ، فرأينا رجلا من الجذوية قد وصل من بلاد الافرنج ومعه باز كبير مقرنص يصيد الكركي ، ومعه كلبه صغيرة إذا أرسل الباز على الكراكي عدت تحته ، فإذا أخذ الكركي وحطه عضته فلا يقدر على الخلاص منها ، وقال لنا ذلك الجذوي : « ان الباز عندنا اذا كان نذيه ثلاث عشرة ريشة اصطاد الكركي » . فعدنا نذب ذلك الباز فكان كذلك .

فطلبه الأمير معين الدين ، رحمه الله ، من الملك فأخذه من ذلك الجذوي هو والكلبة وأعطاه للأمير معين الدين ، فجاء معنا ، فرأيت في الطريق يثب الى الغزلان كما يثب الى اللحم ، ووصلنا به إلى دمشق ، فما طال عمره بها ولا صاد شيئا ومات .

وشاهدت الصيد في حصن كيفا مع الأمير فخر الدين قرا أرسلان ابن داود ، رحمه الله ، وهناك الحجل والزرخ (١٣٩) كثير والدراج ، فأما طير الماء فهو في الشط وهو واسع ما يتمكن الباز منها ، وأكثر صيدهم الأراوي ومعزي الجبل يعملون لها شبكا ويمدونها في الأودية ويطردون الأراوي فتقع في تلك الشباك وهي كثيرة عندهم وقريبة المتصيد ، وكذلك الأرانب .

وشهدت الصيد مع الملك العادل نور الدين رحمه الله ، فحضرته ونحن بأرض حماة ، وقد جاؤا له أربابا ف ضربها بدشابة كسما وقامت وسبقت الى محجر بخلته ، فركضنا خلفها ، ووقف عليها نور الدين . وناولني الشريف السيد بهاء الدين رحمه الله ، رجلها قد قطعها الدشابة من فوق العرقوب وشقت جوفها قرنة النصلة فوق منها بيت الولد ، وسبقت بعد هذا وانحجرت ، فأمر نور الدين بعض الوشاقية نزل وقلع خفافه وبخل خلفها ، فما وصل اليها ، وقلت للذي معه بيت الاولاد وفيه خردقات « شقة واطمروهم بالتراب » ، ففعل ، فتحركوا وعاشوا



- ٥٧٣٧ -

وحضرته يوما وقد أرسل كلبة على ثعلب ونحن على قرا حصار  
بأرض حلب ، فركض خلفه وأنا معه ، فلحقت الكلبة أخذت ذنب  
الثعلب فرجع إليها برأسه فعض خيشومها ، فصارت الكلبة  
تعوي ، ونور الدين رحمه الله يضدك ، ثم خلاها وانجحر. فما  
قدرنا عليه .

وجاءه يوما ونحن ركاب تحت قلعة حلب من شمالي البلد  
باز ، فقال لنجم الدين أبي طالب علي كرد (١٤٠) رحمه الله «قل  
لفلان - يعنيني - يأخذ هذا الباز يلعب به» ، فقال لي ، فقلت  
«ما أحسن له» فقال نور الدين: «أنتم في الصيد ما كنتم تزالون ، ما  
تحسن تصلح الباز؟» قلت: «يا مولاي ، ما كنا نصلحها نحن ، كان  
لنا بازيارية وغلمان يصلحونه ويتصيدون بها قدامنا» ، وما أخذت  
الباز.

شاهدت من الصيد مع هؤلاء الأكابر شيئا ما اتسع لي الوقت  
لذكره مفصلا ، وكانوا قادرين على ما يحاولونه من صيد وألته  
وغيره . وما رأيت مثل صيد والدي ، رحمه الله ، فما أدري كنت  
أراه بعين المحبة كما قال القائل: «وكل ما يفعل المحبوب  
محبوب» ، ما أدري أكان نظري فيه على التحقيق ، وأنا أذكر شيئا  
من ذلك ليحكم فيه من يقف عليه

وذلك أن والدي ، رحمه الله ، كان قد فزغ زمانه لتلاوة القرآن  
والصيام والصيد في نهاره ، وفي الليل يذسخ كتاب الله تعالى ، فكان  
قد ذسخ ستا وأربعين ختمة بخطه ، رحمه الله ، منها ختمتان  
بالذهب جميع القرآن ، ويركب إلى الصيد يوما ويسـتريح  
يوما ، وهو صائم الدهر .

ولنا بشيزر متصيدات : متصيد الحجل والأرانب في الجبل قبلي  
البلد ، ومتصيد لطير الماء والدراج والأرانب والغزلان على النهر في  
الازوار من غربي البلد .

وكان يتكلف في تسيير قوم من أصحابه الى البلاد لشري  
البزاة ، حتى أنه انفذ الى القسطنطينية أحضر له منها  
بزاة ، وحملوا الغلمان معهم من الحمام ما ظنوا أنه يكفي البزاة  
التي معهم ، فتغير عليهم البحر ، وتعوقوا حتى فرغ ما معهم من  
طعم البزاة ، فاضطروا الى ان صاروا يطعمون البزاة لحم  
السمك ، فأثر ذلك في اجنحتها صار ريشها ينكسر وينقصف ، فلما  
وصلوا بها الى شيزر كان فيها بزاة نادرة ، وفي خدمة الوالد بازيار  
طويل اليد في اصلاح البزاة وعلاجها يقال له غنائم ، فواصل  
اجنحتها واصطاد بها ، وقرنص بعضها عنده .

وكان اكثر ما يستدعي البزاة ويشاريها من وادي ابن الأحمر  
بالعلا (١٤١) ، فأحضر قوما من أهل الجبل القريب من شيزر من  
أهل بشيلي وبسمالخ وحلة عارا (١٤٢) ، وتحدث معهم في ان يعملوا  
في مواضعهم مصايد للبزاة ، ووهبهم وكساهم ، فمضوا وعملوا  
بيوت الصيد ، فاصطادوا بزاة كثيرة فراخا ومقرنصة  
وزرارق ، فحملوها الى الوالد وقالوا : « يا مولانا ، نحن قد بطلنا  
معايشنا وزراعتنا في خدمتك ، ونشتهي أن تأخذ منا كل ما نصيده  
وتقرر لنا ثمننا نعرفه لا تجاذب فيه » فقرر ثمن الباز الفرخ خمسة  
عشرة ديناراً ، وثمان الزرق المقرنص نصفها ، وثمان الباز المقرنص  
عشرة بنانير ، وثمان الزرق المقرنص نصفها ، وانفتح للجبلين أخذ  
بنانير بغير كلفة ولا تعب ، انما يعمل به بيتا بحجارة ، وعلى قدر  
خلاقته ، ويغطيه بعيدان ويسترها بقش وحشيش ، ويجعل  
نافذة ، ويأخذ طير حمام يجمع رجله على قضيب ويشدها  
اليه ، ويخرجه من تلك النافذة ، يحرك العود فيتحرك الطير ويفتح  
اجنحته ، فيراه الباز ينقلب عليه يأخذه ، فإذا أحس به الصياد  
جذب القضيب الى النافذة ومد يده قبض رجلي الباز ، وهو قابض  
للطير الحمام ، وأنزله اليه وخيط عينيه ويصبح من الغد يصلنا  
به ، ويأخذ ثمنه ويعود الى بيته بعد يومين .

فكثرت الصيادون وكثرت البزاة حتى صارت عندنا مثل الدجاج :  
فيها ما يتصيد به وفيها ما يموت على الكنادر (١٤٣) من كثرتها .

وكان في خدمة الوالد بازيار وصقارون وكلابزية ، وعلم قوما من  
مماليكه اصلاح البزاة فمهرروا فيها ، وكان يخرج الى الصيد ونحن  
أولاد معه في اربعة رجال ، ومعنا غلماننا وجنائبنا وسلاحنا ، فإذا  
ما كنا نأمن من الفرنج لقربهم منا . ويخرج معنا بزاة كثيرة من  
العشرة وما حولها ، ومعهم صقاران وفهادان وكلابزيان ، مع  
أحدهما كلاب سلوقية ومع الآخر كلاب زغارية ، فيوم خرجوا الى  
الجبل لصيد الحجل وهو بعيد من الجبل يقول لنا اذا خرج الى طريق  
الجبل : « تفرقوا ، كل من عليه قراءة يقرأها » ، ونحن أولاد  
حفاظ القرآن ، فذفترقوا نقرأ حتى يصير الى مكان الصيد يأمر من  
يستدعيننا فيسألنا كم قرأ كل واحد منا ، فإذا أخبرناه يقول : انا  
قرأت مائة آية ، أو نحوها ، وكان رحمه الله ، يقرأ القرآن كما  
أنزل .

فإذا صرنا في المتصيد أمر الغلمان فتفرق بعضهم مع  
البازيارية ، فكيف طارت الحجل كان في ذلك الجانب بازيارسل  
عليه ، ومعهم من مماليكه وأصحابه أربعون فارسا أخبر الناس  
بالصيد ، فلا يكاد يطير طير ولا يثور أرنب ولا غزال الا  
اصطلناه ، وننتهي في الجبل نصيد الى العصر ، ثم نعود وقد  
اشبعنا البزاة وطرحناها على القلوت (١٤٤) في الجبل شربت  
واستحمت ، ونعود الى البلد بعد عتمة .

فإذا ركبنا الى طير الماء والدراج كان ذلك يوم فرجتنا ، نقع في  
الصيد من باب المدينة ثم نصل الى الازوار فيقف الفهود والصقور  
برا من الزور وندخل اليه بالبزاة ، فان طارت دراجة أخذها الباز ،  
وإن قفزت أرنب أرسلنا عليها بعض البزاة ، فان أخذها والا خرجت  
الى الفهود أرسلوا عليها ، وان قفز غزال خرج الى الفهود أرسلوا

- ٥٧٤٠ -

عليه . فان اخذ والا ارسلوا عليه الصدقور ، فما يكاد يفلت منا صيد  
الا بفسحة الاجل .

وفي الازوار خنازير كثيرة تخرج ، فتركض عليها ونقتلها فيكون  
فرحنا بقتلها اكثر من فرحة الصيد .

وكان له ترتيب في الصيد كأنه ترتيب الحرب والامر المهم ، لا  
يشغل أحد . بحيث مع صاحبه ولا لهم هم الا التبحر في الارض لنظر  
الارانب او الطير في اوكارها .

وكان قد صار بينه وبين بني روبال - تروس ولاون الارمن ممن  
الصحاب المصيصة وطرسوس واننة والدروب - مصادقة ومكاتبة  
اكبر سببها رغبته في البزاة ، فكان ينفذون له كل سنة عدة من عشرة  
بزاة او ماحولها على ايدي رجاله ارمن بازيارية وينفذون الكلاب  
الزغارية ، وينفذ لهم هو الحصن والطيب ، ومن كسوة مصر ،  
فكان يجيئنا من عندهم بزاة . ملاح نادرة فاجتمع عندنا في بعض  
السنين بزاة قد جاءت من الدروب فيها باز فرخ مثل العقاب وبزاة

دونه وجاءنا من الجبل عدة فيها باز كأنه صقر عريض فرخ ما  
يلحق بتلك البزاة ، والبازيار غنائم يقول: « ما في هذه البزاة كلها  
مثل هذا الباز اليدشور ( ١٤٥ ) ما يترك شيئا الا يصيده » ، ونحن  
لا نصدق ، ثم اصلح ذلك الباز ، فكان كما ظن فيه من افره البزاة  
وأطيرها وأشطرها ، وقرنص عندنا وخرج من القرناص أجود مما  
كان ، وعمر ذلك الباز وقرنص عندنا ثلاث عشرة سنة ، فكان قد  
صار كأنه من أهل البيت يصطاد للخدمة ، لا لما جرت به عادة  
الجوارح أن يصيدوا لذفسهم .

وكان مقامه عند الوالد ، رحمه الله ، لا يتركه عند البازيار ، لان  
البازيار إنما يحمل الباز في الليل ويجوعه حتى يصطاد به وذلك  
الباز كان يكفي من نفسه ويعمل ما يراده منه ، فكنا نخرج الى



صيد الحجل ومعنا عنة بزاة فيدفعه الوالد إلى بعض البازيارية ويقول: «اعتزل به ولا ترسله بالحملة وتستقر في الجبل». فكلما خلوا أبصروا حجلة لا بدة من شجرة قد أعلاموه بها يقول: «هاتوا اليدشور» ساعة يقيم يده له قد طار من على يد البازيار ، وقع على يده بغير دعو ، ثم يستشرف برأسه ورقبته فيقف على الحجلة النائمة ويرميها بقضيب في يده فتطير ، ويرسل عليها اليدشور فيأخذها في عشرة أذرع ، وينزل اليه البازيار يذبحــــــــــــــــح في رجله ويرفعه ، فيقول: «اعتزل به» فاذا راوا حجلة أخرى لا بدة عمل بها ذلك ، حتى يصيد خمس ست حجلات ، كذا يأخذها في عشرة أذرع ، ثم يقول البازيار «اشبعه» فيقول له: «يامولاي ، ما تدعه نتصيد به؟» يقول: «يا بني ، معنا عشرة بزاة نتصيد بها وهذا قد صاد ، هذه الاطلاق تقطع عمره» ، فيشبعه ويعتزل به البازيار .

فاذا انهينا في الصيد واشبعنا البزاة وحططناها على الماء شربت واستحمت واليدشور على يد البازيار ، فاذا استقبلنا البلد راجعين ونحن في الجبل قال: «هات اليدشور» حملة على يده وسار ، إن طارت حجلة من بين يديه ارسل عليها صاها حتى يصيد عشرة اطلاق أو أكثر على قدر ما يطير له من الحجل ، وهو شبعان لا يحط منسره في مذبح حجلة ولا يذوق دمها ، فاذا دخلنا الى الدار قال: «هاتوا طاسة ماء» فجاءوا بطاسة فيها ماء قدمها اليه وهو على يده ، رحمه الله ، فيشرب منها ، وإن كان يريد يستحم خضخض منسره في الماء ، فيدري انه يريد يستحم فيأمر باحضار جفنة كبيرة فيها ماء ويقدمه اليها ، فيطير ينزل في وسطها ويدف في الماء حتى يكتفي من السباحة ثم يطلع ، فيحطه على قفاز خشب ، قد عمل له ، كبير ، ويقرب منه مذقل نار ، فيتمشوق ويتدهن حتى يذشف من الماء ، ثم يضع له فروا مطويا ، فينزل إليه ينام عليه ، فلا يزال بيننا على ذلك الفرو نائمًا حتي يتهـور الليل ، ويريد الوالد يدخل الى دار الحرم فيقول لأحدنا : «احمله» فيحمل كما هو نائم على الفرو حتى يحط الى جانب فراش الوالد رحمه الله .



وكان من عجائب هذا الباز ، وعجائبه كثيرة وأنا أذكر منها ما يحضرني ذكره ، فان الأمد قد طال وانستني السنون كثيرا من أحواله ، أن كان في دار الوالد حمام وطيور ماء خضر واناؤها وبيضانيات (١٤٦) من التي تكون بين البقر لتلتقط الذبان من الدار ، وكان يدخل الوالد وهذا الباز على يده يجلس على دكة في الدار والباز على قفاز الى جانبه فلا يطلب شيئا من تلك الطيور ولا يثب اليها ، ولا كأنها مما جرت عادته بصيدها .

وكانت المياه تكثر في ظاهر شيزر في الشتاء فيصير برا من سورها ذقاع كبئار ماء وفيه الطيور ، فيأمر الوالد البازيار وغلاما معه يخرج الى قريب من تلك الطيور ، يأخذ اليحشور على يده ويقف به على الحصن يريه الطيور وهو شرقي البلد والطيور غربيها ، فاذا أبصرها أرسله فينزل يشف على البلد حتى يخرج منه وينتهي الى الطيور ، فيدق له البازيار الطبل فتطير الطيور فيصيد منها وبينها وبين موضع ارسل منه مسافة بعيدة .

وكنا نخرج الى صيد طير الماء والدراج ، ونرجع بعد عتمة نسمع صوت طيور في خلجان كبار بالقرب من البلد ، فيقول الوالد: «هات اليحشور» ، فيأخذه وهو شبعان ويتقدم الى الطيور يدق الطبل حتى تطير الطيور ثم يرميه عليها ، فان اصاد وقع بيننا نزل اليه البازيار ذبح في رجله ورفع ، وان لم يصد وقع على بعض أكتاف النهر فما نراه ولا ندري أين وقع ، فنخليه وندخل الى البلد ، ويصبح البازيار من سحر يخرج اليه يأخذه ويطلع به الى الحصن الى عند الوالد ، رحمه الله ، ويقول له: «يامولاي» قد صدق هذا الصقيع قفاه طول الليل ، وقد أصبح يقط البولاد (١٤٧) فاركب ابصر ايش يعمل اليوم!»

وما كان يفوت هذا الباز شيء من الصيد من السمانة الى الوز السمند والأرنب ، وكان البازيار يشتهي ان يصيد به الكراكي والحرجل ما يتركه الوالد ويقول: «الحرجل والكراكي نصيدها

- ٥٧٤٣ -

بالصدقور ، ، وكان هذا الباز قد قصر عما نعهده من صيده سنة من السنين ، حتى أنه كان اذا ارسل واخطأ لا يجيء الى الدعو وهو عاجز ولا يستحم ولا ندري ما به ، ثم صلح عما كان من تقصيره وصاد .

واستحم يوما ، فرفعه البازيار من الماء وقد تفرق ريشه بالبلل عن جانبه ، واذا في جانبه سلعة في قد اللوزة ، فأحضره البازيار بين يدي الوالد وقال : «يا مولاي ، هذه التي قصرت بالباز وكانت تهاكه» ثم مسك الباز وعصرها خرجت مثل اللوزة ، وختسم موضعها ، وعاد اليدشور الى الطيور بالسيف والنطع .

وكان شهاب الدين محمود بن قراجا صاحب حماة في ذلك الوقت ينفذ كل سنة يطلب الباز اليدشور يمضي إليه مع البازيار يقيم عنده عشرين يوما يتصيد به ويأخذه البازيار ويعود ، فمات الباز بشيزر.

واتفق انني كنت قد زرت شهاب الدين الى حماة ، وأصبحت يوما وأنا بحماة وقد حضر القراء والمكبرون وخلق عظيم من أهل البلد ، فسألت «من قد مات؟» قالوا: «بنت لشهاب الدين ، فأردت الخروج خلف الجنازة ، فمادكني شهاب الدين ومنعني ، وخرجوا قبروا الميت في تل صفرون ، فلما عادوا قال لي شهاب الدين : «تدري من هو الميت؟» قلت: «قالوا : ولد لك» ، قال: «لا ، والله ، بل هو الباز اليدشور ، سمعت أنه مات أنفنت أخذته وعملت له تابوتا وجنازة وقبرته ، فانه كان يستحق ذلك »

وكان للوالد ، رحمه الله ، فهدة في الفهود مثل اليدشور في البزاة ، اصطادوها وهي وحشية ، من أكبر ما يكون من الفهود ، فأخذها الفهاد وقرمها واستجابها (١٤٨) وكانت تركب ولا تريد الصيد ، وكانت تصرع كما يصرع المصاب بعقله وتزبد ، ويقدم اليها الخشف فلا تطلبه ولا تريده حتى إذا شمته عضته ، وبقيت كذلك مدة طويلة ندوا من سنة ، فخرجنا يوما إلى الأزوار ، فدخلت

الخيـل الى الزور وأنا واقف في فـم الزور ، والفهاد بهذه الفهدة قريب مني . فقام من الزور غزال وخرج إلي ، فدفعت حصانا كان تحتي من أجود الخيل أريد أريده إلى الفهدة ، وعاجله الحصان ندسه بصدـره ، رماه ، فوثبت الفهدة صادته . فكأنها كانت نائمة انتبهت وقالت: «خذوا من الصيد ما أردتم» فكانت مهما قام لها من الغزلان أخذته ، ولا يستطيع الفهاد ضبطها فتجذبه ترميه ، ولا تقف كما تقف الفهود في طردها بل وقت ان يقول «قد وقفت» تجدد عدوا او تأخذ الغزال .

وصيدنا بشيزر الغزال الادمي ، وهو غزال كبير ، فكنا اذا خرجنا بها الى العلاة والارض الشرقية ، وفيها الغزال الابيض ، لا تترك الفهاد يركض بها حتى يمكنها الا تجذبه ترميه ، وتغير على الغزلان كأنها كانت ترى انهم خشوف لصغر الغزال الابيض .

وكانت هذه الفهدة دون باقي الفهود في دار الوالد ، رحمه الله ، وله جارية تخدمها ، ولها في جانب الدار قطيفة مطوية تحتها حشيش يابس ، وفي الحائط سكة مضروبة يجيء الفهاد بها من الصيد الى باب الدار يحطها وفيها المرفقة ، وتدخل الى الدار الى ذلك المكان المفروش لها فتنام فيه ، وتجيء الجارية تربطها الى السكة المضروبة في الحائط ، وفي الدار والله ، نحو من عشرين غزال ادمي وابيض وفحول ومعزى وخشوف قد توالدت في الدار ، فلا تطلبهم ولا تروعهم ، ولا تزول عن موضعها ، وتدخل الى الدار وهي مسيبة فلا تلتفت الى الغزلان .

وشاهدت الجارية التي كانت تدور بها وهي تسرح جسمها بالمشط فلا تمتنع ولا تذفر ، ورأيتها يوما ، وقد بـالت على تلك القطيفة المفروشة لها ، وهي تتألفها وتضربها حيث بـالت على القطيفة ، ولا تهر عليها ولا تضر بها .

ورأيتها يوما وقد أثارت من بين يدي الفهاد أرنبين ، وقد لحقت

الواحدة وأخذتها وعضتها بفمها وتبعته الأخرى فلحقتها وجعلت تضربها بيدها وفمها مشغول بالأرنب الاولى ، فوقفت عنها بعد أن ضربتها بيديها عدة ضربات ومضت الأرنب .

وحضر معنا في الصيد الشيخ العالم أبو عبد الله الطليطلي النحوي ، رحمه الله ، وكان في النحو سيبويه زمانه ، قرأت عليه النحو نحو من عشر سنين ، وكان متولياً دار العلم بطرابلس ، فلما أخذ الأقرنح طرابلس نفذ الوالد والعم ، رحمهما الله ، استخلصا الشيخ أبا عبد الله هذا ويأخذ الناس النسخ ، وكان قريب الطبقة في الخط من طريقه ابن البواب ، أقام عندنا بشيزر مدة ونسخ للوالد ، رحمه الله ، ختمتين ثم انتقل الى مصر ومات بها .

وشاهدت من الشيخ أبي عبد الله عجباً ، دخلت عليه يوماً لأقرأ عليه فوجدت بين يديه كتب النحو: «كتاب سيبويه» ، و«كتاب الخصائص» لابن جني «وكتاب الإيضاح» لأبي علي الفارسي «وكتاب اللمع» ، و«كتاب الجمل» . فقلت: «يا شيخ أبا عبد الله» ، قرأت هذه الكتب كلها؟ قال: «قرأتها؟ لا والله إلا كتبتها في اللوح وحفظتها ، تريد تدري: خذ جزءاً واقتحه واقرأ من أول الصفحة سطراً واحداً» ، فاخذت جزءاً وفتحتته وقرأت منه سطراً ، فقرأ الصفحة بأكملها حفظاً حتى أتى على تلك الأجزاء جميعها ، فرأيت منه أمراً عظيماً ما هو في طاقة البشر .

هذه جملة اعتراضية لا موضع لها من سياقة الحديث .

وقد حضر معنا صيد هذه القهدة ، وهو راكب في رجليه أفدام (١٤٩) وفي الأرض شوك كثير وقد ضرب رجليه ادماهما . وهو مشغول ينظر صيد القهدة ولا يحس بتألم رجليه - مشغول بما يراه من تسللها الي الغزلان وعدوها وحسن صيدها .

وكان الوالد ، رحمه الله ، محظوظاً من الجوارح النادرة الفارحة ، وذلك أنها كانت عنده كثيرة فيندر منها الجارح



الفاره ، وكان عنده في بعض السنين باز مقرنص بيت احمر العينين ، فكان من أفره البزاة ، فوصل كتاب عمي تاج الأمراء أبي المتوج مقلد ، رحمه الله ، من مصر - و كان مقامه بها في خدمة الأمر بأحكام الله - يقول: «سمعت في مجلس الأفضل ذكر الباز الأحمر العينين ، والأفضل يستخبر المحادث عنه وعن صيده» ، فذفنه الوالد ، رحمه الله ، مع بازياره الى الأفضل ، فلما حضر بين يديه قال له: «هذا هو الباز الأحمر العينين؟» قال: «نعم يا مولاي» ، فقال: «أي شيء يصيد؟» قال: «يصيد السمانة والحرجلة وما بينهما من الصيد» ، فبقي هذا الباز بمصر مدة ثم أفلت وراح وبقي سنة في البرية في شجر الجميز وقرنص في البرية ، ثم عادوا اصطادوه ، فجاءنا كتاب عمي ، رحمه الله ، يقول: «الباز الأحمر العينين ضاع وقرنص في الجميز ، وعادوا اصطادوه وتصيدوا به ، وقد أرسل على الطير منه مصيبة عظيمة».

وكنا يوما عند الوالد ، رحمه الله ، وقد جاء انسان من فلاحى معرة النعمان معه باز مقرنص مكسر ريش الأجنحة والذنب في قدر العقاب الكبير ، ما رأيت قط بازاً مثله وقال: «يا مولاي ، كنت اصلي للدلم (١٥٠) بالنادوف ، ف ضرب هذا الباز على يله في النادوف ، فأخذته وحملته إليك» ، فأخذه وأحسن إلى الذي أهده ، ووصل البازيار ريشه وحمله واستجابه ، وإذا الباز صائد مطابق مقرنص بيت قد أفلت من الأفرنج ، وقرنص في جبل المعرة ، فكان من أفره الجوارح وأشطرها .

وشاهدت يوما وقد خرجنا معه ، رحمه الله ، الى الصيد وقد استقبلنا على بعد رجل معه شيء ما نتحققه ، فلما بنا منا وإذا معه شاهين فرخ من أكبر الشواهين وأحسنها وقد خمش يديه وهو حامله ، فدلاه ومسك سبأقيه (١٥١) ورجليه - والشاهين مدلى مذشور الأجنحة ، فلما وصلنا قال: «يا مولاي ، اصطدمت هذا الطير ، وقد جئت به إليك» ، فسلمه الوالد الى البازيار فأصلحه ، ووصل ما انكسر من ريشه ، ولم يخرج مخبره مثل



- ٥٧٤٧ -

منظره ، كان قد أتلفه الصياد بما عمل به ، والشاهين هو الميزان أدنى شيء يعيبه ويفسده ، وكان هذا البازيار صانعا مجودا في اصلاح الشواهين .

وكنا نخرج من باب المدينة الى الصيد ومعنا جميع آلة الصيد ، حتى الشباك والفؤوس ، والمجارف والكلايب لما ينجحر من الصيد ، ومعنا الجوارح والبزاة والصقور والشواهين والفهود والكلاب ، فاذا خرجنا من المدينة أدار شاهينين فلا يزالان يدوران على الموكب ، فاذا خرج أحدهما عن القصد تتحنح البازيار وأشار بيده الى النحو الذي يريده فيرجع والله الشاهين من وقته الى ذلك النحو ، ورأيته وقد أدار شاهينا على قطعة من الصلاصل نازلة في مرج ، فلما أخذ الشاهين طيبته دق لها الطبل فطارت وانقلب عليها الشاهين ضرب رأس صلصة قطعة ، وأخذها ونزل ، فدرنا والله على ذلك الرأس ما وجدناه ، واثره قد وقع على بعد في الماء لاننا كنا بالقرب من النهر .

وقال له يوما غلام يقال له أحمد بن مجير لم يكن ممكن يركب معه : « يامولاي ، اشتهيت ابصر الصيد » قال : « قدموا لأحمد فرسا يركبه ويخرج معنا » فخرجنا الى صيد الدراج ، فطار ذكر وتنزى ( ١٥٢ ) كما جرت العادة وعلى يد الوالد ، رحمه الله ، اليدشور ، فأرسله عليه فطار مع الأرض الأرض والحدشيش يضرب صدره والدراج قد ارتفع ارتفاعا كبيرا ، فقال له أحمد : « يامولاي ، وحياتك كان يتلاهى به حتى أخذه »

وكان يجيئه من بلاد الروم الزغارية : كلاب جياذ ذكور وأناث ، فكانت تتوالد عندها ، وصيدها الطير طبع فيها .

شاهدت منها جروة صغيرة قد خرجت خلف الكلاب التي مع الكلابزي ، فأرسل بازا على دراجة فبنجت ( ١٥٣ ) في حلفاء في جرف النهر ، فأرسلوا الكلاب على الحلفاء لتطير الدراجة ، وذلك

- ٥٧٤٨ -

الجرورة واقفة على الجرف ، فلما طارت الدراجة وثبتت الجرورة خلفها من على ذلك الجرف ف وقعت في وسط النهر ، وماتعرف الصيد ولا صادت قط ،

ورأيت كلبا من هذه الزغارية وقد بنجت حجلة في الجبل في بنج صعب وقد دخل اليها الكلب وأبطأ ، ثم سمعنا حشكة في داخل البنج فقال الوالد ، رحمه الله : « في البنج وحش وقد قتل الكلب » ثم بعد ساعة خرج الكلب يجرجر رجل ابن أوى ، وكان في البنج قد قتله وجره أخرجه الينا .

وكان الوالد ، رحمه الله ، سار الى اصبهان الى دركاه السلطان ملك شاه ، رحمه الله ، فحكى لي قال : « لما قضيت اشغالي من عند السلطان وأريت السفر ، أريت استصحب معي جارحا ، اتفرج به في طريقي ، فجأؤوني ببزاة ومعها ابن عرس معلم يخرج الطيور من البنج فأخذت صدقورا تصيد الأرناب والحبارى ، واستصعبت مداراة البزاة في تلك الطريق البعيدة الشاقة ».

وكان عنده ، رحمه الله ، من الكلاب السـاوية كلاب جياذ ، أرسل يوما الصدقور على الغزلان والأرض مـطر ثقيلة بالوحل ، وأنا معه صغير على برذون لي ، وخيلهم قد وقفت من الركض في الطين ، وبرذوني لخفتي عليه مستظهر ، وقد صرعت الصدقور والكلاب الغزال ، فقال لي : « يا أسامة الحق الغزال وانزل امسك رجله الى أن نجى » ففعلت ، ووصل هو رحمه الله ، فذبح الغزال ومعه كلبة صفراء جواد ، يسمونها الحموية صرعت الغزال ، وهي واقفة ، واذا قطعة الغزلان التي اصطلنا منها قد عادت عابرة علينا ، فأخذ ، رحمه الله ، قلابة الحموية و خرج يهرول بها حتى رأت الغزلان ، وأرسلها عليها اصطالت غزالا آخر .

وكان ، رحمه الله ، مع ثقل جسمه وكبر سنة وأنه لا يزال صائما

يركض نهاره كله ، وكان لايتصيد الا على حصان او اكديش  
جواد ، ونحن معه أربعة أولاده نتعب ونكل وهو لايضعف  
ولا يكل ولا يتعب ، ولا يقدر وشاقي ولا صاحب جنيب ولا حامل  
سلاح يقصر في الركض على الصيد .

وكان لي غلام اسمه يوسف معه رمحي ودرقتي ويجنب  
حصاني ، فلا يركض على الصيد ولا يتبعه ، فيحرد الوالد  
عليه ، فعل ذلك مرة بعد مرة ، فسال له  
الغلام : « يامولاي ، ما يذفك أحد من الحاضرين ، والعياذ بالله ،  
مثل ابذك هذا ، فدعني أكون خلفه بحصانه وسلاحه ، إن  
احتجته وجدته ، وأحسب أنني ما أنا معكم » فما عاد يلومه ولا يذكر  
عليه كونه ما يركض على الصيد .

ونزل علينا صاحب أنطاكية وقاتلنا ورحل عن غير صلح ، فركب  
الوالد ، رحمه الله ، الى الصيد وأخبرهم ما أبعد عن البلد ، فتبعتهم  
خيلنا ، فعادوا عليهم والوالد قد أبعد عن البلد ، ووصل الا فرنج الى  
البلد والوالد قد طلع على تل سكين ( ١٥٤ ) يراهم وهم بينه وبين  
البلد ، وما زال واقفا على التل الى أن انصرفوا عن البلد وعاد الى  
الصيد .

وكان رحمه الله يطرد اليحامير في أرض حصن الجسر فصرع  
منها يوما خمسة أو ستة على فرس له بهما تسمى فرس خرجي  
باسم صاحبها الذي باعها ، كان اشتراها الوالد منه بثلاثمائة  
وعشرين ديناراً ، فطرد آخر اليحامير ، فوقع يدها في حفرة مما  
يحفر الخنازير فانقلبت عليه كسرت ترقوته ثم قامت ركضت قدر  
عشرين ذراعاً وهو مطروح ، ثم عادت وقفت عند رأسه تنحب  
وتسهل حتى قام وجاءه الغلمان أركبوه ، فهذا فعل الخيل  
العربية .

وخرجت معه ، رحمه الله ، الى نحو الجبل لصيد الحجل ، فنزل

غلام له اسمه لؤلؤ ، رحمه الله ، لبعض شغله ، ونحن قريب من البلد من بكرة وتحت برزون ، قرأى ظل تركشه ( ١٥٥ ) اجفل منه فرماه وانقلت ، فركضت والله عليه وأنا وبعض الغلمان من بكرة الى بعد العصر الى أن ألجأناه الى جشار في بعض الأزوار ، وقام الجشارية مدوا له الحبل وقبضوه كما يقبض الوحش ، وأخذته وعدت والوالد ، رحمه الله ، واقف في ظاهر البلد ينتظرني ما يصيد ولا ينزل في داره ، فالبرانيين بالوحش اشبه مما هي بالخيل .

حكى لي ، رحمه الله قال : « كنت أخرج الى الصيد ويخرج معي الرئيس أبو تراب حيدرة بن قطرميز رحمه الله - وكان شيخه الذي حفظ عليه القرآن وقرأ عليه العربية - فكنا اذا وصلنا موضع الصيد ينزل عن الفرس ويجلس على صخرة يقرأ القرآن ، ونحن نتصيد حوله ، فاذا فرغنا من الصيد ركب وسار معنا ، فقال يوما : « ياسيدنا أنا جالس على صخرة واذا حجلة قد جاءت وهي تتهدكف وهي معيبة الى تلك الصخرة التي أنا عليها ، دخلت واذا الباز قد أتى خلفها وهـو بعيد منها ، فنزل مقابلي ولؤلؤ يصيح : عيذك عيذك ياسيدنا ، وجاء وهو يركض وأنا أقول : اللهم استر عليها ، فقال : ياسيدنا اين الحجلة ؟ قلت : مارأيت شيئاً ، ماجأت الى هاهنا ، وترجل عن فرسه ودار حول الصخرة وطلع تحتها فرأها ، فقال : أقول الحجلة هاهنا تقول لا ، وأخذها ياسيدنا كسر رجلها ورماها الى الباز ، وقلبي يتقطع عليها . »

وكان هذا لؤلؤ رحمه الله ، اخبر الناس بالصيد ، شاهدته يوما وكانت جاءتنا من البرية أرانب جالية ، فكنا نخرج نصطاد منها شيئاً كثيراً ، وكانت أرانب صغاراً حمر فشاهدته يوماً وقد جلى عشرة أرانب طعن التسعة بالبالة ( ١٥٦ ) أخذها ، ثم جلى أرنباً عاشرة ، فقال له الوالد ، رحمه الله ، : « دعها تقيموها للكلاب نتفرج عليها » فأقاموها وأرسلوا عليها الكلاب ، فسبقت الأرنب وسلمت ، فقال لؤلؤ : « يامولاي ، لو كنت تركتني طعنيتها وأخذتها »



وشاهدت يوما أرنبًا قد ثـورناها وأرسلنا عليها  
الكلاب ، فانجحرت في ارض الخبيبة ( ١٥٧ ) فدخلت كلبة سوداء  
خلفها في المجحر ، ثم خرجت في الحال وهي تتعوص ( ١٥٨ ) ثم  
وقعت فماتت ، فما انصرفنا عنها حتى تفسخت وماتت وتهرأت  
وذاك أنها لسعتها حية في المجحر .

ومن عجيب ما رأيت من صيد البـزاة أنني خرجت مع  
الوالد ، رحمه الله ، عقيب مطر قد تتابع ومنعنا من الركوب  
أياماً ، فأمسك المطر فخرجنا بالبزاة نريد طير الماء ، فرأينا طيوراً  
ممرجة في مرج تحت شرف ، فتقدم الوالد أرسل عليها بازا مقرنض  
بيت ، فطلع مع الطيور اصاد منها ونزل فما رأينا معه شيئاً من  
الصيد ، فنزلنا عنده وإذا هو قد اصاد زرزور وطبق كفه عليه ، فما  
جرحة ولا آذاه ، فنزل البازيار خلصه وهو سالم .

ورأيت من الوز السـمند حمية وشجاعة كحمية الرجال  
وشجاعته ، وذلك اننا أرسلنا الصقور على رفا وز سمند ودققنا  
الطبول فطار ، ولحقت الصقور تعلقت بوزة حطتها من بين  
الوز ، ونحن بعيد منها ، فصاحت ، فترحل من الوز اليها خمسة  
سنة طيور يضربون الصقور بأجنحتها ، فلولا نبادرهم كانوا  
خلصوا الوز وقصوا اجنحة الصقور بمناقيرهم .

وهذا ضد حمية الحباري ، فانها إذا قرب منها الصقر نزلت الى  
الأرض وكيف دارا استقبلته بذنبها ، فإذا بنا منها سلحت عليه بـلت  
ريشه وملأت عينيه وطارت ، وان أخطأته بما تفعله به أخذها .

ومن أغرب ما صاده الباز مع الوالد ، رحمه الله ، أنه كان على  
يده باز غطراف فرخ وعلى خليج ماء عيمة وهي طير كبير مثل لون  
الباشون ( ١٥٩ ) الا أنها أكبر من الكركي ، من طرف جناحها  
الى طرف جناحها الآخر أربعة عشر شبراً ، فجعل الباز  
يطلبه ، فأرسله عليه ودق له الطبل ، فطار وبخل فيه الباز أخذه



ووقعا في الماء ، فكان ذلك سبب سلامة الباز ، والا كان قتله بمنقاره ، فرمى غلام من الغلمان نفسه في الماء بثيابه وعدته مسك العيمة واطلعها ، فلما صارت على الأرض صار الباز يبصرها ويصيح ويطير عنها ، وما عاد يعرض لها ، ولا رأيت بازا سوى ذلك اصطادها ، فانها كما قال أبو العلاء بن سليمان في العنقاء : « ارى العنقاء تكبر أن تصادا » .

وكان الوالد رحمه الله ، يمضي الى حصن الجسر ، وهو كثير الصيد فيقيم فيه أياما ، ونحن معه نصيد الحجل والدراج ويطير الماء واليحامير والغزلان والأرانب ، فمضى يوما إليه وركبنا الى صيد الدراج ، فأرسل بازا يحمله ويصلحه مملوك اسمه نقولا على دراجة ومضى نقولا يركض وراءه ، وقد بنج الدراج في حلفاء ، وإذا صياح نقولا قد ملأ الأسماع وعاد يركض ، قلنا : « مالك ؟ » قال : « السبع خرج من الحلفاء التي وقع فيها الدراج فخلت الباز وانهزمت » وإذا السبع ايضا ذليل مثل نقولا لما سمع أجراس الباز خرج من الحلفاء منهزما الى الغاب.

وكنا نتصيد ونعود ننزل على بوشمير نهر صغير بالقرب من الحصن ، ونفذ نحضر صيادي السمك فنرى منهم العجب ، فيهم من معه قسبة في رأسها حربة لها جبة مثل الخشوت ، ولها في الجبة ثلاث شعب حديد طول كل شعبة ذراع ، وفي رأس القسبة خيط طويل مشدود الى يده يقف على جرف النهر وهو ضيق المدى ويبصر السمكة فيزرقها بتلك القسبة التي فيها الحديد فما يخطئها ثم يجذبها بذلك الخيط فتطلع والسمكة فيها ، وآخر من الصيادين معه عود قدر قبضة فيه شوكة حديد ، وفي طرفه الآخر خيط مشدود الى يده ، ينزل يسبح في الماء ويبصر السمكة يخطفها بتلك الشوكة ويخليها فيها ويطلع ويجذبها بذلك الخيط يطلع الشوكة والسمكة ، وآخر ينزل يسبح ويمر يده تحت الشجر الذي في الشطوط من الصفصاف على السمكة حتى يدخل اصابعه في

خَواشيم السمكة ، وهي لا تتحرك ولا تنفر ، ويأخذها  
ويطلع ، فكانت تكون فرجتنا عليهم كفرجتنا على الصيد بالبزة

وتوالى المطر والهواء علينا أياما ونحن في حصن الجسر ، ثم  
أمسك المطر لحظة ، فجاءنا غنائم البازيار وقال للوالد : « البزة  
جياع جيدة للصيد ، وقد طابت وكف  
المطر ، ما تركب ؟ » قال : « بلى » فركبنا فما كان بأكثر من أن  
خرجنا الى الصحراء ، وتفتحت أبواب السماء بالمطر ، فقلنا  
لغنائم : « أنت زعمت أنها طابت وصحت حتى أخرجتنا في هذا  
المطر ! » قال : « ما كان لكم عيون تبصر الغيم ودلائل المطر ؟ كنت  
قلتم لي تكذب في لحيتك ما هي طيبة ولا صاحبة ! »

وكان هذا غنائم صانعا جيدا في اصلاح الشواهين و البزة  
خبيرا بالجوارح ، ظريف الحديث طيب العشرة ، قد رأى من  
الجوارح ما يعرف وما لا يعرف .

خرجنا يوما الى الصيد من حصن شيزر فرأينا عند الرحا  
الجلالي شيئا واذا كركي مطروح على الأرض ، فنزل غلام قلبه واذا  
هو ميت وهو حار ما برد بعد ، فرأه غنائم قال : « هذا قد اصطاده  
الزريق ( ١٦٠ ) » .

فتدش تحت جناحه واذا جانب الكركي مثقوب وقد أكل  
قلبه ، فقال غنائم « هذا جرح مثل العوسق يلحق الكركي يلصق  
تحت جناحه يثقب اضلاعه ويأكل قلبه »

وقضى الله سبحانه أنني صرت الى خدمة اتابك زكي رحمه  
الله ، فجاءه جرح مثل العوسق أحمر المنسر والرجلين جفون عينيه  
حمر ، وهو من أحسن الجوارح ، فقالوا : « هذا الزريق » ما بقي  
عنده الا أياما قلائل وقرض السيور بمنسره وطار .

وخرج الوالد ، رحمه الله ، يوما الى صيد الغزلان ، وأنا معه

صغير فوصل وادي القناطر واذا فيه عبيد حرامية يقطعون الطريق ، فأخذهم وكتفهم وسلمهم الى قوم من غلمانه يوصلونهم الى الحبس بشيزر ، فأخذت أنا خشتا من بعضهم ، وشرنا في الصيد ، واذا عانة حمير وحش ، فقلت للوالد : « يامولاي ما أبصرت حمير الوحش قبــــــــــــــــــــل اليوم ، عن أمــــــــــــــــــــرك أركض أبصرهم ، فقال : « افعل » وتحتي فرس شقراء من أجود الخيل ، فركضت وفي يدي ذلك الخشت الذي أخنته من الحرامية ، فصرت وسط العانة فأفردت منها حمارا وصرت أطعنه بذلك الخشت فلا يعمل فيه شيئا لضعف يدي وقلة مضاء الحربة ، فرددت الحمــــــــــــــــار حتــــــــــــــــى رددتـــــــــــــــــه الى اصحابي ، فأخذه ، وعجب الوالد ومن معه من عدو ذلك الفرس .

فقضى الله سبحانه انني خرجت يوما اتفرج على نهر شيزر وهي تحتني ، ومعني مكرىء يزشد مرة ويقرأ مرة ويغني مرة ، فنزلت تحت شجرة ودفعت الفرس الى الغلام فعمل فيها شكالا وكان الى جانب النهر ، فنفرت ووقعت في النهر على جنبها ، وكأما ارادت تقوم تعود تقع في الماء لأجل الشكال ، وكان الغلام صغيرا لا يقدر على تخليصها ، ونحن لانعلم ولاندرى ، فلما قاربت الموت صاح بنا فجئناها وهي في آخر رمق ، فقصطنا شــــــــــــــــكالها وأطلعناها ، فماتت ، وما كان الماء يصل الى عضدها الذي غرقت فيه ، وانما الشكال اهلكها .

وخرج يوما الوالد ، رحمه الله ، الى الصيد ، وخرج معه أمير يقال له الصمصام ، من أصحاب فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس على سبيل الخدمة ، وهو رجل قليل المخبرة بالصيد ، فأرسل الوالد بازا على طيور ماء فأخذ منها طيرا ووقع في وسط النهر ، فجعل الصمصام يدق يدا على يد ويقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله ، كيف كان خروجي في هذا اليوم ؟ » فقلت له : « يا صمصام ، تخاف على الباز أن يغرق ؟ » قال : « نعم قد غرق بطة هو حتى يقع في الماء ولا يغرق ؟ » فضحكت وقلت : « الساعة يطلع » فأخذ الباز رأس

- ٥٧٥٥ -

الطير وسبح وهو معه حتى طلع به ، فبقي الصمصام يتعجب

من ذلك ويسبح الله سبحانه ، ويحمده على سلامة الباز .

ومنايا الحيوان ، مختلفة الألوان ، قد كان الوالد ، رحمه الله ، أرسل زرقا ابيض على دراجة ، ف وقعت الدراجة في حلفاء وبخل معها الزرق .

وفي الحلفاء ابن أوى أخذ الزرق قطع رأسه ، وكان من خيار الجوارح وأفرها .

ورأيت من منايا الجوارح وقد ركبت يوما وبين يدي غلام لي معه باشق ، فرماه على عصافير ، فأخذ عصفورا ، وجاء الغلام ذبح العصفور في رجل الباشق ، فذفض الباشق رأسه وتقيأ دما ووقع ميتا ، والعصفور في تلافه مذبح ف سبحان مقدر الآجال .

واجتزت يوما من باب فتحناه في الحصن لعمارة كانت هناك ، ومعى زربطانة ، فرأيت عصفورا على حائط أنا واقف تحته ، فرميته ببندقية فأخطأته ، وطار العصفور وعيني الى البندقية ، فنزلت مع الحائط وقد أخرج عصفور رأسه من نقب في الحائط ف وقعت البندقية على رأسه ، فقتلته ، ووقع بين يدي فذبحته ، وما كان صيده عن قصد ولا اعتماد .

وأرسل رحمه الله ، يوما الباز على أرنب قامت لنا في زور كثير الشوك ، فأخذها وانفرطت منه ، فجلس على الأرض ، وراحت الأرنب ، فركضت أنا فرسا دهماء تحتي من جيار الخيل لأرد الأرنب ، ف وقعت يد الفرس في حفرة فانقلبت علي ، فملأت يدي ووجهي من ذلك الشوك وانفسخت رجل الفرس ، ثم انتقل الباز من الأرض بعدما ابعدت الأرنب لحقها اصاها فكأنه كان قصده اتلاف فرسي وأنيتي بالوقوع في الشوك .



فأصبحنا يوما في أول يوم من رجب صياما ، فقلت للوالد ، رحمه الله : « أشتهي أخـرج أـتـشـاغل بـالصيد عن الصيام » قال : « اخرج » فخرجت أنا وأخي بهاء الدولة أبو المغيث منقذ ، رحمه الله ، ومعنا البـزاة الى الأزوار فـدخلنا في سوس ، فقام لنا خنزير ذكر فـطعنه أخي جـرحه وبـخل ذلك السوس ، فقال أخي : « الساعة يكربه الجرح ويـخرج ، اسـتقبله اطعنه اـقتله » قلت : « لا تفعل يضرب فرسك يقتلها » نحن نتحدث والخنزير خرج يريد زورا آخر ، فالتقاه أخي طعنه في سنامة انكسرت فيه عالية القنطارية التي طعنه بها ، وبخل تحت فرس شـقراء تحته عـشراء محجلة شـعلاء ضربها رماها ورماه ، فأما الفرس فاندفسخت فخذها وتلفت ، وأما هو فاندفكت اصبعه الخنصر وانكسر خاتمه .

وركضت أنا خاف الخنزير ، فدخل في سوس مخصب وخنث فيه باقورة نائمة ماأراها من ذلك الغاب ، فقام منها ثور في صدر حصاني فندسة ، فوقعت ووقع الحصان وانكسر لجامه ، وقمت أخذت الرمح وركبت ولحقته وقد رمى نفسه في النهر ، فوقفت على جرف النهر وزرقته بالرمح فوقع فيه وانكسر منه قدر ذراعين وبقيت الحربة ، وكسر الرمح فيه ، وسبح إلى ناحية النهر ، فصحنا بقوم من ذلك الجانب يضربون لبنا لعمارة بيوت في قرية لعمي ، فجاءوا ووقفوا عليه وهو تحت جرف لايقدر يطلع منه ، فجعلوا يرمونه بالحجارة الكبار حتى قتلوه ، وقلت لركابي لي : « انزل اليه » فقلع عدته وتعري وأخذ سيفه وسبح اليه تمام قتله ، وسحب برجله وأتى به وهو يقول : « عرفكم الله ببركات صيام رجب ! استفتحناه بنجس الخنازير .

ولو كان للخنزير ظفر مثل الأسد كان اشد بأسا من الأسد ، فلقد رأيت منها خنزيرة قد أقمنها عن جريات لها ، واحد منها يضرب حافر فرس غلام معي بفمه وهو في قد جرو القط ، فأخذ الغلام من



تركشه نشابة ومال اليه طعنه بها ، ورفعته في الذشابة ، فعجبت من قتاله وضربه حافر الفرس وهو بحيث يحمل في سهم نشاب .

وكان من عجائب الصيد أننا كنا نخرج الى الجبل الى صيد الحجل ، ومعنا عشرة بزة نتصيد بها النهار كله ، والبازياريه مفترقة في الجبل ومع كل بازيار فارسان ثلاثة من المماليك ، ومعنا كلازيان اسم الواحد بطرس والآخر زرزور باديه وكلمنا أرسل البازياري على حجة وبنجت قد صاحوا : « يا بطرس ! » يعدو اليهم مثل الهجين ، كذلك النهار كله يعدو من جبل الى جبل هو ورفيقه ، فاذا اشبعنا البزة ورجعنا أخذ بطرس قلاعة وعدا خلاف واحد من المماليك ضربة بها ، أخذ الغلام قلاعه وضرب بطرس ، فلا يزال يطارد الغلمان ما كانه كان نهاره كله يعدو من جبل الى جبل .

ومن عجائب الكلاب الزغارية أنها ماتأكل الطيور ، ولاتأكل منها الا رؤوسها وأرجلها التي ماعليها لحم ، والعظام التي قد أكلت البزة لحمها .

وكان للوالد ، رحمه الله ، كلبة سوداء زغارية يضع الغلمان بالليل على رأسها السراج ويقعدون يلعبون بالشطرنج وهي لاتتحرك ولاتزول حتى عمشت عيناها ، وكان الوالد ، رحمه الله ، يحدد على الغلمان ويقول : « قد اعميتم هذه الكلبة ! » ولا ينتهون عنها .

وأهدى الأمير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك صاحب القلعة للوالد كلبة عروفا ترسل تحت الصدقور على الغزلان فكنا نرى منها العجب .

وصيد الصدقور بالترتيب ، يرسل في الأول المقدم فيعلق بانن غزال يضربه ، ويرسل العون بعده فيضرب غزالا آخر ، ويرسل العون الآخر فيفعل كذلك ، ويرسل الرابع كذلك ، فيضرب كل صدقور منها

على غزال ، فيأخذ المقدم انن غزال ويفرده من الغزلان ، فترجع الصقور جميعها اليه وتترك تلك الغزلان التي كانت تضربها ، وهذه الكلبة تحت الصقور لا تلتفت الى شيء من الغزلان الا ما عليه الصقور ، فيتفق ان يظهر العقاب فتحمل الصقور عن الغزال ، فيمضي الغزال ، وتدور الصقور ، فكنا نرى تلك الكلبة قد رجعت عن الغزلان وقت رجوع الصقور ، وهي تدور تحت الصقور في الأرض كما تدور الصقور في الهواء حلقة ، ولا تزال تدور تحتها حتى تنزل الصقور الى الدعو ، فحينئذ تقف وتمشي خلف الخيل .

وكان بين شهاب الدين مالك وبين الوالد ، رحمهما الله ، مودة ومواصلة بالمكاتبات والرسل ، فنفذ اليه يوما يقول له : « خرجت الى صيد الغزلان فاصطدنا منها ثلاثة آلاف خشف في يوم » وذلك ان الغزلان عندهم في ارض القلعة كثيرة ، وهم يخرجون وقت ولاد الغزلان خيالة ورجالة فيأخذون منها ما قد ولد تلك الليلة وقبلها بليلة وليلتين وثلاث ، يقشونها كما يقش الحطب والعشب .

والدراج عندهم كثير في الأزوار على الفرات ، واذا شق جوف الدراجة وأزيل ما فيه وحشي بالشعر لا تتغير رائحتها أياما كثيرة ، ورأيت يوما دراجة قد شق جوفها وأخرجت قانصتها ، وفيها حية قد أكلتها نحو من شبر .

وقتلنا مرة ونحن في الصيد حية خرج من جوفها حية قد بلعتها صحيحة دونها بيسير ، ففي طباع جميع الحيوان اعتداء القوي على الضعيف

والظلم من شيم النفوس  
فان تجد ذا عفة فلعله لا يظلم .

### الخاتمة

حضر ذكر الصيد وقد شهدته سبعين سنة من عمري غير ممكن  
ولامستطاع ، وتضييع الأوقات في الخرافات ، من أعظم عوارض  
الآفات ، وأنا استغفر الله تعالى من تضييع الصبابة الباقية من  
العمر ، في غير طاعة واكتساب ثواب وأجر ، وهو تبارك وتعالى  
يغفر الخطية ، ويجزل من رحمته العطية، فهو الكريم الذي لا يخيب  
أمله ، ولا يرد سائله .

آخر الكتاب والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد  
نبيه وعلى آله الطاهرين أجمعين ، وسلم تسليما ، وحسبنا الله  
ونعم الوكيل وكان في آخر الكتاب ماثله :

قرأت هذا الكتاب من أوله إلى آخره في عنة مجالس على مولاي جدي،  
الأمير الأجل العالم الفاضل الصدر الكامل،عضد الدين،جليس الملوك  
والسلطين،حجة العرب،خالصة أمير المؤمنين،أدام الله سعادته ،  
وسألته أن يجيزني روايته عنه فأجابني إلى ذلك وسطر خطة الكريم  
به،وذلك في يوم الخميس ثالث عشر صفر سنة عشر وستمائة،صحيح  
ذلك،وكتب جده مرهف بن اسامة بن منقذ ، حامدا ومصليا .

الملاحق





## أبو الحسن علي بن السلار المنعوت بالملك العادل سيف الدين

### (من وفيات الأعيان لأبن خلكان)

ورأيت في مكان آخر أنه أبو منصور علي بن اسحق ، عرف بابن السلار وزير الظافر العبيدي صاحب مصر ورأيت في بعض تواريخ المصريين أنه كان كرديا زرزاريا وكان تربية القصر بالقاهرة ، وتقلبت به الأحوال في الولايات بالصعيد وغيره الى أن تولى الوزارة للظافر المذكور في رجب سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ثم وجدت في مكان آخر أن الظافر المذكور استوز نجم الدين أبا الفتح سليم بن محمد بن مصال في أول ولايته وكان ابن مصال من أكابر أمراء الدولة ، ثم تغلب عليه العادل بن السلار وعدى ابن مصال الى الجيزة ليلة الثلاثاء رابع عشر شعبان سنة أربع وأربعين وخمسمائة عندما سمع بوصول ابن السلار من ولاية الاسكندرية ، طالبا للوزارة ، ودخل ابن السلار القاهرة في الخامس عشر من الشهر المذكور وتولى تدبير الأمور ، ونعت بالعادل أمير الجيوش ، وحشد ابن مصال جماعة من المغاربة وغيرهم ، وجرد العادل العساكر للاقائه فكسره بدلاص من الوجه القبلي وأخذ رأسه ودخل به القاهرة على رمح يوم الخميس الثالث والعشرين من ذي القعدة من السنة المذكورة ، واستمر العادل الى أن قتل ، وهذا القول أصح من الأول والله اعلم .

وكان ابن مصال من اهل لك ، بضم اللام وتشديد الكاف ، وهي بلدة عند برقة من أعمالها، وكان هو وأبوه يتعاطيان البيزرة والبيطرة وبذلك تقدما ، وكانت وزارة ابن مصال نحوا من خمسين يوما وكان ابن السلار شهما مقداما مائلا الى ارباب العقل

والصلاح ، عمر بالقاهرة مساجد ، ورأيت بظاهر مدينة بلبيس  
مسجدا منسوباً إليه ، وكان ظاهر التسنن شافعي المذهب ولما  
وصل الحافظ أبو طاهر أحمد السلفي رحمه الله تعالى إلى ثغر  
الاسكندرية المحروس ، وأقام به ، ثم صار العادل المذكور واليا  
احتفل به وزاد في إكرامه وعمر له هناك مدرسة فوض تدريسها  
إليه ، وهي معروفة إلى الآن ولم أر بالاسكندرية مدرسة للشافعيين  
سواها ، وكان مع هذه الأوصاف ذا سيرة جائرة ، وسطوة قاطعة  
يؤاخذ الناس بالصغائر والمحققات ، ومما يحكي عنه أنه قبل  
وزارته بزمان وهو يومئذ من أحاد الأجناد ، دخل يوما على الموفق  
أبي الكرم بن معصوم التنيسي وكان مستوفي الديوان ، فشكا إليه  
حاله من غرامة لزمته بسبب تفريطه في شيء من لوازم الولاية  
بالغربية ، فلما أطل عليه الكلام قال له أبو الكرم : والله إن كلامك  
ما يدخل في أذني فحقد عليه ذلك فلما ترقى إلى درجة الوزارة طلبه  
فخاف منه واستتر مدة ، فنادى عيه في البلد وهدر دم من يخفيه .  
فأخرجه الذي خبأه عنده ، فخرج في زي امرأة بازار وخف ، فعرف  
فأخذ وحمل إلى العادل فأمر بإحضار لوح من خشب ومسمار طويل  
فألقى على جذبه وطرح اللوح تحت أذنه ، ثم ضرب المسمار في الآن  
الأخرى ، فصار كلما صرخ يقول له دخل كلامي في أذنك بعد أم  
لا ؟ ولم يزل كذلك حتى نفذ المسمار من الآن التي على اللوح ، ثم  
عطف المسمار على اللوح ، ويقال أنه شنقه بعد ذلك .

وكان قد وصل من إفريقية إلى الديار المصرية أبو الفضل عباس  
ابن أبي الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي وهو  
صبي ومعه أمه واسمها بلارة ، فتزوجها العادل المذكور ، وأقامت  
عنده زمنا ، ورزق عباس ولدا سماه نصرا ، فكان عند جدته في دار  
العادل والعادل يحذو عليه ويعزه ، ثم إن العادل جهز عباسا إلى  
جهة الشام بسبب الجهاد وكان معه أسامة بن منقذ ، المذكور في  
حرف الهمزة فلما وصل إلى بلبيس ، وهو مقدم الجيش الذي سار  
في صحبته تذاكرا طيب الديار المصرية وحسنها وماهي عليه ، وكونه  
يفارقها ويتوجه للقاء العدو ، ويقاسي النكال فأشار عليه

اسامة ، على ما قيل ، بقتل العادل ويستقل هو بالوزارة ويستريح من الزكال وتقرر بينهما أن ولده نصرا يباشر ذلك اذا رقد العادل فإنه معه في الدار ، ولا يذكر عليه ذلك وحاصل الأمر أن نصرا قتله على فراشه يوم الخميس سادس المحرم سنة ثمان وأربعين وخمس مائة بدار الوزارة بالقاهرة المحروسة رحمه الله تعالى ، وتفصيل الواقعة يطول ، وقيل إنه قتل يوم السبت حادي عشر المحرم من السنة المذكورة، وكان والده في صحبة سقمان بن أرتق صاحب القس ، فلما أخذ الأفضل أمير الجيوش القدس من سقمان ، كما هو مذكور في ترجمة أبيه أرتق ، وجد فيه طائفة من عسكر سقمان ، فضمهم الأفضل إليه ، وكان في جملتهم السلار والد العادل المذكور ، فأخذه الأفضل إليه ، وتقدم عنده وسماه سيف الدولة ، وأكرم ولده هذا وجعل في صبيان الحجر ، ومعنى صبيان الحجر عندهم أن يكون لكل واحد منهم فرس وعدة ، فاذا قيل له عن شغل ما يحتاج أن يتوقف فيه ، وذلك على مثال الداوية والاسبتار ، فاذا تميز صبي من هؤلاء بعقل وشجاعة قدم للامارة فترجع العادل بهذه الصفات وزاد عليها بالجزم والهيبة وترك المخالطة فأمره الحافظ ، وولاه الاسكندرية وكان يعرف برأس البغل، ثم تقدم وهذا نصر بن عباس هو الذي قتل الظافر اسماعيل ابن الحافظ صاحب مصر، وقد ذكرته في ترجمته .

## عباس بن أبي الفتح الصنهاجي

(من كتاب المقفي للمقرزي)

عباس بن أبي الفتح يحيى بن أبي طاهر يحيى بن تميم بن المعز  
ابن بقليل بن عبد الحمير بن عبد مناف الصنهاجي .

قدم جدي علي بن أبي بلال بن أبي الفتح مع أبيه أبي الفتح  
إلى الإسكندرية لما أخرجه إخوانه أبو الحسن علي بن يحيى بن تميم  
من إفريقية فأمر الخليفة الأمر بأحكام الله بكرامته فلم تطل أيام  
حياته إلا إسكندرية ومات .

فتزوجت بلال بعد وفاته علي بن السلار الملقب بالعدل  
الوزير ، فسعد بها وعلا شأنه ، وشيخ عباس فقدمه الخليفة  
الحافظ لتبين الله وجعله صاحب الباب .

فلما مات الحافظ في جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين  
 وخمسمائة واستخلف من بعده ابنه أبو المنصور اسماعيل الظافر  
 بأمر الله ، خلع على نجم الدين سليمان بن محمد بن مصال وأقامه  
 في الوزارة ، فأسخط ذلك المظفر علي بن السلار ، وهو يومئذ والي  
 الغربية ، وسار فرافقه عباس وتوجه معه إلى القاهرة واستقر في  
 وزارة الظافر ، فخرج عباس بعسكر إلى محاربة الوزير نجم الدين  
 سليمان ابن مصال إلى دلاص ، وقاتل ابن مصال حتى هزم من معه  
 وحرق جامع دلاص ، وقد امتنع به قوم من لواته وكثير من السودان  
 حتى أتلّفهم ، وأسر ابن مصال وقتله وحمل رأسه ، ودخل إلى  
 القاهرة ، وولده نصر بن عباس يحمل الرأس على رمح .

وأقام بالقاهرة ونعت بـ « ركن الاسلام » إلى أن قوي الأفرنج



ونازلوا عسقلان في البر والبحر ، فجهز العادل ابن السلار  
العساكر ، وسيرها مع ركن الاسلام عباس ، فخرج ومعه من  
الأمراء ملهم والضرغام واسامة بن منقذ في عدة .

وكان اسامة خصيصا بعباس ، فحسن له ، وقد نزلوا على  
بليس ، ان يعمل في أخذ الوزارة من العادل ، بأن يبعث ابنه ناصر  
الدين نصر بن عباس الى القاهرة ليتحدث مع الظافر في ذلك ، فوافق  
لهذا غرض عباس ، وبعث ابنه ، فكان من قتله العادل ما قد ذكر في  
ترجمته .

فكتب الظافر الى عباس فحضر من بليس وتقلد وزارة مصر بعد  
زوج أمه والأتراك قد استودشوا من قتل ابن السلار ، فلم يجد  
سبيلا الى تلافي أمرهم ، وخرجوا يدا واحدة الى دمشق ، وبطل  
مسير العساكر الى عسقلان ، فسر الفرنج ما وقع بالقاهرة وقالوا  
لأهل عسقلان ، وهم على حصارهم ، ان سلطانكم قد قتل  
ابنه ، فأنتم لمن تقاتلون ؟ ففترت عزائمهم عن القتال الى أن أخذ  
الفرنج عسقلان .

واستبد عباس بأمر الدولة وضبط الأمور وأكرم  
الأجناد ، وأحسن إلى الأمراء الى أن قتل ابنه نصر بن عباس  
الظافر ، فصعد العباس الى القصر يوم الخميس على العادة وجلس  
في مقطع الوزارة ينتظر الخليفة الظافر حتى طال جلوسه فاستدعى  
بمفلح زمام القصر وقال له : ان كان لولانا شغل عدنا اليه في  
الغد .

فمضى الزمام وهو حائر ، وأعلم أخوي الظافر يوسف وجبريل  
بالقصة ، فما شكا في قتل الظافر ، فعاد اليه ، وكان من اقامته  
عيسى بن الظافر ونعته بالفائز ، ما ذكر في خبره ، فظن أن الأمر قد  
استقام له ، فأتاه مالم يحدث به ، وأخذ أهل القصر في أعمال الجيلة  
عليه ، فاختلف عليه الأمراء والسودان ونافروه لما اشتهر من قتل



- ٥٧٦٧ -

ابنه نصر بن عباس للخليفة الظافر ، وهاجت الفتنة وصارت  
العساكر أحزابا ، ولبسوا سلاحهم ، فخرج عباس لقتالهم في يوم  
الاثنين عاشر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائة وكسرهم  
وقتل منهم جماعة .

فبعثت عمه الفائز إلى طلائع بن رزيك والي الأشمونيين والبهذي  
تستدعيه لأخذ ثأر أخيها الظافر ، فدشد وسار من منية بني  
خصيب ، فبعث إليه عباس عسكريا في عاشر ربيع الآخر نزل على  
أطفيح فخالف عرب أطفيح على عباس ولحقوا بطلائع وهو على  
أبويط ، فسار بهم إلى دهشور ( ١٦١ ) فاضطرب عباس وانحل  
عنه الناس يريدون لقاء طلائع ، وناكده أهل القاهرة بحيث أنه مر  
في يوم فألقي عليه من طاق في الشارع هاوون ، ورمي مرة بقدر قد  
ملئت بطعام حار ، فقال : « ما بقي بعد هذا من شيء » وهم بالفرار  
فوجد أبواب القاهرة مغلقة .

ثم دبر أمره وخرج ومعه ابنه نصر ، وأسامة بن منقذ ، ومعهم  
جميع أموالهم ، فأخذ طلائع القاهرة ، ونهبت دور عباس وولده  
وأتباعه .

وسار عباس على طريق أيلة ، فبعثت عمه الفائز إلى الفرنج  
بعسقلان تعلمهم الحال وتبذل لهم المال ، فخرجوا إلى عباس  
وقاتلوه ، ففر عنه أسامة بن منقذ ومعه أصحابه ، وبقي يقاتل حتى  
قتل يوم الثلاثاء سادس عشر ربيع الآخر سنة تسع وأربعين  
 وخمسمائة ، واسر ابنه نصر وحمل إلى القاهرة .

وحكي أن عباسا جلس للمنادمة ، فلما أخذت الكأس منه  
قال : تبأ لمن يعتقد إمامة هؤلاء ، ويقول أنه لا يكون إمام إلا  
بوصية ، والله لقد قتلت الظافر ولا علم له بذلك حتى يوصي ، وقد  
استعرضت أقاربه كالغنم اهانة وذبحا ، وقدمت هذا الملقب

- ٥٧٦٨ -

بالفائز ، وعمره خمس سنين ، وعلى يميننا ذهبـت دولتهمـم  
بالمغرب ، وكذلك تذهب بالشرق ، فقتله الله وقتل ولده الظافر .



## الحواشي والهوامش

### حواشي المخطئ إلى كتاب الاعتبار

- ١ - لعله أراد صريح القواني مسلم بن الوليد .
- ٢ - ليسا في ديوانه المطبوع
- ٣ - ليست في ديوانه .
- ٤ - ديوان أسامة بن مقلد - ط . القاهرة من ١٥٠ .
- ٥ - ديوانه من ٩٤
- ٦ - ديوانه من ٣٠٢
- ٧ - ليست في ديوانه .
- ٨ - ليست في ديوانه .
- ٩ - ديوانه من ١٥٣
- ١٠ - ديوانه من ١٥٣
- ١١ - ليس في ديوانه .
- ١٢ - ديوانه من ٢٥٦ .
- ١٣ - ديوانه من ٢٥٣ .
- ١٤ - ديوانه من ٢٥٧ .
- ١٥ - ديوانه من ٢٥٥ .
- ١٦ - ديوانه من ٢٢٨ .
- ١٧ - ديوانه من ١٥٣ مع فوارق .
- ١٨ - ليست في ديوانه .
- ١٩ - ديوانه من ٢٤٧ .
- ٢٠ - ديوان أبي فراس - ط . دمشق ١٩٨٧ من ٣٢٥ .
- ٢١ - ديوانه من ١١٠ .
- ٢٢ - ديوانه من ١٠٩ - ١١٠ .
- ٢٣ - ليسا في ديوانه
- ٢٤ - ديوانه من ٥٥ .
- ٢٥ - ديوانه من ٢٦٥ .
- ٢٦ - ديوانه من ٢٥٥ .
- ٢٧ - ديوانه من ٢٤١ .
- ٢٨ - ديوانه من ٣١
- ٢٩ - ديوانه من ٧١
- ٣٠ - الحسين بن علي المغربي ، من أشهر رجالات السياسة والأدب في مصر والشام والجزيرة والعراق في القرن الخامس ، توفي سنة ١٨٤ هـ . له ترجمة جيدة في بغية الطلب لابن العديم .
- ٣١ - ديوانه من ٣ . مع فوارق .
- ٣٢ - ديوانه من ٤٦ - ٤٧ مع زيادات كثيرة .

- ٥٧٧١ -

- ٣٣ - ديوانه ص ١٢ - ١٣ مع زيادات كبيرة .  
٣٤ - ديوانه ص ١٥٨ .  
٣٥ - ديوانه ص ١٣٠ .  
٣٦ - ديوانه ص ٣٠ .  
٣٧ - ديوانه ص ٢٤ .  
٣٨ - ديوانه ص ٩٠ مع فوارق .  
٣٩ - ديوانه ص ٧٤ مع فوارق .  
٤٠ - ديوانه ص ٣٠١ .  
٤١ - ديوانه ص ٢١ .  
٤٢ - ديوانه ص ٣٠٢ .  
٤٣ - ديوانه ص ٩٥ مع فوارق .  
٤٤ - ديوانه ص ٢١٢ .  
٤٥ - ديوانه ص ٢٣٦ .  
٤٦ - ديوانه ص ١٠٦ .  
٤٧ - ديوانه ص ٢٧٩ مع فوارق .  
٤٨ - ديوانه ص ٣٠١ - ٣٠٢ .  
٤٩ - في هامش الاصل : هذا النصف بعينه لابي تمام - واوله : لاتذكري عطيل الكريم من  
الغنى انظر ديوان ، ابي تمام - ط . دار المعارف ٣٠ ص ٧٧ .  
٥٠ - هو حصن زياد او خربوط ، ورد ذكره في نصوص موسوعتنا اكثر من مرة .  
٥١ - المخراق : السيف .  
٥٢ - في هامش الاصل :  
كانما انا قوس وهي لي وتر  
ارمي بها عن بنات الهم والهرم

٥٣ - في هامش الاصل : اخذه من قول الصامي :

والعمر مثل الكاس ير

سب في اواخره القذى

- ٥٤ - ديوانه ص ٥٠ مع فوارق .  
٥٥ - ديوانه ص ٢٥٩ .  
٥٦ - زهير بن ابي سلمى ، وابن سنان هو هرم بن سنان الذي اكثر زهير من مدحه .  
٥٧ - مطموس بالاصل .  
٥٨ - جاءت اسرة ال الصوفي العربية من حلب إلى دمشق وتسلم زعماء منها رئاسة دمشق  
وبخلوا احيانا بصراعات مع حكام الدولة البورية ، التي كان معين اذو من اخر المتحكمين فيها .  
٥٩ - ضمن اسامة اجزاء من قصيدة المتنبي المشهورة التي قالها في عتاب سيف الدولة :  
واحر قلباه من قلبه شيم  
ومن بجسمي وحالي عنده سقم .  
٦٠ - كان طمان من رجالات زنكي وقد هرب منه والتجأ إلى دمشق .  
٦١ - وردت الابيات العشرة الاولى من هذه القصيدة في الديوان المطبوع في باب الفزل  
ص ٤٠ - ٤١ .  
ووردت الابيات الباقية في باب المكاتبات ص ١٤٦ - ١٤٨ ، كل ذلك مع فوارق .  
٦٢ - وزير صلاح الدين ، عبد الرحيم بن علي البيساني .



- ٥٧٧٢ -

- ٦٣ - تشورا : خجلا .  
٦٤ - انظر ما تمثل به الصعابي سعد بن معاذ يوم الخندق .  
لبيث قليلا يدرك الهيجا حمل  
ما أحسن الموت إن حان الاجل  
انظر سيرة ابن هشام ، تحقيق ط . بيروت ١٩٩٢ ص ٧٠٩ .  
٦٥ - اللطامي وهو لقب لشاعر كبير اسمه عليم بن شليم ، له ترجمة في الاغاني - ط . دار  
الكتب . ٢٤ ص ١٧ - ٥٠ ، انظر بيته :  
إنا معيوك فاسلم أيها الطلل  
وإن بليت وإن طالت بك الطيل  
ص ٢٠  
٦٦ - في شرح ديوان زهير . ط . القاهرة ١٩٤٤ ص ٢٨٠ ، عنا ، .  
٦٧ - تقدم ذكر هؤلاء جميعا في الجزء الاول من المجلد ، ومن أجل هذا انظره في ديوان ابن  
حيوس ج ٢ ص ٦٠٦ مع بعض الفوارق .  
٦٨ - ديوانه ص ١١٤ مع فوارق كبيرة .  
٦٩ - الدر باب طائر ، ودر حبیب ببغداد قرب نهر معلى .  
٧٠ - تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ١٨٤ مع فوارق ببعض الالفاظ .  
٧١ - ديوان ابن حيوس . ١٠ ص ٢٠ - ٢١ .  
٧٢ - من اسماء الراية : الصليب .  
٧٣ - حاجب بن زرارہ رهن كسرى قوسه حتى يعطيه طعاما يبعث به قبيلته .  
٧٤ - مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور . ٧ ص ٢٧٦ .  
٧٥ - نسبة الى حصن كيفا . مدينة من نيار بكر ( الانساب للسمعاني ) .  
٧٦ - لم أجده بهذا اللفظ ، انظر كنز العمال : ٣ / ٥٩١٢ .  
٧٧ - ليس بالانساب ، أو التعبير للسمعاني .  
٧٨ - مازال يحمل هذا الاسم على طريق دمشق خان ارنية ، يبعد عن خان ارنية / ١٥ كم  
وعلى مسافة ٤ كم منه معسكر الطلائع .  
٧٩ - تاريخ ابن عساكر : ٢ / ٣٥٢ - ظ - ٣٥٣ و .  
٨٠ - لم يصلنا .  
٨١ - اي صريع الفواني مسلم بن الوليد .  
٨٢ - طلائع بن رزيق وزير في القاهرة لمدة سبع سنوات ( ١١٥٤ - ١١٦١ م ) وكان من اصل  
ارمني . انظر النجوم الزاهرة : ٥ / ٣٤٥ .  
٨٣ - هدمت شيزر بفعل الزلزلة وقتل أهله بها أيام نور الدين سنة ١١٧٠ م .  
٨٤ - الخريبة - قسم شعراء الشام : ١ / ٤٩٨ - ٤٩٩ .  
٨٥ - كتاب الاعتبار ط . برنستون ١٩٣ : ١٣٤ .  
٨٦ - ليس بديوانه . انظر الخريبة : ١ / ٥٢٩ .  
٨٧ - ديوانه ط . القاهرة : ٥٥ .  
٨٨ - الخريبة : ٣ / ٥٠٢ - ٥٠٣ .  
٨٩ - ليسا في ديوانه . وطبع أيضا في القاهرة في الجزء الثاني من كتاب نواذر المخطوطات لعبد  
السلام هارون .  
٩٠ - طبع كتاب العصا بحماه وطبع أيضا بالقاهرة في الجزء الثاني من كتاب نواذر المخطوطات  
لعبد السلام هارون .

- ٥٧٧٣ -

- ٩١ - الخريفة : ٥٠٠ .
- ٩٢ - المصدر نفسه : ١ / ٤٩٩ - ٥٠٠ .
- ٩٣ - ديوانه : ١٠٩ .
- ٩٤ - الخريفة : ١ / ٥٠١ / ٥٠٢ .
- ٩٥ - ديوانه : ٢٠٩ ، وبداية البيت الاول فيه « أنا تا ... » .
- ٩٦ - ليست هذه الابيات في ديوانه .
- ٩٧ - ديوانه : ١١٨ .
- ٩٩ - ليست في ديوانه
- ١٠٠ - ديوانه : ٢٧٧ .
- ١٠١ - التكملة لوفيات النقلة : ١ / ١٥٨ - ١ ( ٥١ )
- ١٠٢ - الفرارة الوعاء - الكيس - الكبير للحبوب وغير ذلك .
- ١٠٣ - أي أسامة .

حواشي كتاب الاعتبار

- ١ - هو أبو بكر بن بشر الجزري .
- ٢ - لعل اسمه كان « بندكت » .
- ٣ - صلاح الدين محمد اليفسياني صاحب زنكي وكان لئذاك واليه على حماه .
- ٤ - فيما تقدم من نصوص تاريخ دمشق لابن القلاسي موضح لأوضاع هذه المدينة وذلك بالإضافة للدراسة المتقدمة عن الدولة البورية في المنفل .
- ٥ - ديوان أسامة بن منقذ - ط . بيروت عالم الكتب ص ٢١٩ - ٢٢٠ .
- ٦ - مرجع أن هذه النسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالي . انظر ترجمته في ملاحق الجزء الاول من المنفل .
- ٧ - الاسكندرية والبحيرة .
- ٨ - أي المسؤول عن ادارة القصور الخلفية .
- ٩ - في شرقي مصر .
- ١٠ - من قبائل الشمال الافريقي كانت في اطراف مصر .
- ١١ - بلدة في الصعيد . معجم البلدان .
- ١٢ - هو شجر السدر . معجم اسماء النباتات .
- ١٣ - أي منفل أو بعليز .
- ١٤ - أي اتخذ ديوانا سجل فيه مرتزقة من الجند .
- ١٥ - نسبة الى ببيق ، وهي بلدة قرب دمياط .
- ١٦ - الإسفلاطون إماش من الكتان ، موشى . والمستجب من فراء السنجاب ، والدمياطى حرير أو كتان مقصب اشتهرت به دمياط .
- ١٧ - واحة بين فلسطين ومصر .
- ١٨ - فارسية تعني صمغ الشجر ، ولعلها كانت من معادن شابه الكهرمان .
- ١٩ - يسمى جبال بين بين العقبة وسيناء . معجم البلدان .
- ٢٠ - السر فساد هو الجزء الذي يقبض عليه الراكب من اللجام ، معجم الالفاظ التاريخية في العصر المملوكي لمحمد أحمد دهان - ط . دمشق ١٩٩٠ .
- ٢١ - في منطقة البتراء ، وهناك دراسات أثرية معاصرة تنهب إلى أن أصحاب الكهف عاشوا في هذه المنطقة لا في افسوس - جنوب تركيا ، كما هو رائج .
- ٢٢ - أي أطولهم .
- ٢٣ - بلدة على بعد ٢٦ كم شمال غربي الخليل . معجم بلدان فلسطين .
- ٢٤ - قامت يبنى على رابية تبعد عن البحر مسافة ٧ كم ، وكانت محطة للقطار بين فلسطين ومصر . معجم بلدان فلسطين .
- ٢٥ - لعباس ترجمة جيدة انتزعتها من الملقى للمقريزي والحقتها في آخر الاعتبار .
- ٢٦ - لعلها من انواع البغال السفرية أو التقل .
- ٢٧ - كانت ولايته منية أبي الخطيب ، وهي مدينة كبيرة على شاطئ النيل في الصعيد الاننى . معجم البلدان .
- ٢٨ - من احياء القاهرة في شرقيها ، نالت اسمها من سكانها من برقة .
- ٢٩ - استعصب .
- ٣٠ - أي شاة .
- ٣١ - أي وعدا الا تؤنيهم إذا عدنا .
- ٣٢ - المويلح قرية وقعت إلى الشمال الشرقي من يافا . معجم بلدان فلسطين .

- ٥٧٧٥ -

٣٣ - المرجح هنا الرهوان ، وهو البرزون اللين الظهر في السير ، من الرهو وهو السير السهل .

٣٤ - انظر تاريخ دمشق لابن القلاسي . ط . دمشق ١٩٨٣ من ٣٩٨ ، ٤٢٧ .

٣٥ - حيث المكتبة الظاهرية حاليا في دمشق .

٣٦ - انظر تاريخ دمشق لابن القلاسي من ٤٢٧ .

٣٧ - ركن الدين مسعود الاول ( ٥١٠ - ٥٥١ هـ / ١١٦ - ١١٥ م ) .

٣٨ - افاد من هذه المكتبة وليم رئيس اساقفة صدور لدى كتابته تاريخ اعمال امراء الشرق ، ثم تاريخ الاعمال المنجزة فيما وراء البحار . وقد ترجمته الى العربية .

٣٩ - لعل هذا كان عام ٥١٧ هـ . انظر تاريخ دمشق لابن القلاسي من ٣٣٥ .

٤٠ - اورد اسامة هذه الحكاية في كتابه لباب الادب - ط . القاهرة ١٩٨٧ من ١٨٧ - ١٨٨

وهي غريبة فالتداول أن إصابة الاشتهر بالاشتر تمت أثناء فتوح الشام لدى قطع الدروب إلى اسية الصغرى للمرة الاولى . انظر رغبة الطلب لابن العديم - ط . دمشق ١٩٨٨ ج ١ من ٥٦٩ - ٥٧١ .

٤١ - ناقل مناقلة : هو بين العدو والخبب . القاموس .

٤٢ - أي التف .

٤٣ - القنطارية قناة الرمح أو الرمح كله .

٤٤ - لم ترد هذه الابيات في ديوان عنتره المطبوع .

٤٥ - شمالي الاثارب ، وسيرد هذا في نص ابن العديم .

٤٦ - انظر سورة آل عمران - الايتان : ٢٦ - ٢٧ .

٤٧ - على مقربة من حماه الى الشمال الغربي منها .

٤٨ - قرب بارين تتبع محافظة حماه .

٤٩ - سترة سمكة تقوم مقام الدرع .

٥٠ - كسماء : أي سهم حربي أو ماض . القاموس .

٥١ - احد قرني حماه الى الشمال منها .

٥٢ - في الغاب قرية اسمها الآن جوبة كرد لعلها هي .

٥٣ - كان هذا سنة ٥١٧ هـ . انظر تاريخ دمشق لابن القلاسي من ٤٢٧ .

٥٤ - ديوان قيس بن الخطيم - ط . دار صادر بيروت ١٩٦٧ ٨٨ .

٥٥ - انظر لباب الادب من ٢٠٨ ويوم الحديقة من ايام والوس والخزرج في الجاهلية .

٥٦ - هو وليم جوربان - انظر ما تقدم في تاريخ دمشق لابن القلاسي .

٥٧ - من شعراء ما قبل الاسلام اسمه سهل بن شيبان .

٥٨ - أي خنجر .

٥٩ - الخشت من انواع الحراب .

٦٠ - في محافظة حماه قرب محربة في احواز شيزر .

٦١ - ديوان المتنبى ط . بيروت ١٩٦٩ من ٢٠٣ قوله :

لعل عتبك محمود عواقبه

فربما صحت الاجسام بالعلل

٦٢ - سورة البقرة - الاية : ٢١٦ .

٦٣ - قرب برقعيد قريبة من الموصل بين جزيرة ابن عمر ونصيبين . معجم البلدان .

٦٤ - مرض يفقد الطائر ريشه .

٦٥ - النباح : الشديد الصوت ، والنبرة : الاكمة . القاموس .



- ٥٧٧٦ -

- ٦٦ - ندس برجله الارض : ضربها .  
٦٧ - الباقورة : جماعة من البقر ، والجزيرة كانت في وسط العاصي ، والجلالي من روافد العاصي .  
٦٨ - أي مسرعة .  
٦٩ - لعل : كلمة طمع واشفاق . القاموس .  
٧٠ - قطاة الدابة : عجزها أو ما بين الوركين .  
٧١ - لعل رسم اسمه باللاتينية Pedravan  
٧٢ - المراد كما هو مرجح ، التريسة ، قرية الى الغرب من حماء ، تابعة لمحرمة في أهواز شيزر .  
وفي تاريخ دمشق لابن القلازي ص ٣٨٣ ، تل ابن معشر ، أي العشارنة حاليا ، أو التريسة تقع في سهل العشارنة وتبعد عن محرمة ١٦ كم نحو الشمال الغربي . المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري .  
٧٣ - يحيط بالتريسة عدة تلال عرف أشهرها بتل الدروع .  
٧٤ - أي مقدم وجهه .  
٧٥ - موزا ، موزة ، حذاء ذو ساق طويلة .  
٧٦ - كذا من باب المبالغة مع أنه قال قبل قليل شهرين .  
٧٧ - على مقربة من شيزر بناء المنقذين قبل الاستيلاء على شيزر .  
٧٨ - على مقربة من قلعة المضيق في منطقة الغاب غربي حماء .  
٧٩ - الخشب فارسية تعني الحربة أو السهم .  
٨٠ - من اهل كفر طاب ، هو من شعراء الخيرية - قسم بلاد الشام ١٠ ص ٥٧٣ - ٥٧٤ . ترجم له أيضا ابن عساكر وياقوت والسيوطي في بغية الوعاة ، توفي سنة ٥٥٣ هـ .  
٨١ - صاحب قلعة جعبر .  
٨٢ - محمود بن نصر بن صالح ، صاحب حلب ، انظر ما تقدم حوله في الجزء الاول من المدخل .  
٨٣ - في أرمينية . معجم البلدان .  
٨٤ - أسفونا الآن تل اثري في جبل الزاوية ، ناحية كفر نبل ، منطقة معرة النعمان ، محافظة ادلب مساحة التل ٢٥٠ هكتار ماتزال بقايا القلعة ماثلة عليه المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري .  
٨٥ - أي نشيط .  
٨٦ - القرلة : مخاط كل ذي حافر . القاموس .  
٨٧ - تشابرا في الحرب : تقاربا . القاموس .  
٨٨ - ما يزال موقع الباشورة في حماء معروفا يحمل الاسم نفسه ملاصقا للسفوح الشرقية للقلعة .  
٨٩ - من روافد العاصي .  
٩٠ - اليراق : تركية معناها السلاح .  
٩١ - انظر قوله تعالى في سورة نوح - الآية : ١٤ : « وقد خلقناكم اطوارا » .  
٩٢ - أي راعي الخيل .  
٩٣ - أي مدير المطبخ .  
٩٤ - في هذا اشارة الى شيخ الجيل المسؤول عن العشيشية من الاسماعيلية النزارية في المنطقة .  
٩٥ - تعرف الآن باسم معرزاقي ، وهي تابعة لناحية محرمة .  
٩٦ - كان حصنا مكيئا الى الجنوب الغربي من معرة النعمان . معجم البلدان .



- ٥٧٧٧ -

- ٩٧ - اصطلاح ما يزال يستخدم في حماء يراد به وعاء منسوج من القطن ( جوال ) توضع فيه الجيوب وسواها .
- ٩٨ - العهد المخطط
- ٩٩ - هو محمد بن ابي محمد بن محمد ، ولد في صقلية عام ٤٩٧ هـ ، ومات في حماء عام ٥٦٥ هـ صنف عدة كتب نشر منها كتاب انباء نجباء الايتام - بيروت ١٩٨٠ .
- ١٠٠ - قلت : سريع ، ورمينا فوقا : رشقا . القاموس .
- ١٠١ - البشت : عباءة .
- ١٠٢ - اي رأس خنجر .
- ١٠٣ - يعرف حصن صهيون الآن باسم قلعة صلاح الدين ، وبلاطنس الى الجنوب منها .
- ١٠٤ - اي يستطلع .
- ١٠٥ - قرب منبع نهر ابراهيم في لبنان .
- ١٠٦ - اثناء واسع كالبرميل .
- ١٠٧ - اي وجه ناعما .
- ١٠٨ - اي Viscount
- ١٠٩ - في غربي سلمية منطقة تل سلب اسمها تل دبين . المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري .
- ١١٠ - عامل زنكي على حلب .
- ١١١ - الباشة : الحلقة .
- ١١٢ - ندس : قذف .
- ١١٣ - نجب في سيره : جد واسرع .
- ١١٤ - خان عنراء والقطيفة .
- ١١٥ - في نيار بكر . معجم البلدان .
- ١١٦ - من حصون نيار بكر .
- ١١٧ - شعر ننب عجل البحر .
- ١١٨ - على مقربة من إربل .
- ١١٩ - ليس في ديوانه المطبوع .
- ١٢٠ - أجرت المرأة : أياحت نفسها بأجر . القاموس .
- ١٢١ - لم ترد هذه القصيدة في ديوانه المطبوع .
- ١٢٢ - ديوانه ص ٢٥٥ .
- ١٢٣ - ليست في ديوانه المطبوع .
- ١٢٤ - ليست في ديوانه المطبوع .
- ١٢٥ - ليست في ديوانه المطبوع .
- ١٢٦ - سورة النحل - الآية : ٥٣ .
- ١٢٧ - هي ايضا اسعرت ، في نيار بكر .
- ١٢٨ - هو ابن الجوزي صاحب المنتظم وغيره من الكتب
- ١٢٩ - اي الوزير نظام الملك . انظر ترجمته في ملاحق الجزء الاول من المجلد
- ١٣٠ - الفقاع شراب يحضر من الشعير .
- ١٣١ - اي صاحب املاك كبيرة في المدينة .
- ١٣٢ - كان في حلب أيام ثمال بن صالح ، له رحلة نقل عنها ابن العديم في بغية الطلب ، وياقوت والقاضي حين ترجم له في اخبار الحكماء ص ١٩٢ - ٢٠٨ .
- ١٣٣ - سورة يس - الآية : ٦٨
- ١٣٤ - اي الجبلية ، فكوه بالفارسية : جبل .

- ٥٧٧٨ -

- ١٣٥ - دشت بالفارسية : واد ، صحراء ارض واسعة ، وخيز : وقوف . نهوض ، ارتفاع ، رفرفة .
- ١٣٦ - من روافد نهر الخابور
- ١٣٧ - القرنصة سقوط الريش ، فاذا شرع البازي القرنصة ينبغي ان يفرد له بيت لا يدخله الغبار والدخان ، لهذا يفرش حوله الصفصاف .
- ١٣٨ - يدعوها المصريون الان : السيد قشطه .
- ١٣٩ - على هامش الاصل : د وهو الطيهوج .
- ١٤٠ - ابن علم الدين علي كرد صاحب حماء .
- ١٤١ - قرب منطقة القاموس .
- ١٤٢ - ماتزال القرى تحمل الاسماء نفسها ، وهي تابعة لناحية عين الشرقية - منطقة جبلة - محافظة اللاذقية .
- ١٤٣ - الكندر : مجثم البازي . القاموس .
- ١٤٤ - جمع قلت ، وهي النقرة في الارض ، يستقنع فيها الماء .
- ١٤٥ - اي الصائد . القاموس - مائة حشر .
- ١٤٦ - من انواع طيور الماء . انظر البيزرة لبازيار العزيز الفاطمي - ط . دمشق ١٩٨٨ ص ٥٦ .
- ١٤٧ - اي يقطع الفولاذ .
- ١٤٨ - انظر البيزرة ص ١١٨ - ١١٩ .
- ١٤٩ - استرخاء . القاموس .
- ١٥٠ - شيء يشبه الحية . القاموس .
- ١٥١ - سباقا البازي : قياده .
- ١٥٢ - وثب .
- ١٥٣ - بنجت : اختبأت .
- ١٥٤ - قرية في سهل العشارنة تتبع منطقة محربة في محافظة حماء ، وتبعد عن محسنة / ١٢ كم باتجاه الغرب .
- ١٥٥ - كثانة او جعية .
- ١٥٦ - البالة : حربة او سكين طويلة ، تعريب كلمة د بالا ، التركية .
- ١٥٧ - اي الحبل من الرمل اللاطيء بالارض ، وسهل بين حزنين .
- ١٥٨ - اي تتلوى .
- ١٥٩ - طائر يشبه مالك الحزين .
- ١٦٠ - لعله من انواع البازي ، او انه تصحيف : د الزرق ، انظر البيزرة ص ٧٩ .
- ١٦١ - اطيح وابويط ونهشور من قرى الصعيد الاننى على النيل معجم البلدان .

## المحتوى

- ٣ - توطئة
- ٦ - أسامة بن منقذ من تاريخ دمشق لابن عساكر
- ١٤ - أسامة بن منقذ من خريدة القصر
- ٦٥ - أسامة بن منقذ من معجم الأدباء
- ٩٨ - أسامة بن منقذ من بغية الطلب
- ١١٤ - أسامة بن منقذ من وفيات الأعيان ١٢٠ - أسامة بن منقذ من الملقى للمقريزي .
- ١٣٢ - كتاب الاعتبار
- ١٣٤ - الباب الأول
- ١٣٦ - حروب وأسفار
- ١٣٨ - من شيزر الى دمشق
- ١٤٠ - من دمشق الى القاهرة
- ١٥٥ - أسامة يعود الى دمشق
- ١٦٤ - حروب مع الكفار والمسلمين
- ١٨١ - الحرب مع ابن ملأب
- ٢٠٨ - اذا انقضت المدة لم تدفع الشجاعة ولا الشدة .
- ٢١٨ - مع الاسود وسائر الحيوانات
- ٢٢٦ - تجارب حربية
- ٢٢٧ - قصد الفرنج دمشق .
- ٢٤٠ - طبائع الفرنج واخلأقهم .
- ٢٤٨ - من عجائب القلوب
- ٢٧١ - الباب الثاني - نكت ونوادر
- ٢٨١ - الشفاء بطرق غريبة
- ٢٨٧ - الباب الثالث - اخبار الصيد
- ٣١٥ - الخاتمة
- ٣١٧ - الملاحق
- ٣١٨ - علي بن السلار
- ٣٢١ - عباس بن ابي الفتح
- ٣٣٦ - الحواشي والهوامش .